المتسول

The Beggar

رواية

هنادي علي

ماســـتر

المتسول

رواية

هنادي علي

الجمع والإخراج
التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/ ١٧٨١١/٢٠٢١م

ISBN: 978-977-6884-04-5

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ماستر ©

٢٠٢١م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

إِهْدَاء

إلى روح والدي الهائمة في سماوات روحي أبداً..

إلى الدموع المتحجرة في مآقي الأمهات الثكالى..

الناطقة باسمهن حزناً وأحلاماً مؤجلة.

إلى وطن تسولته يوماً من عيني طفل ....

«إن خـــــير البلاد ما حمــلك»

الأمام «علي بن أبي طالب»

كرم الله وجهه الشريف

هنا في الشرق تتشابه الحكايات وتتوارث الأحلام المؤجلة.

هنا تموت الحقائق في حلق الشعوب موؤودة بتكهنات أولي الأمر.

هنا تزرع أشجار الدراق كاستعارات مشرفة عن أوطان كبيرة مسلوبة الفجروالتطلعات ..

المتسول حكاية كل زمان في هذا المشهد المشوب بالضباب رغم اتساع أحداق مفكريه وعلمائه

المتسول حكاية «درية» و «حسن» ..قصة النور المسكوب في وجه «مريم» رغم الدمامل..

حكاية فقر ووطن وحب متخاذل ..حكاية شجرة دراق صغيرة تظلل أجيالا من هجير الفقرلتهديهم مرغمة لأتون الحرب ..

المتسول حكايتنا جميعا ..

نحمل أوطاننا ...لأنها تعجزعن حملنا ...

هنادي علي

الولادة

كان شتاءً دافئاً على غير العادة.

امتطى الثلج صهوة الجبال المترامية عن بعدٍ، أمّا ما دنى من التّلال الصّغيرة آثرت على نفسها عناء ارتداء معطفها الأبيض فبقيت تجامل الرّياح القادمة من الشّرق تتوشح غيمهُ تارةً وضبابهُ تارةً أخرى...

كلّ شيءٍ كان غير اعتيادياً...هذا ما اعتادت دريّة أن تقوله كلما تذكّرت تلك الليلة التي أنجبت فيها ابنها الأصغر حسن... كان بهيّ الطّلة، جميل الوجه، على خده الأيمن خالٌ صغيرٌ وغمّازتين جميلتين تحددان ابتسامته.... هو اسمٌ يليق به حقاً.

وتبتسم ابتسامتها الهادئة كالعادة وهي تستعيد معظم ذكرياتها.

- أنت تحبّينه كثيراً يا أمي.... ربّما أكثر منا جميعاً.

تجيب بابتسامة وادعة: لا يا أحبّتي كلكم أبنائي وأحبكم من دون مفاضلة أحدكم على الآخر، ولكنه آخر العنقود وتبقى ذكرياته قريبة على البال.

الجواب لم يتغير لأسئلتهم المعتادة على لسان دريّة الشكور القانعة التي ما استسلمت يوماً لليأس والجزع على الرغم من هول ما مرّبها في حياتها القاسية.

دريّة الصّغيرة فقدت أمّها أثناء ولادة أخيها الأصغر وكانت آنذاك تبلغ الخمس سنواتٍ ونيف.... طفولتها الصّعبة لم تعكس

عليها ظلّ القساوة بل على العكس نشأت هادئةً هانئةًّ بكل ما يحدث لها ومن حولها.

أختها الكبرى/تهاني/ كانت الأم البديلة ولكنّها الأم الطّائشة التي ما نفعت يوماً لتكون قدوةً أو مثلاً أعلى لدريّة، ومأساة وفاة والدتها لم تحملها المسؤولية بقدر ما أفاضت فيها سيلاً جارفاً من النقمة على أبيها لأنها اعتبرت أن ما حدث لأمها مردُّه إهمال السّيد وتقصيره لتلك الجارية التي تخدم بيته فآثرت وهي الصبيّة أن تتنصل من مسئوليتها تجاه أخوتها السبعة محمود الأكبر بين إخوته -سعيد-عمران-جمال-دريّة-إحسان.

دريّة الصغيرة كانت تتحمّل عناءه كلّما تسللت تهاني لموعدٍ غرامٍ خفيٍ مهما كانت حالة الطّقس صيفاً أو شتاءً.

ولأنّ تهاني غادرت منزلهم مبكراً كبرت دريّة سريعاً وانتهت أحلامها بشكل أسرع، زواج أختها حتَّم عليها ترك مقعد المدرسة التي أحبّتها وأجبرها على ارتداء إزار المطبخ وتحمّل عبء بيتٍ بأكمله وهي ما تزال غضّةً لم تبلغ الثالثة عشرة بعد.

وعلى الرّغم من هدوئها الدّائم المطبق على ضجيج روحها المتزايد يوماً بعد يوم، مرّت السّنون واجمةً متثاقلة الإيقاع حتى وجدت نفسها أمام خيار الزّواج الوحيد في عائلةٍ ذكوريّة ٍمفرطة القسوة.

كان إبراهيم في الخامسة والعشرين من أقرب أصدقاء شقيقها سعيد وكانا يعملان معا في لبنان. وهو شاب قوي البنية يمتلك عينين خضراوين وشّعر كثيف أسود، يعيش حالة من الطيش ويتعاطى الخمر ولعب الورق والسهرات، وفي أغلب الليالي كان يأتي إلى بيت محمود ويلعب الورق مع أشقائها.

محمود هو أوّل من لاحظ نظرات إبراهيم الخاطفة الشغوفة لدريّة، فكان يبعدها إلى غرفةٍ أخرى من دون أن يثير انتباه أحدٍ لما يعتمل داخله من غيرة، محمود الأخ الأكبر الذي كان يتعهد أرض والده زراعةً وسقايةً وخصوصاً بعد عجز الأخير جرّاء آلام المفاصل المبرحة فترتّب عليه بقاؤه في البيت دونما حراك إلا لقضاء حاجته أو لتحريك جسده قليلاً كي لا يدركه العطب.

أما أرضهم فلها قصّةٌ مفادها بأنّ جدّهم هاجر فيما مضى إلى أمريكا الجنوبية مع أقرانه الشباب ولكنّه لم يفلح كما أفلحوا فامتهن أبسط المهن وربما أكثرها جنياً للمال في ذاك الوقت ألا وهي التسوّل، فابتعد عن مدينة ريودي جانيرو التي يقيم بها بنو جلدته العرب وغادر إلى مدينة أخرى لا يعرفه فيها أحد.

ينزل كلّ يوم إلى شارعٍ من شوارع المدينة ليجلس على قارعة أحد الأرصفة، يفترش تحت ظل ويبسط كفه للمارة وأكثرهم كانوا يعطفون عليه لأنه كان يفتعل أن يظهر بالشكل الذي يثير شفقتهم ليستدر عطفهم، وبهذه الطريقة قضى عشر سنوات في التسول بعدما أتخمت غلته من المال عاد إلى ذويه فاشترى أرضاً لا يستهان بها في تلك البلدة الكبيرة المتاخمة للمدينة، افتُضح أمره من أحد أبناء منطقته حين قام بزيارة تلك المدينة التي يتسوّل بها ورآه بالمصادفة يتسوّل عند ناصية الشّارع وعندما اقترب منه تجاهله محاولاً إنكار معرفته به وتهرّب منه مسرعاً مختبئاً بين زحام المارة، وحين عاد وجد سمعته قد سبقته بأنّه كان زعيم المتسّولين في أميركا الجنوبية كنوعٍ مِن التهكّم والاستهزاء وعلى الرغم من كل محاولات إنكار القصّة إلا أنّ النّاس كانوا يميلون للتصديق دوماً. متسّولاً كان أم غير متسّولٍ، المهم أن الأرض أصبحت ملكه،

قُسِمت على أولاده الأربعة بعد وفاته بالتساوي ونصيب أبو محمود كان الأرض الكبيرة المحاذية للنهر والأرض الجبلية عند الصخرة الكبيرة، أرض خصبة معطاءة ومحمود مع أخويه جمال وعمران هم من يهتمون بأعمال الأرض كلها وكذلك تأمين متطلبات المعيشة أما تهاني فقد تزوجت من ابن أحد المهاجرين إلى استراليا والذي عاد فأخذ عائلته معه في آخر مرة قدِم فيها للوطن، وبهذا أصبحت تهاني بعيدة كلياً عن عائلتها إلا من بعض رسائل كانت تصلهم تباعاً بالبريد العاجل.

أما سعيد فكان من هواة العمل المهني وامتهن على يد أحد الحدادين في القرية صنعته تلك وغادر البلدة للعمل مع صديقه إبراهيم الذي يعمل بنّاءً في لبنان وبالتحديد في محافظة البقاع.

إحسان الأصغر كان من ألمع التلاميذ في المدرسة فتكّفل محمود بدراسته حتى ينال شهادةً متوسطةً ليصبح أستاذاً محترماً في مدرسة القرية وهذا ما حصل فيما بعد.

دريّة تزوجت زواجاً تقليدياً كحال أكثر بنات بلدتها بموافقةٍ شكليةٍ أيضاً، سنين عمرها الفتية طوت ربيعها السابعة عشر، فتاةٌ يانعةٌ تملؤها الحياة بأبهى صورها، بجديلتين طويلتين، وجه ينضح جمالاً بشفاه كرزية مكتنزة وقوام أشبه بمزهرية عابقة بالورد.

قدّم لها إبراهيم محبساً وثلاث أساور وقرطين جميلين، أحبّهما كثيراً عندما رأى دريّة تلبسهما لأول مرة، وهما يقبّلان جيدها بلطفٍ كلما تمايلت أو داعبتهما نسمات خجلة.

تمّت الخطبة بسرعةٍ فائقةٍ وكان على إبراهيم أن يكمل تجهيزات البيت قبل الربيع وهذا ما حصل، فما أن أقبل الربيع

حتى استوفى إبراهيم كل التحضيرات وغدا البيت جاهزاً ليسكنه وعروسه الجميلة.

تم العرس، عرسٌ ريفيٌ مفرط البساطة زاخم بالفرح، أنوارٌ وزينةٌ وحلقات رقصٍ أحادية، جلست دريّة بفستانها الأبيض الطويل بجانب إبراهيم ولأول مرة يفضحها هدوءها المعتاد، إحساسها بالسعادة المشوبة بالخوف من قادم لا تدرك كنهه، تخيل لها دريّة أخرى ترقص وحدها سعيدةً بعيداً عن ضجيج المحتفلين أما خداها فكانا يخبران الكثير، إذ لا يمكن لجنة أن تسكب رحيقاً بأكمله في كأسين رخاميتين إلا بإيعازمن وحي الحب، هذا ما أعلنته وجنتاها اللتان قطرتا عسلاً وخمراً.

غافلها مقترباً فبادلته بابتسامتها الندية، همس في أذنها بصوت أشبه بطنين الفرح في مواكب الضوء: ما أجملك !، مبارك لي بك يا عروس.

الشيء الذي اختلف على دريّة بعد أن أصبحت زوجة إبراهيم لم يكن اختلافاً في صورة العيش بل في البحث عن النفس، أصبحت شغوفةً بعاداتها الخاصة التي كان إبراهيم نادراً ما يحترمها، قهوتها الصباحية هي من بقيت تلازم بداية صباحها أمّا البقية فقد توارت خلف متطلبات إبراهيم الكثيرة، كساعات تأمّلها الهادئ عندما تركن في غرفتها وحيدةً بعد انقضاء نهارها في أعمال الطهي والتنظيف، وجلساتٍ محببةٍ إلى روحها مع فتيات الحي اللواتي كنّ قريبات من عمرها يشاطرنها الأمل والقدر نفسه. إلا أنها ومع كل هذا كانت سعيدة وأمارات الرضا تبدو على محياها وتصرفاتها، مازحها يوماً إبراهيم بأن اسم رضيّة كان ليليق بطبعها أكثر، إلا أنّه عاد واستطرد بأنها درّة فريدة تشع نوراً بقلبه

وتملؤها فرحاً وحبوراً.

ومضت الأيام مسرعة، انقضى شهران ونصف على زواجهما وحان موعد عودة إبراهيم لعمله في لبنان، أصبح لديه الآن زوجة وعليه أن يكدَّ في عمله ليؤمن لها عيشاً كريماً يليق بوعوده لها، ذا صباح حزم أمتعته وودع دريّة وانطلق مغادراً البلدة.

اعتادت دريّة على غياب إبراهيم بسرعة مذهلة حتى تخيل لها بأنها ترحب ضمنياً بعودتها لحياتها الرتيبة قبل زواجها، عادت لتراتبية يومها ساعات تأملها الطويل وأيضاً عاودت صويحباتها لزيارتها بعد انقطاع دام طيلة شهور بقاء إبراهيم في البيت، كانت الساعات المتبقية من النهار التي تفرغ من أعمال البيت تصرفها بزيارات لمنزل أخوتها، فتعمل على تنظيفه وترتيبه وتحرص أن تطهو لهم طعاماً يكفي لحين عودتها لدارهم مرة أخرى، زياراتها لمنزل أهل زوجها لم تنقطع حتى ولو على فترات متباعدة.

في ساعات تأملها الخاص كانت ثمة براعم أحلامٍ تتفتح في روحها، تعطر قلبها بصفاء لا نظير له فتحسُّ بأنها مثل طيرٍ حرٍ مغرّد يعلو ويهبط في فضاء لا تدركه سوى دريّة بعينيها الناظرتين صوب قرص الشمس، الغارب عن نهار متعب بحكايات الناس المتلهفة للبوح، المترقّبة لانقشاعات أمل في حياتهم الصعبة.

عندما كانت تفصّل حلمها على قدر ما تحسبه بعقلها الباطن كانت تبصر أمامها بعين الواقع مجرّد أسرةٍ ريفيةٍ صغيرةٍ متواضعةٍ لن ترحب بها الحياة على قدر ما تحب وتأمل، إبراهيم لن يكون زوجاً مثالياً على أي حال فماضيه لا يخفى عليها ولكنّ أهله أناس طيبون، كما أن الزواج يغير سلوكيات الرّجال كلها، هذا ما قاله لها والدها وأخوتها حين تقدم لخطبتها.

جميع أهالي القرى في ذاك الوقت كانت حياتهم تتسم بالبساطة الفطرية حتى بقلّة حيلتهم وامتنانهم للأقدار التي تعاندهم وتوسعهم ضنكاً بالعيش وبالأمل، قلّة قليلة ممن ثاروا على فقرهم، أداروا ظهورهم لواقعهم المُر، فحزموا حقائبهم وسافروا إلى حيث تسوقهم أقدارهم وكلّهم أملٌ بتغيير دثار الفقر الذي يلبس حياتهم وكينونتهم، علّهم إن عادوا غيّروا واقع حالهم وحال قريتهم التي يحبون، لن تشبع الغربة بطناً جاع في وطنه ولو أوهمته موائدها بغير ذلك، /قوت الغربة لا يقيت القلوب / .

ثمة شيء ما في الأرض التي تحملك لحظات ولادتك الأولى.... شيء فطري غريزي لا هو محسوس كالدم ولا مدرك كالروح...هو ذاك الشيء الذي يأتيك كمس إلهي /أنت من هذا الطين /.

واهمٌ من يعتقد بأن طين البشر واحد، كلٌّ منّا جبله الله من تراب وطنه بماء الحياة وهكذا خلق الانتماء الذي يسمو بالروح فوق العرق والدين.

أنت منّي...وللأبد مهما رحلت هنا طينتك الأولى وإليها ستعود...

نعم هذه هي الحقيقة المطلقة التي لا تقبل الجدل ولا يشوبها الشّك ولكن للحياة منطق آخر. لقمة العيش التي تجعل النبض يكفر بالجمال، بالحب، ويسعى فقط لإسكات صرخات البطون وحسرات الأعين.

لم يمتلك جميع أهالي القرية أرضاً تعيلهم، البعض فقط من اكتفى بمردود أرضه، أما من تبقى منهم كان يحتم على أحد أفراد الأسرة أن يسافر إن أراد سعة في العيش له ولأهله، هكذا الحال فقر وضيق وآمال مؤجلة إلى حين، امتياز بناء المدرسة التحضيرية فيها كان هو السبب الوحيد الذي تُحسد عليه من أهالي القرى

المتجاورة.

مشهد الأستاذ الجميل بمشيته الوقور أثناء قدومه إلى المدرسة صباحاً كان يغري الفتيات المقبلات على الصبا فيحاولنّ المرور قربه بغية التمتع بطلته البهية، حالمات بلفت انتباهه، كان مثل شعاع نور يضيء قلوبهن وبصائرهن أيضاً.

هنا في الشرق يلغي الزواج أشياء كثيرة في حياة الفتاة وخصوصاً إن تزوجت في سن مبكرة، نقلة كبيرة من ضفة الأحلام إلى ضفة الحياة المؤطّرة بالمسؤولية.

الشرق هنا لا يحمّل الرجل نفس أعباء المرأة وكأنّ مشقة الإنجاب لا تكفيها!

سيكولوجية المجتمع هنا مضطربة ومتحيزة للرجل دوماً، والغريب بأن التحيزيأتي أحياناً من النساء أنفسهن، فما دام يعيل الأسرة تحق له كل أوجه الطاعة والأوامر أيضاً، ولا يخلو الأمر من بعض المفارقات فمن لا يعيل أسرته ويؤمّن لها حقها الذكوري فقط يقال عنه تهكماً أوربما تجاوزاً / ظل رجل ولا ظل حيطة /.

تمنَّت دريّة أن تعيش بهناء العيش وسعته وأن يكون إبراهيم رجلاً مختلفاً وزوجاً محباً، عاشت على هذا التمني طيلة الأشهر الأولى من زواجها، خلال فترات منتظمة وغير متباعدة كان إبراهيم يمدها بالمال الكافي لاحتياجاتها بإرساله مع أحد العائدين إلى القرية أو مع أخيها سعيد وكانت تسعد برؤيته وهو الأقرب إلى قلبها بين إخوتها، سارت بها ركب الأيام قانعةً راضية تمضي وقتها مع أهلها وفي أرضها الوحيدة القابعة في البيت، فتحرثها حينا لتزرعها ببذار الحنطة وبعض الخضروات البسيطة وحيناً تنزع منها ما نبتت من أعشابٍ ضارّة جراء سقايتها المتكررة.

ثلاثة أشهر حتى عاد إبراهيم بإجازته الأولى، فاجأها بكم من الهدايا التي حملها معه، فساتين رائعة ، شالاتٌ ملونةٌ، أحذيةٌ جلديةٌ، وحقائب يدٍ صغيرة، قدّمها لها بكل الحب ولأول مرّة ترى دريّة لمعة الحب واضحةً جليّةً في عيني إبراهيم، جفل قلبها بسعادة لا توصف، ابتسمت له ممتنةً وعانقته قائلة له: لقد تكلفت كثيراً يا إبراهيم.

- لا تقولي ذلك، أنت أغلى ما أملك. ردّ إبراهيم.

بقي إبراهيم قرابة الأسبوع، مرّ بلمح البصر، تساءلت دريّة في نفسها، ما الذي يجعل الأيام في غياب إبراهيم تمضي متثاقلة واهنة؟ وما سرّ خفّتها وسرعتها في حضوره؟ هو الفرح الذي يأتي كطير حرّ يغطّ قليلاً ليرتاح ولكنّه سرعان ما يعاود التحليق متى ما سنحت له الفرصة.

سرعان ما أحسّت دريّة بالوحدة ثانيةً، ولكن ليست بذات الترحيب. هذه المرّة، اعتادت على شراكة الحياة مع زوجها، نصفها الآخر الذي يترك فراغاً مؤلماً إن غاب. وتساؤلاتها لم تتوقف مع تقادم الوقت وكان أجملها عندما أحست وهي في الحقل الصغير القريب لبيتها بذاك الدّوار البسيط، دارت في هالة النور ما يُقارب الدّقيقة، وضعت يدها على رأسها ونظرت في قرص الشمس بعدما أطبقت جفنيها ماسحةً بضع قطراتٍ متلألئةٍ فوق جبينها من دون أن تعي لم، عادت إلى البيت لتركن قبالة شجرة الدراق اليانعة، تمتمت في نفسها: ما هذا؟!

هو دوار بسيط ليس إلا ولكن حدسها أنبأها بعظمته، حدسها القوي ما خدعها يوماً ولطالما كانت تصدقه وتتصرف وفقه في أمور كثيرة، لقد سمعت خالتها مرّة تتحدث عن ذاك الدوار... وما

أجمله!

لمعت عيناها بألف لون للفرح وابتسمت كما لم تبتسم من قبل، تنهدت عن عمر بأكمله وقالت محدّثةً ثمرة درّاق ٍمتدليةٍ من غصنٍ قريبٍ: الحمد لله.

وتحققت النبوءة وبذرة الفرح بدأت تكبر في بطنها وتكورت على مر الشهور وغدت كبرعم ورد ملتحف ٍ بالعطر ينتظر يوماً لينثر أريجه، كانت كوّة أمل ينفذ منها النور إلى قلب دريّة وجوارحها، هذا النور الذي سيضيء عمراً قادماً تتخوف منه في عقلها الباطن من دون أن تعلم لماذا؟ .

خلال حمل دريّة الأول لم يأت إبراهيم من سفره سوى مرتين، وبين هاتين الزيارتين كانت تزاول أعمالها الاعتيادية بكل رضا، بيتها دائماً ينضح نظافة وعطراً، مؤونة شتائها جاهزة، وأرضها القريبة تختال حسناً كروض حافل بالألوان.

تلك الأرض كانت كلّ ما يملكها إبراهيم من هذه الحياة بالإضافة لمنزلهما الجميل.

وبين يديها من النقود ما تكفي لمستلزمات الولادة الأولى من ثياب للمولود القادم واحتياجاته الأخرى، ولم تنس ادخار بعض النقود لشراء بعض الحلوى لتقديمها لمن يأتي لمباركة المولود الجديد.

في ذاك الوقت لم يتجاوز عدد الأطباء في المدينة المتجاورة ثلاثة أطباء وباختصاصات مختلفة، طبيب أسنان واثنان باختصاص عام، يعودهما جميع أهالي القرى البعيدة متحملين عناء الطريق ومشقتها سيرا على الأقدام وتدك أقدامهم الصخور والأحجار المتناثرة التي تزاحم الطرق النيسمية وتضيف هماً

إضافياً لمرضهم، ومن حالفه الحظ سيجد حافلة نقل قديمة كانوا يسمونها البوسطة التي تمر في هذه الدروب الوعرة مرتين في اليوم، جميع الناس يتهيؤون منذ الصباح الباكر ترقباً لمرورها ومن يتأخر وجب عليه إما انتظارها لفترة ما بعد الظهيرة أو أن يتحمل عناء المسير مشياً إلى حيث يريد، لاسيما في حالات المرض الذي لا يمنح فرصة للمريض أن ينتظر لحين قدوم الحافلة بقدر ما يهمه أن يصل إلى عيادة الطبيب بأية وسيلة، فغالباً ما تأتي الحمى في خِضمّ الليل، الليل معشوق الأوجاع كما العشّاق، ولكن الألم لا يرحم وما استدعى نقله كحالة طارئة لن يعترف بالظروف والإمكانيات ومن انتظر رغماً عنه فإما الموت أو النجاة وهنا تتدخل الأقدار والحظوظ سلباً أو إيجاباً.

حالات الولادة في القرية دائماً محكومة بالمصادفة، فالمولود أيضاً لا ينتظر وقتاً معيناً لقدومه، المولودون جميعاً يختارون بدء حياتهم بأنفسهم، «إنّه المخاض».

المخاض بحد ذاته حادثةٌ كونيّة مترفة الأحاسيس مترامية الأبعاد، ذاك الجسد المتعب العابق بالألم الماسك بأذيال الترجّي والتصبر.

كيف تلج الروح بالروح ؟!، وكيف تخرج منها كماءٍ ينسلّ من ماء، قد تبدو الولادة أمراً عادياً لكل الناس إلا أنها من أعظم الأحداث التي تقع دونما إدراك لعظمتها.

هو التعود على شيءٍ ما يفقده بعضاً من هيبته ولكن ذلك لا يقلل من عظمته أبداً، فالعيب هنا يكمن فيمن يغفل جاهلاً أو متعمداً، الشمس تشرق بكامل فخامتها على الكون وهناك من لا ينتبه لإشراقتها، من يلبس نظارته ليتفادى وهج الضوء وهناك

من أعماه الله فلا يرى ضوءا ولا يستشعر بدفء يدله على بدء الحياة.

مقدار الحب واحد في كل حالات الولادة كما مقدار العذاب، دريّة استفاقت في تلك الليلة مقبوضة الصدر والأنفاس، وجع خفيفٌ في بطنها أودى بها في وادي الهواجس والشّك.. وهي الوحيدة في ليل مدلهم هادئ، أبقت حواسها يقظة للحد الذي منعها من العودة للنوم، استوت في فراشها الدافئ حائرةً خائفةً من التقلصات التي تزداد وتشتد، عليها أن تفكّر وتحسم أمرها سريعاً، في وحدتها هذه لن ينقذها سوى حدسها وفطنتها، وفقاً لحسابات أم إبراهيم فإن هذا الشهر هو شهر وضعها المرتقب.

ليل تشريني هادئ وحزين ومولود يعلن قدومه بنفسه غير آبهٍ بوحدة أمّه في بيتٍ منعزلٍ عمّا يجاوره من بيوت، وجعها يزداد حدّةً ويقسو عليها أكثر فأكثر.

عليها أن تتصرف وتحزم أمرها، لن ينجدها أحد في هذا الليل، وبسرعةٍ فائقةٍ صرّت ثياب وليدها وارتدت معطفاً وشالاً، وتناولت فانوساً صغيراً لتستنير به في هذا العتم الأخرس إلاّ من نقيق ضفادع البركة الكبيرة أو نعيب بومةٍ شاردةٍ على غصن قريب.

بحالات الألم والخوف تطول المسافات وتبتعد وتفترش امتداداً آخراً، كانت تحث خطاها متعجّلةً إلا أنها أحسّت بأن خطواتها تأججت في مكانها متسمّرةً في منتصف الطريق، تمتمت في نفسها: أما كان بالإمكان لوالدة إبراهيم أن تبيت عندي في أيّامي الحرجة هذه.

وهي اليتيمة منذ دهر، جرح غياب الأم لا يندمل أبداً يُنكأ عند أي خدشٍ للروح، عند أي صفعة ألم، شعور اليتم بغيضٌ متّشح

بالحسرة والأكثر بغضاً منه أن تتعايش معه بمقدار التحسّر هذا.

حثّت الخطا على ذلك الطريق الترابي، آمالها انعقدت في سرعتها في الوصول وهي الخائفة من عتم الطريق، الواهنة الحركة من الوجع، المتأهبة لقادم سيغير ملامح حياتها برمّتها.

عندما وصلت كان لهاثها محتدماً ودقّات قلبها تصمّ أذنيها، قرعت على الباب بظاهر يدها ونادت بملء صوتها: خالتي أم إبراهيم أنا دريّة.... أنقذيني.

فتحت أم إبراهيم الباب فزعةً وقبل أن يصفعها الذهول على وجهها، استبقت دريّة سؤالها المفترض بقولها: إنّها الولادة.... المولود قادم.

أدخلتها أم إبراهيم بتشوق مُحِبّة، أضرمت لها النار ثانيةً وجهّزت غرفة لها ولمولودها القادم، أمّا دريّة فبدأت تلتقط أنفاسها رويداً رويداً، هدأ روعها أخيراً إلا أنّ مخاضها اشتدّ وصار أعنف وأقسى حتى أحسّت بأنه وجع مطلقٌ لا نهاية له.

انتهى المخاض على عكس ما بدأ به، ذاك الوجع الذي فرض سطوته على ساعتين من الوقت خالتهما دريّة زمناً سرمدياً، قضى نحبه عندما قطعت أم إبراهيم حبل الألم ذاك، عقدته من ناحية الطفل وانتزعت من دريّة مشيمةً عابقة بالألم المقدّس لتنتهي قصة خلق السعادة من جوف الألم، وأيّ سعادة!.

هدأت دريّة وسكنت وذهب عويلها إلى غير رجعة، خفّت كل الأصوات المنبعثة منها أنيناً وتوسلاً ودعاءً، وحده من كان يصمّ الليل بصراخه الجميل العابق بالحياة. حملته دريّة بين ذراعيها وأنفاسها تضحك غبطةً وامتناناً لله الذي يسّر ولادتها ووهب ابنها جمال الخلق وتمامه، قبّلته على خدّيه ويديه مراراً وفي كلّ مرّة

تتنشق برائحة عطرٍ مختلف في أنفها، هو نسيم الجنة يهّب على روحها عبقاً بعطور الحياة، وما طفلها الصغير إلاّ بوابةً لعبورها، تنهّدت كمن يزيح ثقل المجرّة عن كاهله وهمست في أذن الصغير: كم أحبّك!.

حقّاً كم تحبّك ! فهي لم تعلم من قبل كيف يتجلّى هذا الحب وبأي شكل يتجسّد، هو حبٌّ مختلفٌ عن أي حب ٍ آخر، حبٌ غرائزي لا يحتاج لسبب يفسّره، أو اثباتاً لتصديقه، هو حبٌّ بديهيٌ يلج الروح حين تنفصل عن بعضٍ منها، حين تتجزّأ وتعطي روحاً أخرى تشابهها، خيطٌ إلهي ٌ خفيٌ يربط روحيهما دونما انقطاع، لا يزيله غيابٌ أو موت، حبٌ تتوّجه القداسة فما من مقدّس إلاّ وجاء من خِضمّ الألم.

دريّة أصبحت /أم أحمد / من الآن فصاعداً، تحتّم عليها أن تعتاد على لقبها الجديد وأن ترهف حسّها لسماعه من نسوة القرية اللواتي قدمن تبريكات لها بالمولود الجديد، انهالت عليهما الهدايا من الجميع، الأهل والأقارب والأصدقاء، كيف لا وقد جاء نجم صّغير حبيب للروح والقلب كما يُقال، زخم من الهدايا امتلأ به صندوقه الخشبي القابع في زاوية الغرفة، أمّا خاله محمود فقد أهداه سريراً خشبيّاً صنعه خصيصاً له أحد نجاري القرية، كان هديّةً أفرحت قلب دريّة حدّ البكاء، عانقت أخيها ممتنة لكرمه وحبّه فقبّلها على جبينها ماسحاً دمعتها بأنامله ليطمئنها ويسّكن شجنها.

قدم إبراهيم من سفره بعد ولادة دريّة بعدة أيامٍ ومنذ لحظة وصوله الأولى هرع ليحمل ابنه الصغير ضاحكاً ملء رئتيه، وبسرور بالغ قال مازحاً أمام زوجته وأهله أنّه أبو أحمد منذ الآن ووجب

عليهم مناداته بذلك.

سلوك إبراهيم لم يتبدل كثيراً بعد قدوم الصغير، بقي مع عائلته شهرا واحدا أمضاه في مجاملة المهنّئين وسهراته الخاطفة مع أصدقائه القدامى، التي كانت تمتد إلى ما بعد منتصف الليل ورائحة الخمر تفوح منه حتى تملأ فضاء المكان.. ومئات الأسئلة كانت تغص في حلق درية، متمنية بعد مولودها الجديد أن يقوّم زوجها من سلوكه ويشعر بمسؤولية عائلته .

بعد انقضاء الشهر ودّع دريّة والصغير وحزم أمتعته عائداً من حيث أتى.

شعور الوحدة والقلق عاد ليخيّم على حياتها، لكم تمنت أن يبقى إبراهيم لفترةٍ أطول ولكنّ كل الظروف كانت تشير بإصبع مغادرته الحتميّة.

ذاك الطفل النّضر بخدّيه الورديين الممتلئين صحة وعافية صار رفيقها الوحيد وبئر أسرارها العميقة، غدت دائمة الشكوى متململةً من أي أمر يحدث وبضحكةٍ من ذاك الصغير تتغير أحوالها وتتبدّل حتى تمسك بأقانيم السعادة كلها، إلاّ أنّ تلك الغصّة اللعينة العالقة في ضلوعها غالباً ما تُفزع طيور الفرح المغرّدة في صدرها فتهرع مع شهقات أنفاسها صوب عينيها الواسعتين لتُسقِط دمعةً في نهاية كل ضحكة.

كبُر الصغير وكبرت معه، كبرا كقصّة حب لم يقرأها أحد، كل الأمهات لديهنّ أبناء، أمّا لدريّة الابن كان يعني صورة ملونة المعاني، صورةٌ بأبعاد حياة، تعلمت منها الحياة كما هي وليس كما تخيلتها، هو من جعلها تتلمّس البريق في عينيه لا في فوانيس الكون. من جعلها أميرةً عندما يحتاجها وأسيرةً حين تحتاجه.

تباً للحاجة... قالتها ماسحةً دمعةً هوت من عينها قبل أن تغفو، في ذاك الليل الطويل كان إبراهيم هو عنصر المعادلة الناقص في تركيبة الشّوق تلك.

صباحاً جمعت بعض الحطب من فناء البيت وأضرمت النار في مدفأة الحطب القابعة وسط الغرفة الكبيرة، أحمد الصغير بوجه باسم كصبح تفتّح للتّو يخطو أولى خطواته محاولاً أن يتوازن بأن مدّ ذراعيه البيضاوين وكمرجوحة نقاء يتمرجح نحوها بعظمةٍ لا توصف.

- آهٍ يا عين أمّك. قالتها بعينين مثقلتين بغمام يوشك على الهطول .

تهب نسمة فتنفلت المرجوحة ويقع على الأرض فتهرع نحوه لالتقاطه بذراعين من حنان وتقبّله قبلةً ملتهبةً.

- ابنك يا دريّة أصبح شابّاً.... لن أخاف عليك بعد اليوم.

صوت طرق دقات قلبها قبل أن يطرق على الباب المفتوح، إنه صوت إبراهيم، تلتف نحوه بذهولٍ بالغٍ يشُلّ صوتها فخرج كمن علقت الأهوال في حلقه: حقاً عدت؟!.

للحظاتٍ لم تصدِّق عينيها، لقد عاد فجأة من دون أن يُخطرها بقدومه مع أخيها سعيد كالمعتاد، بيد أنّها مفاجأةٌ مفرحة مشوبةٌ بالعتب.

توجّهت صوبه وارتمت في حضنه بذلك التشوق المكبوت طيلة فترة غيابه الطويل، ضمّها وابنها مطوّلاً حتّى انتهى العناق بنظرةٍ عاتبةٍ قائلةً: لقد تأخّرت في الرجوع... ألسنا أحبّتك يا إبراهيم؟ أيعقل ألا ترى ابنك طيلة شهورٍ تسع؟.

طبع قبلةً طويلةً على جبينها كردٍّ مقتضبٍ عن أسئلتها كلّها،

فاستطردت بابتسامتها الرضيّة وقالت: حمداً لله على سلامتك، لقد اشتقنا لك جميعاً.

كانت تقصد بالجميع كل تفاصيل حياتها بأدقّ ذرّاتها.

حمل إبراهيم الصّغير بين يديه وجلس على المقعد الخشبي المدثّر بجلود الغنم مقابل المدفأة المتوهّجة بينما هرعت دريّة لإشعال الموقد بغية إعداد الطعام وتسخين بعض الماء لإبراهيم ليستحمّ بعد عناء ومشقّة السفر، حضّرت ما لزم لفطور شهي ٍ سريعٍ مبتسمة لهمهمات أحمد الصغير يضحك فرحاً بمداعبة أبيه له.

ضحكات الطفل الرائقة أرغمت إبراهيم على الاعتراف ضمنيّاً بخطأ سينكره حتماً أمام زوجته، عاد لاحتضان طفله، عانقه طويلاً، اشتم رائحته محاولاً التقاط ما فاته من عطره وهو بعيد عنه، محاولاً مخاطبته بكلام ٍطفوليٍ يشبه مناغاة حمامةٍ صغيرة.

قاطعت دريّة خيط الحنان ذاك، وضعت الطعام أمام إبراهيم، وتناولت منه الطفل من يديه وجلست قُبالته على الأرض المفروشة بسجّاد قديم وبسطٍ مزركشة الألوان وبضعة طراحات قديمة كما كانت تدعى آنذاك..

- لا بدّ وأنّك جائعٌ جداً...تفضّل بالهناء والشفاء.

وقبل أن ينطق ببنت شفة أردفت قولها: هناك ماءٌ ساخنٌ أيضاً لتستحم علّه يريحك بعد عناء السفر.

ابتسم إبراهيم شاكراً زوجته، ممعنا بكل تفاصيلها قائلاً لها: سلمت يداك يا حبيبة...لقد اشتقت لكل شيءٍ هنا.

نظراتها إليه أوحت إليه بالكثير من العتب الصامت إلى حين، فآثر أن يجهز على الطعام أولاً قبل أن يُفتح باب العتب الطويل.

وحده أحمد الصغير من لم يكترث لجلالة الصمت في الغرفة فكان يطلق الصرخات والابتسامات معانقاً أمه تارةً، معاوداً محاولات المشي تارةً أخرى.

في ذهن دريّة تجول عشرات الأسئلة تشوب فرحتها العارمة بعودته، كان فرحها يعادل أضعاف ما تحتاج لإثباته، حاجتها إليه تزايدت منذ قدوم وليدها، منذ أن أصبحت أمّاً. هو احتياجها لضلعها الذي تأمن تحت فيئه. آه من عتب الأحبة، كم يحمل في قلبه اشتياقاً واحتياجاً لا حد له.

دقائق قليلة بعد أن انتهى إبراهيم من طعامه وغسل يديه ليحمل الطفل، وضعت دريّة الطعام جانباً وقفلت عائدة لتجلس قربه، عطر إبراهيم فتح بوابة الكلام وقطع أوصال الصمت المخيّم على المكان.

- لقد غيّرت عطرك، صحيح أني لم أعتد على وجودك طويلاً ولكنّي ما زلت أذكر أيّ نوع من العطور تُفضّل، هو ليس عطرك القديم...أليس كذلك؟.

أجابها باقتضاب: نعم ليس هو.... ذاكرتك جيّدة.

قاطعته دريّة بقولها المتعمّد: صحيحٌ أنها تسعة شهور انقضت ولكنّي ما زلت أذكر حقاً.

فاجأها إبراهيم بأن شبك ذراعيه حول كتفيها وجذبها إلى صدره. باغتها بالحب ليضعف عزيمة أسئلتها التي تنوء بشكلٍ لم يخف على إبراهيم تحت وطأة لهفتها وعتبها.

- لقد غبت طويلاً يا إبراهيم. قالتها دريّة بعتب محبٍّ حزين.

- سامحيني يا حبيبة. قالها إبراهيم بحنان مفرط ملأ مُقل زوجته دموعاً .

- سامحيني يا أم أحمد لنبدأ الكلام، لا أريد للعتب أن يفسد بهجة لقائي بكم، فأنا مشتاق لكما كثيراً وحقّ عينيك أنا مشتاق.

بتلك الكلمات بدأ أجوبته مقبلاً جبينها واضعاً عليه إشارة نصرٍ مسبقةٍ. دهاء إبراهيم أو ربما ثقته بحب درية له أضعف تساؤلاتها فتعثّرت كلماتها قبل أن تُنطق، وباتت لا تريد جواباً، ربما ودّت بقاءه للأبد حينذاك. ولكنّ لا بأس بقليل من المناوشات لقلب إبراهيم، فهذا القلب غاب تسعة شهورٍ كاملةٍ وتركها وحيدةً. أفرغت جعبة أسئلتها المغلفة بالعتاب دفعة واحدة، أنصت إليها من دون أن يقاطعها وكأنّه يجهّز أجوبة تفنّد اتهامات زوجته.

وعندما فرغت دلو الزوجة من كلام العتب الموشّى بصوت حنون محبّ، تنهد إبراهيم محاولاً استحضار ملامح ما أضمره في سرّه وهو في طريق عودته، كان يعلم مسبقاً بأنه لن يسلم من مواجهة عتبٍ أمام زوجه.

هو الآن يعلم مقدار حبها الواضح في تفاصيلها، بقي عليه أن ينسج قصته من دون أن يتسلل الشّك إلى صدر دريّة، بنفس الدهاء السابق عاد ليشبك ذراعيه حولها عامداً أن يستثير توقها إليه كطرف خفيّ يقويّ حجّته.

- غِبت مضطراً، لم أرد أن أشغل لك بالاً عليّ، هذا كل ما في الأمر.

كلماته أشعلت فتيل القلق في صدر دريّة بينما ظلّ إبراهيم متماسكاً في سرد قصّته المفتعلة.

- ما الذي حصل يا إبراهيم. سألته بلهجةٍ تفوح حناناً.

فيجيب إبراهيم: لم أكن لأحتمل الابتعاد عنكما طيلة الشهور تلك، فأنتما قرّة عيني وفرحة قلبي، ولن أطيق صبراً أمام اشتياقي

لكما، ولكنّي وأثناء اعتلائي للوح البوندي المخصص للأماكن المرتفعة في موقع العمل، تأرجح اللوح فجأة فاختلّ توازني ووقعت أرضاً، حسبت لوهلةٍ بأنّها النهاية المحتومة، أُغمي عليّ من جراء ذلك ولم أفق إلاّ في المستشفى وهناك أجروا لي التحاليل والأشعّة اللازمة و تبينت في صور الأشعة عن رضوض قوية في العمود الفقري وعليه يتوجّب عليّ الاستلقاء على ظهري لعدة شهور، كانت عمليّة نقلي إلى هنا مستحيلة ، ولم أشأ أن تعيشي حالتي الخوف والهلع، فقررت البقاء هناك حتّى أتعافى ورجوت سعيداً ألّا يخبرك وكنت أطمئنّ عليكما منه، لو تعلمين كم كنت محتاجاً لقربك وليدك الحانية، لقلبك المحبّ، كنت في غربة قلبٍ ووطن، تتوالى الأيام ثقيلةً جافّة، أزمنة أيامي اختلفت فلكم سهرت الليل كلّه متحسراً على ليلنا معاً ولكم نمت النهاركلّه لحزني المتفاقم من إحساسي بالعجز، كوني رحيمةً بي وسامحيني، ولا تدعي العتاب يأكل ما تبقى من يومنا هذا فأنا أحوج ما أكون لدفء كلامك العذب كما في السابق.

وقع حديث إبراهيم على سمع دريّة وقوع الصاعقة.... جحظت عيناها وتدثّرت أهدابها بسحاباتٍ رقيقةٍ من الملح تمطر دمعاً حارقاً على وجهها الصبوح.

ارتمت في حضن إبراهيم وكأنّها تراه للتّو، طوّقته متشبّثةً بقميصه كقشّة نجاة وبكت طويلاً حتى تبلل قميصه من دمعها المنسكب حباً، اعتذرت ألف مرّة عن عتبها، عن كل ما طال رأسها من شكوك، نسيت في تلك اللحظات أن تصدّق أو لا....بديهياً تكفل دمعها ببقيّة الأسئلة وقلبها وافق وأذعن....هي تحبّه فوق كلّ ظن، أقرب من أي بعد، أكثر من أي شيءٍ في الحياة.

هذه المرّة بقي إبراهيم شهرين كاملين، قنع في شهره الأوّل ببقائه في البيت اللهمّ إلا حين خروجه مع دريّة لزيارة أهله أو أهلها الذين بدورهم عاودوا زيارته للاطمئنان عليه وكذلك بعض الأصدقاء من زاروه تباعاً وهم أنفسهم من تحجج بهم لخروجه المتكرر في شهره الثاني كنوع من ردّ الزّيارة.

لم تلقِ دريّة بالاً لزياراته ومجيئه المتأخّر ليلاً، كانت تصمّ أذنيها عن فحيح الظّن والقلق، أرادته هانئاً معافى، فجدّت في تبرير أفعاله، رائحة الخمر وحدها كانت وسواساً خنّاساً يوسوس في صدرها هنيهةً ثمّ يتوارى خلف إصرار دريّة عن إيجاد عذر له.

جعلت جلّ اهتمامها يتمحور في اقتناص لحظات السعادة كلّها كشرب القهوة معا والحديث الذي لا ينتهي والأحلام الزاهية لمستقبلٍ وارف السعادة لابنهما الصغير الذي أتقن مشيته وصار يذرع البيت جيئة وذهاباً فرحاً منتشياً بما حققه..

أحسّت دريّة بالرّضا يغمر قلبها وحياتها حتّى حين ودّعت إبراهيم يوم سفره، بوصلة قلبها كانت تشير إلى لقاءٍ قريب وغياب ٍلن يطول.

توالت الأيام عليها وعلى صغيرها رتيبةً وادعةً، عاد نمط حياتها إلى سابق عهده في فترات الغياب بمزيدٍ من القناعة والرّضا، حتّى جاء يومٌ كانت دريّة وصغيرها في بيت أهلها كعادتها، في زيارة دوريّة للعناية بوالدها والقيام بأعمال البيت وتخفيف أعبائه عن إخوتها الشباب ممن بقوا من دون زواج لذاك الوقت، وهم جمال وإحسان وسعيد الذي يمضي معظم أيامه مسافراً ليعود في إجازات متقطّعة تُعيد حضوره قوياً كما لو أنّه لم يغب أبداً، حضوره كان كشكله مميزاً وقريباً من الذاكرة.

في ذاك اليوم وأثناء انشغالها بتحضير الطعام لأهلها وصغيرها لاه ٍ قرب جدّه يلعب بسبحته الطويلة، سمعت صريرا والباب يُفتح بخفّةٍ ، تركت ما في يدها واتجهت صوبه، فمن المؤكد أنه أحد إخوتها، لربّما كان إحسان فالوقت مازال مبكراً لعودة جمال من الحقول وإحسانٌ لا يعود من المدينة في وقتٍ محدد، لقد انتسب هذه السّنة إلى دارٍ للمعلمين وسيصبح أستاذاً في المستقبل القريب.

لتجد حين وصولها قرب الباب أنّ القادم هو سعيد فابتسمت ملء وجهها وصاحت: أهلاً بالغائب العائد، حمداً لله على سلامتك أيها الحبيب يالها من مفاجأةٍ سعيدةٍ مثلك.

أخذها بين ذراعيه وسلّم عليها بشغفٍ مُحب وداعبها ضاحكاً بقوله: ليس زوجك وحده من يأتي من دون أن يُخبر أحداً.

دخلا معاً غرفة الأب وكم كانت دهشة سعيدٍ كبيرةً حين رأى أحمد يمشي باتزانٍ دونما ترنحٍ وقد كبُر واشتدّ عوده فمنذ أن سافر آخر مرةٍ حافظ على صورته في مخيلته وهو يحبو على ركبتيه أما الآن فقد تفتح برعمه وفاح طيبه.

حمله بين ذراعيه وتقدّم نحو والده معانقاً له وقبل يديه ووجنتيه سائلاً عن صحته وحاله، فتركتهما دريّة في جو التّوق المفعم بالأسئلة وانصرفت من فورها لتسخين الماء لأخيها لكي يستحم بعد عناء السّفر، وهنا يمر طيف إبراهيم سريعاً في خاطرها لتعتريها نوبة حنينٍ عابرة.

اجتمع الأخوة الثلاثة على الغداء متحلقين حول طبق الطّعام الذي أعدّته لهم، أمّا الأب فقد تناول غداءه بمساعدة دريّة التي أطعمته بنفسها. فداء مفاصله المزمن جعله يستفحل

ومما يصعب عليه أن يجلس القرفصاء، عادة ما يبقى ممدداً في فرشة قديمةٍ متدثراً بعباءته ليقوم أحد أبنائه على خدمته لمأكل أومشرب، أخوتها طيّبوا القلب ولا تنقصهم الكياسة وبرُّ الأب ولربما كان رحيل أمهم المبكّر سبباً في تعلّقهم الزائد بأبيهم العجوز.

مضى يومهم سريعاً عابقاً بالأحاديث وبضحكات أحمد الصغير، آثرت دريّة أن تبيت ليلتها عندهم فقلبها منذ زيارة إبراهيم الأخيرة صار يتوق للفرح كيفما جاء وبأي شكل.

صباحاً ساعدت رائحة القهوة التي أعدّتها دريّة على إيقاظ الجميع إلا إحسان المتعطّش طيلة أسبوعه لنومٍ طويل، فما إن وُضِعت صينية القهوة على الطاولة الصغيرة حتّى نهض جمال وسعيد تباعاً.

والدهم في غرفته يلاعب أحمد الصغير بعد أن تناولا الفطور مبكراً هذا الصباح فالعجوز اعتاد الاستيقاظ فجراً منذ أن تفاقمت أوجاعه وفي الأحوال العادية وجب عليه انتظار أحد أبنائه ليستفيق فيساعده في احتياجاته، ولكنّه بوجود دريّة ابتدأ نهاراً لم يعهده منذ زواجها فتلك أول مرّةٍ تنام دريّة عندهم منذ أن تزوّجت إبراهيم وربما لن تكون الأخيرة.

احتسوا قهوتهم معاً بسرورٍ، تناوبت فيه دريّة مع سعيد تبادل التلميحات لجمال بأنهم سيسعدون جداً إن تزوّج فمنزله بات جاهزاً والعروس على أغلب الظن موافقةٌ، ضاحكين بخبث بغية إيصال رسالةٍ مفادها معرفتهم بقصّة الحب التي تجمعه بإحدى الفتيات في القرية فيضحك جمال مطوّلاً ويجيب ممازحاً: كفاكم تلميحاً...أعلم أنكم تعرفون.

قال هذا وانصرف من فوره ملتقطاً المجرفة لينطلق صوب

الأرض الكبيرة المحاذية للنهر، وبينما كانت دريّة بأوج ابتسامتها حانت منها التفاته إلى وجه سعيد فتفاجأت بنظرات الأسى تئن في عينيه وكأنها حكاية مخبّأة منذ أمد...أحست بتلك النظرات تجلدها فقاطعتها قائلةً: سعيد ما بك يا أخي...وعلام كلّ هذا الأسى؟.

أيقظته كلماتها من شروده وافتعل ابتسامة في وجهه كمن يدحرج صخرة بقش هزيل.

- لاشيء مهم مجرد ذكرياتٍ عابرةٍ لا أكثر.

لم تمحّص دريّة في إجابته فقد توقعت بديهياً بأنها ذكريات حبٍ قديم قضى بالخيبة والحسرة. فأجابته من فورها: لا عليك سيضحك قلبك من جديدٍ يوماً ما، هيّا عليك بإيقاظ إحسان من نومه العميق وأنا سأجهز لكما الطعام.

اليوم الذي قضته درية في بيت أهلها كأنّما أيقظ فيها حنيناً واشتياقا لأيامها الغابرة في هذا البيت فالشوق يؤجج براكيننا الخامدة وذكرياتنا الساهية فقررت المكوث في دار أهلها طيلة فترة إجازة سعيد القصيرة. في بادئ الأمر.

كادت أن تعتبر شرود سعيد أمرا طبيعيا غير لافت للنظر لولا تسربله بحزن عميق بعدما فضحته تقاسيم وجهه، وعلى الرغم من كل محاولاته ليتحاشى نظرات درية إلا أنها كانت متمسكة بتلابيب حدسها لمعرفة سر شرود سعيد وما يدور خلف ستاره , ولاسيما حين تباغته بنظراتها إليه فيصيبه الوجم حيناً ويتهرّب منها حيناً آخر.

قالت في سرّها: الأمر ليس مجرّد ذكرياتٍ عابرة.... فبكل تأكيد هنالك أمر مهم يخفيه عنها سعيد .

فتجرّأت أن تقطع الشك باليقين أثناء عودتهما في طريق ترابي هش ,إلى منزلها بعد انقضاء أسبوع في ضيافة أهلها وسألته: أهناك شيءٌ لتقوله يا أخي؟ قل لي لربما تحتاج فضفضة تريح نفسك.

باغته سؤالها فارتبك قليلاً. أنزل طفلها من أعلى رقبته لتلقفه ذراعاه القويتان محاولاً إيجاد ردٍ مناسبٍ على أخته الفطنة فأجابها بصوتٍ واثقٍ: لا تخافي.... أنا بخير والكلام الآن ليس في أوانه. لعلّ الآمال تأتينا محققة ِحين نرغب بها.ليس أمراً خطيراً سأقصه عليك في وقته المناسب.

أنهى عباراته تلك وأكملا المسير وكلُّ واحد منهما يفكر بالأمر من زاويته. فهي تمنت أن يكون شيئاً عابراً في حياة أخيها وهو تمنى لها مثل ما تمنته من دون أن يتوقع أيٌّ منهما بأن لديه الأمنية ذاتها تجاه الآخر.

الغفلة

عاد سعيد إلى عمله في البقاع حاملا معه تحايا وأشواق من أخته لزوجها ومتاع من أطايب الطعام لهما. فرح إبراهيم كثيراً بالكنزة الصّوفية التي حاكتها دريّة له وانفرجت أساريره غبطةً عندما قرأ ولأول مرّةٍ رسالةٍ من زوجته مكتوبةً بخطّ يدها كما يفعل العشّاق. لعلّ زيارته الأخيرة فعلت فعلها في إظهار ما خفي بينهما من مشاعر جيّاشة.

ربت سعيد على كتفه وهو يقرأ رسالته بسعادةٍ بالغةٍ قائلاً: أتمنّى أن تكون أحوالك الآن عكس ما تركتك عليها.

رمقه إبراهيم وهو يبتعد عنه قائلاً: من رسالتها يتّضح بأنّك لم تخبرها شيئاً.

ردّ سعيدٌ بمرارةٍ بالغةٍ: كانت فرحةً لحدٍّ لا يوصف، خشيت عليها من خيبةٍ تطيح بفرحها فعدلت عن إخبارها راجياً أن أعود فأجدك تغيّرت وعدت إلى سابق عهدك.

نبرة سعيد الهادئة أخفت في طيّاتها غضباً مبطناً مؤجلاً إلى حينه، في قرارة نفسه لا يزال ذاك البصيص موجوداً، بصيص أملٍ بأن يستعيد إبراهيم وعيه قبل أن يجتاح غضبه للعلن، فلن يبقى ساكتاً أمام ما زيفه وإن غضّ الطرف عنه فهذا لا يعني أنّه راضٍ به أبداً وهو يرجو أن لا يأتي وقت صدامه مع إبراهيم....للآن هو يرجو ذلك.

ما كانت كذبة إبراهيم لتنجح لولا تستر سعيد عليها، إبراهيم

قضى شهوره التسعة الأخيرة لاهياً، فبعد انتهاء نهاره يقصد حانات المدينة ويبقى فيها لساعاتٍ متأخّرةٍ من الليل،أصدقاؤه في البيت المتواضع حيث يقطنه مع عدد من العمال في ذاك البلد كانوا يتذمرون من عودته المتأخّرة كل ليلة والتي تقلق راحتهم ورقادهم، وفي أحايين كثيرةٍ يضطرّ سعيدٌ لمساعدته في الوصول إلى فراشه. كانت الخمر تبقيه في حالة هذيانٍ حتّى بعد استيقاظه بساعاتٍ وخلال الشهور التسعة طُرد من ثلاث ورشٍ للبناء لعدم التزامه وانضباطه، هذا ما أبقاه شبه مفلسٍ دوماً، فما يكسبه إزاء عمله المتقطّع يُصرف على طاولات السكر والعربدة من دون أيّ شعورٍ بتأنيب الضّمير متناسياً أن لديه زوجة وابناً ينتظران منه أن يؤمن لهما عيشاً كريماً.

سعيدٌ فقط من كان يذّكره بهما وهو من ألزمه بزيارته الأخيرة للوطن، أمّا ما حمله إبراهيم إليهما من نقود وهدايا فمن جيب سعيد كما فعل طوال الشهور التسعة المنصرمة التي انقطع فيها إبراهيم حتّى بمجرد بالتفكير بمصروف أهل بيته، كانت النقود تصل إلى دريّة من جيب أخيها سعيد كنوعٍ من التكفير عن ذنب سكوته وتعويضٍ عن إهمال زوجها لها.

هو لم يشأ أن يُكسر قلبها الفتيّ المتوسم خيراً بحياةٍ رغيدةٍ مع صديق عمره، فلو لم يكن إبراهيم صديقه لربما اختلف الأمر كثيراً.

سعيدٌ تهرّب ونأى عن تساؤلات درية لأخفاء الحقيقة المرة عن أخته بشأن رواية إبراهيم المفتعلة كان عتبها يحزّ شريانه فيضطرّ دوماً لتطمينها بأنّ الأمور كانت على أفضل ما يرام , بغية إبعاد الوساوس والقلق من قلبها لو علمت لكانت ستجني ألماً ووجعاً

وأموراً ما لا يحمد عقباها.

- لامبالاة إبراهيم وإهماله المتعمّد لشريكته سيطيح بهذا الزّواج يوماً ما.

قالها سعيدٌ بغصّةٍ وهو يلبس ثياب العمل لينطلق إلى مناوبته المسائيّة.

لم تتغيّر الحال كثيراً كما أمِلَ سعيد، فما أن انقضى أسبوعٌ واحدٌ على التزام إبراهيم في الورشة الجديدة بنفس المبنى الذي أنيط به مهام نصب وتركيب النوافذ والأبواب الحديدية لسعيد، وذات ليلة استيقظ سعيد في وقتٍ متأخرٍ ليجد فراش إبراهيم شاغراً، لقد فرّ تحت جُنح غفوتهم الثقيلة إلى أحد النوادي الليليّة التي يرتادها عادةً، لم يستطع كبح جماح رغبته في احتساء الخمر لأكثر من أسبوعٍ واحد.

الفجر تفصله سويعاتٌ قليلةٌ عن صحوته، فحاول العودة لنومه ولكنّ عصافير دماغه بقيت تزقزق قلقةً فأسكتها عنوةً، حين استفاق الجميع وجدوا إبراهيم في فراشه ورائحة الخمر أزكمت أنوفهم تباعاً كموجاتٍ ثملةٍ، فهزّ الشبّان رؤوسهم وهم يحدقون إلى الذي كانت عصافير رأسه قد نقرت دماغه تقريباً.

أثناء ذهابه إلى العمل لم تهدأ خواطره وهواجسه، وكأنّها المرّة الأولى التي يواجه فيها مشكلةً ما، لم تكن الأولى ولكنّها الأصعب والأقسى فإبراهيم رفيق عمره ولم ينفر يوماً من كأس خمرته الوحيدة التي شاطره إياها في سهراتهما البسيطة وهو زوج أخته التي خافت يوماً من عادته تلك فأعادت صداقتهما القويّة أمان لروحها.

لربّما كان سعيد يراهن على عدم تفاقم هوس صهره للخمر وما

حصل كان على العكس تماماً. وكأنّ زواجه مرصود بانفلات غرائز إبراهيم كلها فما عادت كأس الشراب تثمله في البيت ومع صديقه الأقرب إليه، صارت ترنو لحرفيّة أكبر.

كأس الحانات الليلية التي باتت تملأ رأسه ولأوّل مرّةٍ تطرقت مخيلته صور بنات الليل اللائي يكتظن في تلك الأماكن .... أيعُقل إدمان إبراهيم إلى تلك الحانات من أجل الفتيات المبتذلات؟!

نفض رأسه محاولاً إبعاد شبح الفكرة بأكملها عن رأسه فلا مبرر لهواجسه اللعينة هذه فإبراهيم ليس خائناً وهو أكثر النّاس معرفةً به.

انقضت ساعات العمل متثاقلةً تحت وطأة مطارق ظنونه، أمّا رب العمل فقد عاود الشكوى من إهمال إبراهيم، فأقسم سعيد في سرّه بأنّه في حال عدم التزام إبراهيم بهذه الورشة لن يساعده في إيجاد عملٍ آخر على ضمانته فلقد أحرجه فيما مضى في ثلاث ورشٍ ولقد حمل لإبراهيم من ربّ العمل إنذاراً شفاهيا بذلك.

مساءً حين رجع سعيد كما أغلب الشبّان إلى شقّتهم المكتظّة بشقائهم وأحلامهم المؤجلة، وجدوا إبراهيم وقد صحا من سكره مختبئاً بغمامةٍ ضخمةٍ من الدخّان، لم يعهدوه مدخّناً من قبل فابتسم في وجهه من سبقه لعادته الجديدة هذه من الشبّان، ومن تبقّى سلّم عليه متعجّباً من تجدد عاداته فردّ السلام على الجميع ضاحكاً وقال: في الحياة الكثير مما لم نعرفه بعد.

فقاطعه سعيد: نعم يا صهري العزيز وأخشى ما أخشاه بأنك ابتدأت التعلّم بالأسوأ فلن يبقى لديك متّسعٌ من الوقت لتختبر الأفضل.

ولكنّ إبراهيم استمرّ في الضحك حتّى ظنّ الجميع بأنّ التّبغ

الأجنبي الذي يشربه قد تشرّب بالأفيون قبل صنعه.

وجد سعيد فرصته، انفرد بإبراهيم قبل نومهم بقليل ، خاطبه لأول مرّةٍ بلهجةٍ مغايرةٍ قليلاً عمّا تعوّدها إبراهيم منه قائلاً:

- أصغِ إليّ...ربّ العمل مصرٌّ على طردك في حال تكرار غيابك ومعه كلّ الحق، لقد خذلتني في ثلاث ورشٍ قبل هذه المرّة لن أستطيع الدفاع عنك، فالرّجل شهمٌ وطيّبٌ ولكنّه لن يصبر عليك طويلاً ولقد طلب منّي إيصال هذه الرّسالة إليك حرفياً، لذلك أتمنّى عليك أن تلزم فراشك الليلة لتذهب غداً إلى عملك في موعده، أما عن وضعك الحالي فلا أدري من أين أبدأ فكلّ ما تفعله خطأ بحقّك وبحقّ أسرتك وعملك ولو لم تكن صديقي لاختلف الأمر كلياً.

فقاطعه إبراهيم مستفهماً: وكيف؟

فأجابه سعيد بلهجةٍ واثقةٍ: لربّما ما كنت نصحت لك، فلو كنت صهري فحسب لما شاركتك كذبتك وأنت تعلم كم شقّ عليّ ذلك .... أتمنى أن تقلع عمّا أنت فيه قبل فوات الأوان فجيبي قد لا يتحمل مصروف عائلتين، حتى الآن لم أتملّص من كونك قريبي وصديقي، أما إذا طفح الكيل فقد أنسى كلّ هذا.

قالها ونهض مسرعاً إلى فراشه ليداري غضبه المتزايد في صدره وأغمض جفنيه متعمّداً لإسدال الستار على الحديث الذي ربما قد يطول حتى الصّباح لأنّه أراد أن يظهر حازماً أمام صهره ليأخذ كلامه على محمل الجدّ هذه المرّة.

صباحاً نهض الجميع ومعهم إبراهيم الذي لم يغادر فراشه ليلته . كلٌّ حمل زوّادته وانطلقوا بهمّةٍ حتى وصلوا مكان عملهم، بداية النهار دار حديثٌ جانبيٌّ بين إبراهيم وربّ العمل الذي بدا

حديثه حازماً مطهّماً بالإيماءات ،أمِلَ سعيدٌ بأن يغيّر حديثهما معاً من واقع حال إبراهيم للأفضل، وعليه فقد بقي طبيعياً معه في وقتي الاستراحة والغداء،إبراهيم صديقه القديم ولن يتعمّد إيلامه أو جرحه بالكلام، جلّ ما يرغبه حقّاً أن ينعم إبراهيم وأخته بالهناءة وسعة العيش ويعود إلى رشده وصوابه.

أيام العمال الأجانب تشبه بعضها في هذا البلد، فكلّهم يقيسون يومهم بذراع الأمل والجَلَد، يطمحون لتأمين حياةٍ أفضل عندما يعودون أدراجهم لبلدانهم، هذا البلد المنفتح على الغرب اقتصاداً وثقافةً كان الملاذ لكثيرٍ من فقراء البلدان المتجاورة له وبارقة أمل منشود منذ أن كانوا يافعين عاندتهم ظروف الحياة بشظفٍ وفقر. فنادراً ما تجد عاملاً يمضي نهاراً واحداً في السّياحة والاستجمام في لبنان وكأنّهم مناطون بمهمّة رسميّة وجب عليهم إنهاؤها والعودة من حيث أتوا.

سعيد وأصدقاؤه الشبّان أبناء منطقةٍ واحدةٍ يحكمهم الواقع نفسه ويحدوهم الأمل عينه في استدراك ما فاتهم من الحياة .... كم تصبح الحياة غاية بحدّ ذاتها عندما تضيق على الإنسان عيشاً وسقفاً فيغدو البحث عن كوّة النور في نفقٍ ضيّقٍ سبيل نجاتهم الوحيد للابتعاد عن الفاقة والانحراف.

وعلى الرّغم من حالة أهله المقبولة نوعاً ما مقارنة بأقرانه الشباب صمم على السّفر ليبني حياته بنفسه، كان من الممكن أن يغدو مزارعاً كأغلب إخوته أو أن يكمل دراسته كأخيه إحسان ولكنّ حمائم السّفر كانت تهدل في أحلامه على أغصانٍ خضرٍ من بلاد أخرى، داعبه أخوه الأكبر محمود مرّةً بقوله: سينتهي بك الأمر مثل جدّنا الأكبر زعيم المتسوّلين في أميركا. فضحك سعيد

من دون أن يثنيه كلام أخيه عن عزمه بل زاده إصراراً على ما عقده في نفسه.

وعلى النّقيض منه كانت حياة إبراهيم فهو من منشأ بسيطٍ ورث حرفته عن أبيه الذي تقاعد رغماً عنه. ففي بلدهم المتردّي اقتصاديّاً يصعب إيجاد الورش الضخمة. فدخلهم كان كافياً لكفافهم من العوز والجوع. فاضطرّ أخوه الأكبر زيد للسّفر إلى البرازيل مع أحد أقاربه هرباً من سوء الحال وبقي إبراهيم وأخته عند أبويه حتى شبّ إبراهيم وقرر السّفر إلى لبنان وبعد زواج أخته بقي والداه لوحدهما في البيت يزورهما إبراهيم وزوجته في زياراتٍ منتظمةٍ بعد زواجهما.

بيت العائلة حسب القسمة الشّرعيّة كان من نصيب أخيه زيد مقابل أرض الخرنوب التي حازها إبراهيم وبنى عليها بيته. قسمةٌ عادلةٌ لأبٍ لم يدّخر جهده يوماً في سبيل إسعاد عائلته على الرغم من ضيق الحال.

لم يتعلَم إبراهيم من أبيه معنى التّفاني الحقيقي للأب. وسامته اللافتة بين أقرانه نمّت في روحه نرجسيّةٌ مفرطةٌ ظناً منه باستحقاقه حياةً أخرى تليق به وهو الشاب الذي تتهافت فتيات القرية جميعهنّ لإثارة انتباهه والتّقرّب منه. غدت حياته الشّخصيّة محور اهتمامه الأوّل والأوحد وقرار سفره كان ليبدّل حياةً باتت لا تُرضي جموحه التوّاق للتميّز وربّما كان زواجه من دريّة الجميلة واحداً من مظاهر الأبّهة تلك فدريّة كانت الأجمل بين الفتيات ولا شبيه لجمالها في القرى المتجاورة. بدليل أنّ زواجه لم يغيّر من طبائعه شيئاً , بقي متمسكا بتلابيب النزق , كما كان قبل زواجه وأضاف على ذلك تبغه الفاخر لتكتمل أركان الإسراف

السّريع في قادم مشاكله والتي باتت لم تخفَ على أحد ممن عرفه ففي سوء الحال ومرارته لا تنفع الجلابيب المتّسعة والخيالات الخصبة فلا الجلباب المتّسع يدفئ عظماً ولا الخيال يُسكت بطناً أو يوقد ناراً، طوق النجاة في دفّةٍ تُقاد بعين البصيرة والحكمة وغافلٌ من يجرّب السباحة في بحرٍ هائج قد يبلعك لمجرّد الشّك بجبروته وقسوته.

بانقضاء أسبوعٍ آخر على عملهم يصادف نهاية الشّهر وبالنّسبة للعمّال يعني الكثير أغلب الورش تصرف أجور العاملين يومياً أمّا في ورشتهم فكان ربّ العمل يتقصّد إبقاء الأجور إلى آخر الشّهر ليحفّز في أنفسهم الرغبة للادخار.... كان رجلاً طيّباً يسمح لعمّاله بإجازاتٍ منتظمةٍ دوريّةٍ ولا يبخل بطبابتهم إن تأذّى أحد منهم أثناء العمل، شهامته تلك كانت دافعاً عند البعض للإخلاص في العمل ومنهم سعيد الذي يتحدّث عنه بامتنانٍ لا نظير له وبالمقابل لم يشتك ربّ العمل من أي منهم إلا من إبراهيم الذي اعتاد على إهماله وغيابه عن الدوام وتدخينه المستمر أثناء العمل وهذا ما كان يستفز صاحب العمل الذي منع التدخين أثناء ساعات العمل

انتقد عليه رب العمل حين استفزه دخان السيجارة قائلا:

خواجا إبراهيم إنّك تدخّن كالباشوات احرص على نقودك يا بني فتبغك لن يُطعم عائلتك .ضحك إبراهيم كعادته وغصّ سعيد بالعاً ريقه.

واستمرّت غربتهما بنمطها المألوف عملٌ وكدٌّ وأحلامٌ مشرئبّة الأعناق لغدٍ أفضل، وبقيت أحوال الشابّين معلقة بأحوالها

مع فارقٍ بسيطٍ، صار إبراهيم ينتقي وقت خروجه للحانات في نهاية الأسبوع التي تتزامن مع عطلة الورشة ليعود بذات الهيئة المضطربة كلّ مرّة، بدأ سعيد يتذمّر علانية من سلوكيات صهره المنفلتة , متمنيا إيجاد وسيلة لإعادته إلى جادة الصواب

بالإقلاع عمّا هو غارقٌ فيه من سلوكيات منحرفة , ما أثقلت كاهل سعيد بالقلق والتوجس وقراءته لواقع مر , ستنعكس ظلاله القاتمة على درية من قهر ووجع ودمار.

انقضت شهورٌ خمسةٌ على إجازتهم الأخيرة حتّى تقرر لهم أن يعودوا بإجازةٍ أخرى، اعتاد كلٌّ منهما في الفترة الأخيرة أن يعود منفرداً لارتباط إبراهيم بالتزامات ما قبل الزّواج وبعده وستكون الزيارة الأولى التي يعودان فيها لا كصديقين فقط وإنّما كنسيبين تربطهما صلة الدم وكم عزّ على سعيد أن تكون عودتهما معاً بهذا الجفاء والفتور.

ذاك المساء كان على عمال الورشة المجازين أن يحزموا حقائبهم لينطلقوا صباحاً إلى المرآب الذي فيه الحافلة القديمة أو البوسطة كما يسمونها لنقلهم إلى الوطن، منهم من انطلق إلى السّوق لجلب بعض الهدايا لأهله ومنهم من آثر أن يشتري من المدينة المتاخمة للحدود كنوعٍ من التوفير فبضاعة وطنهم أرخص قياساً لأسعار البلد المضيف لهم.

في طريق عودتهم لشقّتهم المتواضعة ظلّ إبراهيم مطرقاً برأسه يفكر مليّاً في ورطته فبعد كذبته الأولى التي استنفذت مواهبه كلّها سيشقّ عليه استنباط تمثيليّة أخرى ليقنع بها زوجته التي تنتظر رجوعه بفارغ الصّبر، عدا عن كون المبلغ المتبقي معه لن يكفي لأكثر من مصاريف عودته وما يكفي زوجته مصروف شهرٍ واحد

فقط هذا إن تغاضى عن أي هديّةٍ مفترضةٍ قد يشتريها لزوجته.

انزوى في ركن محايد طيلة السّهرة، منهك الفكر مطأطئ الرأس مشغولاً عن أحاديث اشتياقهم بثرثرة عقله الحائر في البحث عن مخرجٍ مشرّفٍ له. تجاهله سعيد متعمدا في أحاديثه إلى الشباب، كان على ثقةٍ بأنّ صهره سيعجز عن إيجاد حلٍّ مناسبٍ فأراد تلقينه درساً بإغفاله حتّى يطلب مساعدته عاجزاً، علّه بفترته العصيبة هذه يدرك ما معنى أن يكون مسؤولاً عن حياةٍ أسرته.

- إنّه لأمرٌ غريبٌ حقاً.

غمغم سعيد في سرّه وهو ينظر خلسةً بطرف عينيه إلى إبراهيم الجالس أمام النافذة يدخّن لفافته الفاخرة.

- أمن المعقول أن ينس أحدٌ أعزّما يملك؟ ألا يشتاق لمن تحبّهم العين وتألفهم الروح؟! هل من المعقول أن تبقى الذّاكرة رهن الحضور وأن يتّشح الغياب بنسيانٍ مؤكدٍ؟!

أسئلةٌ لاهثةٌ تتقافز في ذهن سعيد من دون أن تحظى منه بإجاباتٍ مقنعةٍ فالأسئلة بالغة الغرابة وأجوبتها عبثيّة محضة، لم يجد سعيد من جواب يهدّئ به إلحاح أسئلته إلا أنّ إبراهيم طفرةٌ في عالم الرّجال الذي يعرف ولربّما كان هناك أشباه لصهره خارج عالمه الذي يعيش فيه ولكنّ إبراهيم كان نموذجه الوحيد فيمن عرف وشاهد.

قد يجد جواباً شافياً لكلّ هذه الأحاجي يوماً ما والذي يرجوه ألا تكون الأجوبة على حساب أخته حين تكتشف خداعه ذا يوم لتبدأ رحلة بحثها عن أجوبة لا نفع من اكتشافها حينها.

عندما تذّكر أخته فاض نهر حنينٍ في أوردته، نظر إلى صهره بحسرةٍ صامتةٍ آملاً أن يصله الحنين ذاته فانتبه إبراهيم إلى

نظراته فأطرق رأسه ذليلاً من المؤكّد أنّه لم يتوصل إلى حل لمعضلته، كيف سيعود وهو في حال الإفلاس هذا؟

لن يعود بكلّ ما قاله لزوجته في المرّة الماضية، لم يفي بوعوده التي نطقها بملء إرادته ليخبّئ وراء ستارها كلّ ما قد يعتمل في رأس زوجته من الشكوك، والآن بعد نكسته الثّانية وجب عليه أن يلعب على وتر محبّة زوجته واشتياقها أو أن يتقمّص دور الرّجل الشّرقي بكلّ سطوته وجبروته ويعمد إلى إسكاتها إن سألته أو عاتبته، لا توجد أمامه حلولٌ أخرى.

فكّر أن يلغي إجازته ولكنّ يترتب عليه عدّة شهورٍ أخر وهذا ما يضعه في ورطةٍ أخرى فعودة سعيد الناقم ستفتح أبواب الأسئلة كسياط تجلد غاربه عند زوجته وأهلها فهو لا يضمن صمت سعيد هذه المرّة وقد يرفع الطبق لدرية عن الحقيقة المرّة التي يرغب إبراهيم إخفاءها.

تقدّم سعيد باتّجاه إبراهيم ليجلس قربه،وقد نام جميع من في الغرفة استعداداً ليوم السّفر الموعود، بادره سعيد بالقول:

- ألم تفكّر بهذا من قبل.... هل توصّلت لحلٍّ لما أنت فيه، لا أعلم أيجدر بي معاتبتك على ما مضى أم أن أستجدي منك أجوبةً شافيةً للأسئلة التي تنهش رأسي؟!أنت لم تفكّر طيلة شهورٍ خمس في أسرتك إلّا الآن،ولكنّي لم أفكر إلّا بك وبهم طيلة الشّهور تلك .... أيعقل أن أستأجر عقلك لأفكر به؟حاولت مراراً إيصال استيائي من حالك هذا وبأيّ وسيلةٍ من دون جدوى .... أتعمّدت تجاهله أم أنك لم تحسّ به أصلاً ؟!

المشكلة في حالتك هذه أكبر من كونك مهملاً في حقّ نفسك وعائلتك .... أنت غافلٌ يا صديقي. قالها بمرارةٍ

أحياناً أتمنى أن تعود إبراهيم الذي أعرفه .... وحيناً أتمنّى أن أرجع بالزّمن إلى الوراء لأمنع زواجك من أختي، هذا أهون الشّرّين على أن أراكما ضحيّتين لزواجٍ محكومٍ عليه بالانهيار. مصيبةٌ واحدةٌ كانت تكفي. مشيراً إلى إبراهيم

حملق إبراهيم في وجهه مغمغماً: مصيبة.... !

- نعم مصيبة .... ألم أقل لك أنّك غافلٌ .... أنت غافلٌ وأحمقٌ ولكنّي أحبّك.

محبّةٌ دسّت يده في جيبه ليُخرج منها مبلغاً مالياً يوقف اجتياح الأعاصير في رأس إبراهيم ويضيء في قلبه أملاً مشعاً أكثر من نور السّراج القائم على الطّاولة القريبة

هذا الحلّ لم يخطر ببال إبراهيم ولم يجرؤ على التفكير به، قدّمه سعيدٌ على طبقٍ من ذهبٍ لصهره، شهامة سعيد لن تفيها كلماته، نظر واجماً غارقاً في عيني سعيد زمناً طويلاً كمن فقد ذاكرته ثمّ استعادها للتّو. وكأنّ ضميره لا ينتبه إلا مرغماً وفكره المخمور لا يصحو إلا حين تحاصره الأسئلة.

تمنى للحظةٍ ألا يكون نفسه وأن يكون شخصاً آخر في عمق العينين اللتين تمطرانه لوماً وحبّاً. أراحه سعيد من ثقل صمته بأن نهض إلى فراشه مخاطباً إبراهيم:

قم إلى النّوم وغداً تجّهز أغراضك للسّفر فأمامنا مشوارٌ طويلٌ غداً.

أطبق سعيد جفنيه وصورة أخته مطبوعةٌ ثابتةٌ في مخيلته لا تتحرك ....على ماذا يراهن سعيد هذه المرّة ؟ على معجزةٍ تعيد إبراهيم إلى وعيه؟ أم أنّه للآن لم يجد حلاً مناسباً مع صهره الأرعن، فغفا على أمل أن يكون غده مثمرا لجوابٍ يتمناه سعيد

ويرجوه.

تعمّد سعيد ألا يكلّم إبراهيم في رحلة العودة إلى الديار علّه يجبره على التّفكير مليّاً في حاله المتدهورة، لا يزال سعيد يراهن على شعور صديقه بالامتنان لكوّة النّور التي أبصر منها حلحلةً لأزمته، مراهنات سعيد تصطدم دوماً بمغالاة إبراهيم المفرطة الإهمال، عضّ على شفته السفلى بحرقةٍ وهما يستقلان البوسطة المتوجّهة إلى الحدود بعد أن اشترى صهره علبة سجائر مستوردةٍ أخرى، رأى أنّه يراهن على أحلامه ليس إلا فالذي أمامه كائنٌ مستثارٌ بحبّ ذاته، غريبٌ عنه للحدّ الذي بدأ عنده بالتّساؤل أما زال إبراهيم صديقه القديم حقاً أم مجرّد صهرٍ فاقد الأهليّة والمسؤوليّة؟

وصلا للمدينة وهناك اشتريا بعض الحاجيات والحلويات وابتاع إبراهيم ألعاباً لابنه الصّغيرواستقلاّ حافلةً جديدةً وانطلقا باتجاه القرية،وقبل أن يصلا بقليلٍ توجّه إبراهيم بالشّكرلسعيد واعداً إيّاه بأن تكون المرّة الأخيرة التي يبلغ فيها ما بلغه من الإهمال واللامبالاة، ابتسم سعيد في وجهه وكلّ حواسه مشنّفةٌ لتصديق ما يقول بينما صوت عقله يحتدّ شيئاً فشيئاً داحضاً كلّ وعود إبراهيم.

ربت سعيد على ركبة صهره قائلاً: أتمنّى أن ينصلح حالك قبل فوات الأوان يا إبراهيم فأنت صديقي وصهري .... أرجو أن تكون الأخيرة حقاً.

توقفت البوسطة وسط القرية، حمل كلٌّ منهما حقيبته وانطلق إلى منزله،لقد اعتادوا مؤخراً القدوم من دون إخطار ذويهم بموعد إيابهم، سابقاً كانوا يرسلون رسائل شفاهية مع

أحد العمّال العائدين قبلهم لتخبر أهاليهم بموعد رجوعهم أمّا الآن فعودتهم تستتر بالمفاجأة الصرفة.

أحمد الصّغير يلاعب أمّه أمام البيت، الرّبيع يفرض وجوده بكلّ ما أوتي من دفء وخضرةٍ وعطور ..الأقاحي المتناثرة على جانبي السّاقية أشبه بمروحةٍ عطريّةٍ تتحرّك مع هبوب النسمات فتسبي النفس بعطرها الأخّاذ، وبدخول إبراهيم لفناء منزله اضطرب ربيعهم .... إعصارٌ قادمٌ من الفرح والدّهشة يتّجه صوبهم، الصّبي الواثق الخطأ حاضر الذّاكرة، نشر ذراعيه وركض بكلّ طاقة فرحه نحو أبيه فما كان بوسع دريّة إلا أن قلّدته، ضمّهما إلى صدره طويلاً وقبّلهما مراراً معرباً عن اشتياقه وحنينه لهما، وبعد أن انتهت مراسم الاحتفاء والاشتياق تلك، مشوا بتؤدةٍ وجلسوا على الدّكة المقابلة لشجرة الدرّاق المزهرة حين ذُهل إبراهيم لشيء غفل عنه في لجّة الشّوق تلك.

بطن دريّة مكوّرٌ ظاهرٌ للعيان يخفيه ثوبها الفضفاض ولم ينتبه إليه إلا أثناء جلوسها فظهر باستحياءٍ بين ثنيات ثوبها المزركش، أحسّت دريّة بنظرات زوجها المتفاجئة فابتسمت بملء وجهها الباسم وهمست: نعم يا إبراهيم ستصبح أباً للمرّة الثّانية.

فسألها سؤالاً مخبولاً أكثر منه: متى حصل هذا؟

فانفجرت ضاحكةً من غرابة سؤاله: يا لسؤالك يا إبراهيم أمعقولٌ أنت؟

فشاركها الضّحك ببلاهة بعد أن استدرك سذاجة سؤاله فالمؤكّد أنها حملت بعد إجازته الأخيرة ومن البديهي أن يجد بطنها الآن مكوّراً بعد غياب شهورٍ خمسة .... خطفته أفكاره لحظاتٍ لحديثه إلى سعيد، فلا مناص له بعد حمل دريّة الثّاني من وفاء

التزاماته وعهوده أمام صديقه،إيفاء وعوده التي باتت صمّام الأمان لعلاقتهما الطيّبة والتي قد تنقلب وبالاً عليه في حال إخلاله بها.

ضمّ زوجته إلى صدره بمحبّةٍ ماسحاً شعرها بكفّه الخشن يملاءان عينيهما وقلبيهما من حركات ابنهما وضحكاته التي يزدحم بها المكان وهو يركض وراء كرته الصّغيرة كفراشةٍ يانعة.

إجازته هذه لم تختلف عن سابقتها كثيراً في أيّامها وسرعتها، الأحداث ذاتها تتكرر مثل كلّ مرّة، زياراتٌ متبادلةٌ للأهل والأقارب وأحاديث طويلة إلى زوجته ، وساعاتٍ للهو مع طفله الصّغير إلا أنّها هذه المرّة كانت خالية العتاب، دريّة تبدو عليها قسمات الرضا والقناعة كأنّها تعيش عالماً حالماً، الحمل زادها بهاءً وجمالاً.

هي مثل أخيها سعيد تبعث في الروح الطمأنينة وتشعّ بكلّ ما فيها من طاقة محبّة،برطم لنفسه وهو يلاحقها بنظراته وهي تقوم بأعمالها المنزلية الرتيبة باسمة المحيّا: لولا سفري عنهما لكنت أفضل حالاً بقربهما.

تنبّهت دريّة لأفكاره فاعتقلتها بابتسامة ٍوادعةٍ ليبقى إبراهيم يفتّش في حركاتها وهي تخطر أمامه جيئةً وذهاباً عن سحر وجودها قربه، دفءٌ لا تهبه له نرجسيّته المفرطة أو غروره البارد.

باغته الصبيّ بغمرة شوقٍ مباغتةٍ قطعت سيل تأمّلاته وصمت النظرات المهيب فعلت أصوات الفرح مدغدغةً أنفاس دريّة التي انكفأت نحوهما ضاحكةً مستجيبةً لنداء فرحٍ تاقت إليه طويلة.

وانقضت الإجازة بالشّكل الذي تمنّاه إبراهيم، وادعةً هانئةً لا تشابه الأيام التي يعيشها، أيّامٌ مسروقةٌ من جنّةٍ حقيقيّةٍ لا يطالها التعب ولا يُقلقها الحزن والعتاب حبلى بالأحلام تماماً كدريّة التي

تمنت أن يكون المولود القادم بنتاً لتكون قسمةً عادلةً بينها وبين زوجها باعتبار أن الصبيّ حصّة أبيه بينما تمنّى إبراهيم في سريرته أن تكون حصّة دريّة كلّ ما يودّان إنجابه من الأطفال، لعله حقيقةً يعلم قرارته أكثر من غيره ويعاني منها ما يعاني، فيتظاهر بلامبالاته عمداً ليخفي عقدته تلك.

فجراً حين ودّعته بذاك العناق العابق بوصايا عشق النّسوة وأشواقهنّ منذ الأزل تدحرجت من عينيها دمعتين حارقتين تفوح منهما رائحة توقٍ لا يهدأ. مسح دموعها بظاهر كفّه وسكّن روحها بكل ما واتاه حديثه من عباراتٍ مسرفة الحنين والحب.

هدأت نفسها تحدوها الأماني بألا يغيب كثيراً وأن يعود في شهر ولادتها فوعدها مقسماً بحبّه لها .... اليمين الذي تعتبره دريّة ميثاقاً يحفظ لها ما لها عند إبراهيم حتّى يعود ولم يكن في أغلب الظّن عند إبراهيم سوى وعد السّراب الذي لا يمنح منتظريه سوى تهيؤات ما يرغبون حدوثه .... كان وعد الواجب، واجبه كزوجٍ لا أكثر. مساءلة إبراهيم لنفسه هي بضع دقائق قليلةٍ تتكرر ذاتها في سنين عمره كلّها منذ أن تفتّحت عيناه على معنى الحياة، دقائق يبصر فيها جليّاً ما هو واقعٌ حقاً وما هو كائنٌ بخياله الحرّ فحسب.

يهزّ رأسه هارباً من هتاف ضميره كمن ينفض طيراً يعيث نقراً برأسه، هو غافلٌ حقّاً راضٍ بمواكب الأوهام التي تنام في رأسه وتركض أمامه وخلفه على طريقه الطّويل، مشى على الطّريق التّرابي المندّى ببكاء الفجر حتى وصل البوسطة التي ستقلّه وسعيد إلى المدينة .... وصل سعيد في موعده، بادره بالتّحيّة وجلسا على مقعدٍ واحدٍ وانشغلا بأحاديث المسافرين حتّى منتصف الطّريق،

التفت سعيد إليه مخاطباً:

- هل سنحتاج بعد اليوم إلى مزيدٍ من العتاب يا صهري العزيز.

فأومأ له إبراهيم برأسه نافياً فيجيب سعيد هامساً: أتمنّى ذلك يا أبا أحمد.

ضفتين

بعض الأشياء في الحياة تتشابه ظاهرياً تشابه الملح بالسّكر محافظةً على فرادة الجوهر والطّعم، توأمة الشّكل واللون لا تخفي تضادهما إلا لفاقد الذائقة.

صراخ تلك الليلة كان متشابهاً ظاهرياً متفرّداً بطعمه على كلّ طرف،في الطّرف الرّيفي القابع تحت شال شفقٍ صيفيٍّ بديع وفي بيت أهل إبراهيم، صراخ دريّة كان يُفسد سكون ذاك المساء، قررت المولودة أن تأتي مبكّرةً قبل أن يهبط ستار الليل تاركةً فسحته بأكملها لأمّها وجدّيها وأخيها الصّغير ليهنؤوا به بلذّة نسغ جديدٍ في العائلة.

- إنّها بنتٌ يا أبا زيد.

قالتها أمّ زيد فرحةً، حمل الجّد الصّغيرَ بين ذراعيه مخاطباً إيّاه بعد قبلةٍ طويلةٍ: لقد أصبحت أخاً أيّها الصّغير. فضحك الصّغير لجدّه من دون أن يعي كلامه وعانقه بشدّةٍ، انتظرا قليلاً قبل أن تأذن لهما الجدّة بالدّخول إلى غرفة الولادة اللاهثة بروح الحياة الجديدة .... انتبه الطّفل للصراخ الخفيف المنبعث من اللفّة الصّوفيّة الصّغيرة بجانب أمّه المتعبة الباسمة، فرّ من حضن جدّه واقترب متخوفاً يجول بنظره بين أمّه وجدّه فتلقفته أمّه ضاحكةً وقبّلته.

- انظر يا أحمد .... لقد صار عندك أختاً جميلةً، وعليك أن تحبّها وترعاها منذ اليوم لأنك غدوت كبيراً الآن.

تسمّرت نظرات الصّغير في وجه أخته المكتنز الباحث يميناً وشمالاً عن أطيافٍ هائمة.... شفتاها المتباعدتان قليلاً عن بعضهما أثارت عنده الاعتقاد بأنها تخاطبه فجاوبها ببُحّةٍ خافتةٍ: أهلاً. فانفجر الجميع ضاحكاً من براءته الطّفوليّة.

أمّا في الطّرف الآخر، ما وراء حدود الوطن وتحت ظلال الغربة المختارة , انفجر بركان صراخٍ خمد طويلاً، طيلة سنتين منصرمتين حبس فيهما سعيد صمته عنوةً حتّى ضاقت روحه ذرعاً به، فتشظّى الصمّت قنبلة كلام موقوتةٍ انعقد في جوفه أمداً خانقاً، فزفره بأقصى طاقته صراخاً.... هي اللحظة التي خافها وأجّلها طويلاً، كم دحرجها أمامه بفارق خطوةٍ من أملٍ ورجاءٍ ولكن من دون جدوى للوقت الذي حان فيه استحقاقها.

نفس سعيد تغلي كمرجلٍ ملأ جوّ غرفتهم بأبخرة الغضب القاتم، للمرّة الألف التي يؤجّل فيها حنقه هذا والمرّة الأخيرة التي لا ينفع تأجيلها أبداً، كلّ ما تخوّف إبراهيم سماعه من نفسه ومن غيره صبّه سعيد فوق رأسه دفعةً واحدةً، انهال عليه غضب صديقه كسيلٍ جارف مفاجئ.

صوت الحقيقة طرق أسماعه كناقوس، فتنفّسها حتّى من جلده ولوهلةٍ أحسّ بأنّه عارٍ تماماً أمام من يشاطرونه سكنه وغربته، صار يبحث في وجوههم عن مخبأ ليستر عورته تلك فلم يجد سوى ملامح بشريةٍ يكتشفها لأوّل مرّة.... كان يهوّذا بين ثلّةٍ من الحواريين، لم يعرفهم ولم يعرفوه قبلاً، صمتهم كان حليفاً لسعيد فلم ينطق أحدٌ منهم ببنت شفةٍ متدخّلاً لإنهاء الصّراخ مانحين له الأحقية بذلك.

تمنّى لو يمتلك الجرأة ليردّ عليه ولو بكلمةٍ واحدةٍ في دوّامة

الإعصار التي صفعته على وجهه وروحه ألف مرّة بسياط الحقيقة اللاهبة دونما إشفاق، فتّش عن صوته في حلقه فلم يجده، أصوات الوهم عادةً ما تفرّ أمام صوت الحقيقة الصارخ فتهرب صاغرةً مخزيّةً، فلا مناص من سماعه لعيوبه التي زيّنت له الخطأ على طبقٍ من رغباتٍ جامحة.

سكت سعيد بعد أن أفرغ أثقال روحه كلّها أمام دهشة الجميع، وبعد أن صمّ صراخه أذن الليل الهادئ المنصت وقبل أن ينصرف نطق بعبارته الأخيرة لصهره: عندما نعود للوطن سأطلّق أختي منك.

انصرف سعيد مخلفاً وراءه همساً مرتبكاً وغبار وشوشاتٍ يحطّ بهدوءٍ على أطراف الغرفة الكبيرة في شقّة غربتهم تلك، ليبيت ليلته الناكثة بوعود ما سبقتها من الليالي الآملة المترجّية في ورشة البناء حيث يعمل أكثر الشبّان الذين يعرفهم، ليلةٌ مزدحمة الخيبات محفوفةٌ بالألم متكدّسة الهواجس.

وصل الورشة يستبقه لهاثه ووقع خطاه، طالعه حارس المناوبة الليلية يحمل سراجاً بذبالةٍ واهية، فتح فاه بدهشة من قدوم سعيد في ذاك الوقت وصاح به: هل نسيت شيئاً يا بني؟

جاوبه سعيد بالنّفي واستبق أسئلته المفترضة بسؤاله: هل لي أن أبيت عندك ليلتي هذه ...غداً أخبر أبا رشيد بذلك؟

فأومأ له برأسه موافقاً ودخلا معا إلى غرفة الحارس وأسئلته فوق شفته قيد الانتظار.

جلس سعيد في حافة سرير الحارس الذي شاغله إعداد الشّاي عنه لبرهةٍ، وكأنّه يعطيه بذلك وقتا زمنياً ليرتّب ما سيودّ قوله.

صبّ الشاي بحرفيّةٍ في قدحين كبيرين منتقداً شاربي الشّاي

بأقداح صغيرةٍ فرسم سعيد في وجهه ابتسامة امتنانٍ للحارس الطيب معرباً له عن شكره الكبير لمعروفه الجميل.... نفخ على فوهة القدح نفخةً طويلةً ليخفف حدّة سخونة الشاي فتحركت غلالات البخار في مهبّ نفخته فنظر له الحارس مليّاً قبل أن يبدأ سرد أسئلته: هل من خطبٍ يا بنيّ؟ أهي مشكلةٌ بينك وبين أحد الشّبان في المسكن؟

- نعم أيّها الطّيب. أجاب سعيد باقتضاب.

- وصهرك إبراهيم يعلم بما جرى بينكم.... قد يبحث عنك إن رجع ولم يجدك، ألم تخبر أيّاً منهم بأنك قادمٌ إليّ؟

- قادتني قدماي إليك يا عم ولم أخبر أحداً بوجهتي حين خرجت أمّا إبراهيم فلن يقلق أبداً فهو سبب الشّجار وطرفه الآخر فشجاري مع إبراهيم نفسه يا عم.

وضع الحارس قدحه برويّة على الطّاولة الخشبيّة وأمارات الدّهشة تبدد رتابة قسماته المألوفة.

- أعلم أنّك تفاجأت يا عم ولكن هذا ما حصل فعلاً، لم أستطع هذه المرّة كبت جماح غضبي المتراكم منذ زمنٍ طويل، انفجر صمّام الأمان فأطاح بكل ما اجتهدت في كتمانه.

قالها سعيد ولم يستزد شيئاً، ليشرب الشاي الساخن ويرتشفه رشفةً واحدةً كمن يُطفئ حريقه بالنّار. ناوله الحارس الإبريق ليصبّ قدحا آخر ليُطفئ به ما تبقّى من غضبٍ داخله والتفت إلى علبة قديمةٍ على حجرٍ قريبٍ وبدأ رحلة تبغه القصيرة من دون أن يُعر لسعيد انتباهاً تاركاً ذبالة السّراج تقطع صمت المكان بهمهمات مختنقة، مدّ له إحدى اللفافتين قائلاً: جرّبها قد تريحك.

نبرة صوته الأجش المسالمة لم تترك له مجالاً للرفض فقبلها منه مجاملاً بابتسامة.

- أعلم أنّك لا تدخّن يا ولدي.

قالها وهو يشعل لفافة سعيد من دون أن ينتظر جواباً منه أشعل لفافته وأخذ نفساً عميقاً منها قبل أن يُطلق غمامته الأولى بينما كان سعيد لا يزال يتأمّل آلية التّدخين تلك بغرابة.

مازحه الحارس باسماً:

اسحبها فحسب وهي تتكفلّ بالباقي.

وضع سعيد اللفافة بين شفتيه متهيّئاً بجميع حواسه كرضيع يخبر ثدي أمه للمرّة الأولى، شهق في داخله بكلّ استطاعته كما فعل الحارس فأضلّ شهيقه طريق الدّخول وانفجر داخله سعالاً حاداً مرسلاً نتفاً من غمامات دخانٍ تخرج من رأسه وأنفه تباعاً، ضحك الحارس بشدّةٍ وهو يربت له على ظهره

- حسناً يا ولدي إنّها المرّة الأولى فحسب.

احمرّ وجه سعيد من شدّة سعاله، زاد خجله من الحارس الهرم السّاخر من شردقته فناوله الحارس قدح ماءٍ باردٍ ليكتم أنفاس بوق سعاله، لاطفه وهو يصبّ له قدحه الثّاني.

- أمّا وأنّ نفختك تلك أفرغت حمولة صدرك سعالاً قل لي ما جرى بينك وبين صهرك علّني أفيدك بنصيحةٍ.

كان واثقا بكلامه سلفاً من حتميّة بوح سعيد له بمجمل تفاصيل واقعة المساء وفعلاً لم تكن لديه أيّة نيّةٍ لمداراة ما حصل عنه فالواقعة ستكون خبز حديث العمّال في الورشة فأغلبهم يقطنون معهما في سكنهم الموحّد.

وكتيّار كلامٍ متتابعٍ لا يعقه ترتيب جمله، منضدٌ سهلٌ سلسٌ

وكأنّه حكاه لنفسه مراراً قبل أن ينطق به، بدأ سرده لقصّة الحقيقة المؤجّلة

- سيّدي الكريم طوال عامين وأنا أكظم غيظي منه فقبل أن يكون صهري هو رفيق طفولتي وصباي ونديم كأس الوحيدة وسهراتي الجميلة، حسبت أنّي أعرفه كنفسي، زوّجته أختي وبعد زواجه انقلب حاله نحو الأسوأ فسهراتنا الشائقة لم تعد كافيةً لإرضاء غروره وإسكات نشوته . أصبح قدحه يصبّ فوق أغطية المخمل في الحانات التي يتحلّق حولها بنات الليل ما يكفين لإفراغ جيوبه، هذا الشّهر سيصبح أباً للمرّة الثّانية وجيبه مليء بالخيبة، لم يدّخر قرشاً واحداً لأسرته التي ستكبر بروح أخرى،لم يتحرّك في داخله إحساس بالمسؤوليّة تجاه أحق النّاس بعطفه واهتمامه وهذا لعمري عجيبٌ غريب، كيف يُعقل بأن يكون لحمك ودمك هو آخر ما تفكّر به، هو الأمر المنسيّ في أقاصي الذاكرة، صهري مصابٌ بداء الغياب فكلّ ما ليس أمامه ليس له أيّ قيمةٍ لديه وهنا مربط الفرس فرغم كلّ محاولاتي لتغييره بالوعظ حيناً وبالتهديد حيناً آخر لم يجد معه نفعاً حتّى عيل صبري من حاله الرديء، ملامح الخذلان في وجه أختي لا يفارقني أبداً أخشى عليها من صدعٍ سيصيب قلبها لا محالة، وصهري لن يتغيّر طبعه بل إنّ الحال يتفاقم سوءاً ومهانةً يا عم.

وهنا صمت سعيد لبرهةٍ محاولاً التقاط أنفاسٍ جديدةٍ ليكمل حديثه فما تبقّى منه منكّه بالمرارة الخالصة، شرب قدحه الفاتر دفعةً واحدةً وأدلى بالبقيّة بعد شهيقٍ عميق:

ثمة أمور في الحياة علاجها النّاجع بإزالتها وبترها كالخيانة،فهذه الأشياء من سجايا النّفس بالمطلق فلن تتغير مهما حاولنا توشيتها

بالتمنّي والتّغاضي كالنّافخ في ماء يغلي فوق موقد النّار ليبرد، مسألةٌ صعبةٌ مضنيةٌ إن كان من أُصيب بهذه اللعنة أقرب النّاس إليك، لم يقتصر الأمر على الخمر أو على طاولات القمار فحسب أو حتّى على صحبة السّوء التي ترافقه أحياناً، فلقد تعدّى الأمر إلى ما كنت أخشاه،لابدّ مما ليس منه بدّ، في الآونة الأخيرة لم يعد التّهديد والوعيد مجدياً لكبح جماحه من الذّهاب ولو في نهاية الأسبوع إلى الحانات ليعود بهيئةٍ مزريةٍ أخجل منها أمام شركائنا في السّكن فتقضي سهرته بحكم إفلاسه، إلى أن جاء الأسبوع الأخير من الشّهر فصار يتغيّب عن الورشة صباحاً من دون إذنٍ من أبي رشيد بحجة أنّ هناك أموراً خاصّةً يترتّب عليه فعلها، وبعد إلحاحي المستمر لمعرفة ماهية أعماله التي يدّعيها أجاب بأنّه تعرّف إلى أحد رجال الأعمال في الحانة حيث يقضي معه معظم سهراته وأنّه سيؤمن له عملا أفضل من عمل الورشة بكثير.... حاولت تصديقه وتذرّعت لأبي رشيدٍ بألف ذريعةٍ ليغضّ الطرف عن إهماله المتعمّد إلى أن راودتني فكرة اللحاق به، ولحقته فعلاً ورأيت ما تخوّفت منه مراراً ونهرت عقلي ألا يفكّر به، لقد تبعته من شارعٍ إلى آخر حتّى انتهينا إلى زقاقٍ ضيّقٍ في نهايته بيت بابه مطلي بلون أزرقٍ، طرق عليه إبراهيم بحذرٍ شديدٍ متلفتاً يميناً وشمالاً ففتحت له امرأة ودلف إلى الداخل بعجالة.

تسمّرت قدماي لوهلةٍ، خلت بأنّي في حلم مريبٍ، نزل المشهد على قلبي كنزول البرق فأعمى قلبي وبصري ....كل المخاوف التي أنكرتها زمناً تبدّت أمامي وقحةً هازئةً ضاربةً آمالي كلها بعرض الحائط فلم تعد مخاوفاً فحسب، لقد تجسّدت حقيقةً لا يدنوها الشّك ..لم يُخطئ حدسي يوماً فانقلاب حاله أشار بإصبع خفيٍّ إلى

نزوةٍ قائمةٍ في حياة إبراهيم، تقدّمت بخطواتٍ متعثّرةٍ شطر الباب وهممت بقرعه فتبدّى لي وجه دريّة على خشبه الأزرق فرجفت يداي وتراجعت وقفلت عائداً في الزّقاق المزدحم بأمانيّ القتلى من دون أن أفكّر بشيءٍ، كان وجه دريّة المطبوع في قعر عيني يضلل كلّ أبجديّةٍ تصادفني ويبعدها عن مجسّات حروفي وقبل أن أصل المسكن بقليلٍ ضغطّت هواء الشّارع بأكمله في صدري ،المسكن فارغ إلا من ركامي فالشبّان لم يحن موعد إيابهم بعد....لجمت ثورة بركاني بأن جلست لأستحضر ما يوجب عليّ فعله فالبلاء قادمٌ والسّيل يرغي ويزبد، والمواجهة حاصلةٌ لا ريب فيها ودريّة.... آه من دريّة! كلّما استعدت وجهها مزّقتني الحسرة ونثرتني مذراة عينيها فتاتاً.

عقدت العزم للمضي إلى صاحبة الباب الأزرق بعد أن يتذكر إبراهيم عمله ويعود إليه. وهذا ما حصل فعلاً، ذا يوم وبعد أن انطلق الشبّان بما فيهم إبراهيم إلى عملهم،استجمعت جرأتي وخرجت هائم التّفكير والحواس إلى مقصدي في نهاية الزّقاق، كنت أتحاشى إبراهيم في الأيّام السّابقة وخفت إن تفرّست في عينيه أن أوسعه ضرباً وهذا ما كنت لا أطيقه وقتها فوجه دريّة يحاصرني يحوم حولي كفراشٍ مستغيثٍ من نارٍ تحرق أجنحته، الباب الأزرق كان يقبع في نفسي كشاهد قبر، فلا مناص من الحديث مع المحتجبة وراء الباب.

وصلت نهاية الزقاق وللعجب كان الباب الأزرق مفتوحاً كأنما تُرك موارباً ليستعيد صاحبه شيئاً نسيه في الدّاخل، وما إن وصلت قبالته حتّى أطلّت فتاةٌ حسناءُ في العشرين من عمرها فارعة الطّول بشعرٍ أجعد وعينين خضراوين بهيئةٍ أكّدت لي ما دار

في خلدي من تكهّناتٍ

عُقد لساني فجأةً ورفّت أسراب الكلمات من رأسي لتحلّق دونما رجعة، عيناها الخضراوان واسعتان لدرجة أنّها تسبر أغوار الرّوح فتحتويها برفّةٍ من هدبيها وأمام صمتي المتخاذل أطلقت العنان لبسمتها الماكرة قائلةً بهمسٍ ناعم: من تريد أيّها الوسيم؟

كأبله بقيت متسمّراً أمامها من دون أن أنبس ببنت شفةٍ تهاطل عليّ رمقاتها باحثةً عن جوابٍ يتيم. وبدون وعي أجبتها: أريد الحديث إليك لو سمحت.

وقبل أن تبدأ برشق أسئلتها قاطعتها بقولي: إبراهيم.

أغلقت فمها محجمةً عن القول مبعدةً وجهها عنه وكأنها تلتمس رداً مناسباً

- مَن إبراهيم؟ همست بسؤالٍ خبيث.
- إبراهيم صهري.... لقد رأيتكما معاً تدخلان لهذا البيت فدعينا نتكلّم فقط.

متحججةً بارتباطها بموعدٍ حاولت الاعتذار والتهرّب من مقابلتي، وعندها أكّدت لها أنّي سأنتظرها أمام الباب لحين عودتها ولكنّها اعتذرت بلطافةٍ مصرّةً على الخروج كالهاربة من شبحٍ، تبعتها لنهاية الزّقاق حتّى انعطفت يميناً لتدخل في شارعٍ يفضي لآخر يسمّى بشارع المقاهي

ما العمل الآن؟ حادثت نفسي: هل كان عليّ أن أرغمها على الحديث ...أتراني أعطيتها الزمن الكافي لتنسج حكايتها كما تريد ولكن بالنّهاية فتاةٌ مثلها لن تقع في شراك حبّه وما يجمعها به لا يتعدّى امتلاء جيوبها ليبقى اللغز المحيّر بأنّ عاملاً بسيطاً كإبراهيم لا يكاد دخله يكفيه سهرته آخر الأسبوع أن يحظى برفقة

فتاةٍ مثلها وهنا تيقّنت أن ثمة سرّاً متوارياً لم أدركه بعد، ووحدها ذات العينين الخضراوين تمتلك الإجابة.

وبقرارٍ وليد لحظته عدت إلى المسكن بنيّة العودة ظهراً فهي لم تتعمّد الخروج هرباً من محادثتي على أغلب الظّن فبابها كان موارباً مسبقاً لخروجٍ مؤكّد.

عدت ظهراً، الباب الأزرق مازال مغلقاً، طرقته من دون تفكيرٍ ففُتح فوراً حتّى تخيل لي بأنها كانت وراء الباب بانتظار أن أقرعه، أومأت إليّ بطرف عينها للدخول فدخلت منقاداً برغبةٍ جامحةٍ لاكتشاف ما دار خلف هذا الباب ذاك اليوم.

- مالذي تريد معرفته بالضّبط أيّها الوسيم. وأشارت بيدها لي بالجلوس

جلست قبالتها في صالون أنيق ليس على قدرٍ كبيرٍ من الفخامة ولكنّه مرتّبٌ ونظيفٌ يوحي لك بأنها تقطن البيت وحدها.

- علمت أنك ستعود.... كنت بانتظارك.

- إبراهيم؟.... مالذي يجمعك به؟ ولم يزورك هنا؟ هل أنت عشيقته؟

زمّت شفتيها بهدوءٍ بالغٍ متشاغلةً بلفافة التّبغ التي أشعلتها للتو.... إنها من نفس النّوع الذي يدّخنه إبراهيم.

نفثت من فمها سحابةً طويلةً وأجابت باقتضابٍ: إبراهيم صديقي.

- إبراهيم صهري وصديقي أيضاً. وأردفت: وأختي تحبّه كثيراً.

رمقتني باستغرابٍ مستنكرٍ لتفضي بجوابها الطّويل:

- كلّهم كاذبون أيّها الوسيم، فالرّجال لا قلوب لهم ولو أحبّ صهرك زوجته كما تحبّه لما حظيت برفقته في سهرات الحانات،

أنا وإبراهيم عشيقان، لنقل في الأقل إبراهيم فمثلي لا تعشق ولي أسبابي ولكنّ صهرك متيّم بي منذ فترة وقبل أن تتراكم أسئلتك في ذهنك سأجيبك بما تودّ معرفته .... تعرفت إليه في إحدى الحانات ينضح سذاجةً وعفويّةً ومثلي من تتنشق ذاك من لمحة خاطفة. ريفيٌّ بسيطٌ امتلك نقوداً للتّو وله من الجسارة ما تحمله ليرتاد مكاناً كهذا، تقرّبت منه كما أفعل مع أيّ رجل آخر، فسوّلت له نفسه الوقوع بي، لنقل من ثالث لقاءٍ بيننا، كان الإيقاع به سهلاً، نظر إليّ بعين الغرور فنظرت إليه بعين الفريسة وشتّان ما بين النّظرتين، أنانيّته سهّلت عليّ الأمر كثيراً، استطعت بعد فترةٍ وجيزةٍ أن أغويه إلى طاولة القمار فكان القمار حليفه بعد سلسلةٍ من الخسارات المتتالية، جيوبه المليئة بالنّقود حثّته على المواظبة ورويداً رويداً كثُرت نقوده وغيرته، ووجدت نفسي محظيّةً عنده دوناً عن بقيّة الفتيات المبتذلات في الحانة فكان من السهل جداً أن أدلّه على بيتي لأضمن أن نقوده ستؤول إلى جيبي وحدي ولن تُفرش على طاولات القمار، فالقمار لا أمان له وعليّ الإجهاز على فريستي قبل أن تستحيل عظماً وهذا ما حصل وليست المرّة الأولى التي يتردد بها إبراهيم إلى هنا وفي كلّ مرةٍ يأخذ ما يريده وآخذ ما أريد.

أطفأت عقب اللفافة في المنفضة الزّجاجيّة كإشارةٍ لانتهاء الحديث، فعادت لتستطرد بقيّةً منسيّةً منه:

- لا تخف عليه، فأنا لا أريده ولأجل أختك المحبّة سأمتنع عن رؤيته بعد اليوم.... ولأجلك أيضاً أيّها الوسيم.

بقيت هادئاً على الرغم من براكيني المستعرة بأنفاسٍ مجمّدة في حلقي الجاف، لم أعِ شيئاً، كنت مذهولاً مما سمعته عاجزاً

عن تصديقه، جالت عيناي مراراً في الصالون الجامد كالباحث عن ظل.... خيانته جمّدت خلاياي ومياسمي المتأججتان غضباً. نهضت بلحظةٍ مجنونةٍ أحثّ الخطا نحو الباب حين سمعتها تقول بصوتٍ واثقٍ:

- ليس ذنبي أيّها الوسيم .... أنا أعمل فقط.

لم التفت إليها، خرجت هائماً على وجهي لا ألوي على جهةٍ معيّنة، كل الشّوارع مسكونةٌ بالرّيح العاصفة في مخيلتي .... وقدماي كإسفنجٍ مبلل لا يُرهق إسفلتاً ولن تتذمر ألماً. قبالة البحر أمضيت الهزيع المتبقّي من النّهار جالساً على آلامي، مفاوضاً غضبي على ألا أُهشّم وجه إبراهيم حين أراه، مصافحاً وجه دريّة المتهادي على الموج الناعم كخدّيها، الهامس كصوتها، ومفنداً تلك الصداقة التي كانت وبالاً عليها وعليه.

قفلت عائداً للمسكن بغير الطّريق الذي جئت منه، قدماي بدون ذاكرة ومنذ الصّباح أمشي بدون عقلٍ فكأنّي وصلت المكان الذي أنشده غرائزياً، الأشياء تتحرّك بميكانيكيّةٍ فريدة، كلّ الأشياء بخيرٍ عدا عقلي أما قلبي فمغرّبٌ عن زمانه ومكانه لم يبقَ منه سوى نسخةٌ لمضخّة ٍ قديمةٍ تعيل جسداً يكابد مرار الخيانة وألم الرّوح.

دخلت المسكن لأختبر أمامهم آلية التشظّي، حين يُضغط السكوت فوق حد الإشباع فينفجر الخزّان الموقوت كإعصارٍ يُخفي ملامح من يصادفه.

أذهلته المفاجأة، تحجّر أمامهم كتمثالٍ أصم، ذاهلاً حتّى عن نبضه الذي احتشد دماً أزرق في وجنتيه، تماماً كبابها الأزرق، جرّعته القشب الذي خلطه بيديه وسقانا منه سنتين كاملتين

فجرّعته ما تبقّى ممزوجاً بالذّل والهوان .... نعم أردت معاقبته، أن ألقّنه الدّرس المؤجّل والأخير لأقطع بذلك آخر شعرةٍ تربطني به فلن أعرفه بعد اليوم ولن أترك أختي في ذمّته لتعاقر الحسرة عمرها كلّه .... وفي اللحظة التي تجرّأ بها فنطق باسمي انسحبت بسرعةٍ تاركاً حطام الزّوبعة ورائي، ختمت الحديث بالشّمع الأحمر، كلّ زيادةٍ بعد ما قيل ستنقص هيبته، صوت الأحبّة يجفل مخارج الحروف فتولد موشّاةٌ بالأسى والعجز.... ولكن هو لم يعد حبيبي بعد الآن.

أفرغ سعيد ما في جوفه على مسامع الشيخ الحارس الذي استغرق إيابه من شروده بضع لحظاتٍ لينتبه لتوقّف سعيد عن الكلام، حانت منه التفاتةٌ نحو النّافذة المفتوحة وقال بفتور:

- كم تتشابه الحكايات يا ولدي .... هوّن عليك فللحياة بقيّة ولن تكون أوّل الهزائم ولا آخر الخيبات.... تذكّر دوماً بأنّ التعلّق بأحدٍ هو أسوأ ما في الحياة، دع قلبك نظيفاً من العابرين فيه ولا تسلّم مفتاحه لأحدٍ، جرحك ستمحوه السنين، الأمر مناطٌ بالوقت، ولكن اترك لأختك حقاً بأن تقرر مسارات حياتها فهي لا تزال على قيد حبّه للآن.

كلام الحارس أوحى لسعيد بحكايةٍ مختبئةٍ وراء وجهه السمح، أيُعقل أن تكون إقامته في الورشة مهرباً من حكايةٍ قديمة؟!

خيبة

دموعٌ فاترةٌ كقلبها، حائرةُ كأمنياتها، تنسكب بوداعةٍ على خدّها الدّري فتمسحها بظاهر كفّها من دون اكتراث، طعم الملح يقبع عند شفتيها فيطيب مقامه حتّى انتهائها من جلي الصّحون فتعمد إلى رشّه بالماء لتزيل الملح عن وجهها وجرحها القديم النّازف، وبابتسامةٍ راضيةٍ تعود لأطفالها الذين يتهيئون للذهاب إلى مدارسهم

- هيّا يا أولاد .... أسرعوا قليلاً حتّى لا تتأخروا عن المدرسة.

يمازحها ابنها الأكبر أحمد قائلاً:

- إن تأخّرنا فلأنّ ذكريات ولادتك لذلك الشّقي جاءت مبكّراً على الفطور ولم تنتظر للغداء.

انضّمت إليه أخته مريم بضحكةٍ خفيفةٍ بينما كان حسن الصّغير مشغولا بهمّه يعبث بكسرة الخبز الذي وّجب عليه حكماً إكماله فلم يلق بالاً لمزاح أخيه.

قبّلاها مودّعين وانطلقا، شيعتهما نظرات دريّة حتى تواريا عن مجال رؤيتها وعادت لتتفاوض مع الصّبي لإنهاء طعامه.

حسن الصّغير هو الحبّة الثالثة بعنقودها ذو الثلاث حبّات، هو الخلاصة النّهائيّة لأملٍ ينمو في روحها المتشققة من الخيبة والخيانة، أملٌ ترغب أن تتذوّق نضجه قبل أفول العمر، فينشيها ويسليها عن مرارة ما ذاقته في أيّامها الخوالي.

مرغماً أجهز على طعامه المتبقّي فابتسمت له مكافئةً وناولته

قطعة النّقود التي وعدته بها ليلة أمس فضحك ملء وجنتيه المكسوّتين فجراً لانهائيّاً، عانقها ممتناً، فحملت حقيبته على الرغم من استمرار العناق الحار وانطلقت تحمله عبر الفناء حتّى وصلا الطرّيق الأسفلتي، نفر من حضنها كعصفور ليرفرف مهرولاً في الطّريق الناعم الملامسة والصّوت وكأنّ للطرقات أرواحٌ مثلنا ولسان حالها ينطق بما تكون عليه تماماً. ضجّت رحلتها الصّباحيّة بضحكات الصّغير المبتهج بقطعة النّقود التي كانت فحوى سرديّةٍ طويلةٍ عمّا سيفعله بها، حبل المصّاص الطّويل أم قطعة الرّاحة الكبيرة أم قطعة البسكويت المستديرة كقرص القمر.

وما أن وصلا إلى باب المدرسة حتّى نسي ديباجته بفحواها المملوء بالسّكر، ليرتمي بحضن أمّه كعادته قبل دخوله فسحة الباحة الكبيرة. قبّلته أمّه بكل حنوّها مشيرةً له بحركةٍ من رأسها ليدخل مسرعاً فامتثل لأمرها وركض أمامها ملوّحاً بيديه مرسلاً قبلاته لها عبر الهواء، وصلتها قبلاته تباعاً فدغدغت فيها بقايا نشوةٍ قديمة وقفلت عائدةً إلى طريقها المعتادة منذ سنين خلت. هذه الطّريق التي حفظت عن ظهر قلب نظراتها الشّاردة المرتشحة بالذّكريات، المتعلّقة على حبالٍ لأطياف أدارت ظهرها لربيع عمرها القصير.

الطّريق الواصلة بين بيتها وبين مصنع السجّاد حيث تعمل، كانت تشبه شريطاً سينمائيّاً لمحطّات حياتها المضطربة، طفولتها الخصبة، مروراً بأحلام الصّبا والحب، وانتهاءً بخيبات الزّواج وتضحياته وفي كلّ محطةٍ تترجّل منها بدمعةٍ، ثلاث دمعاتٍ لن تتشابه مطلقاً حتّى بنسبة الملوحة، الدّمعة الأخيرة هي الأشدّ إيلاماً وحرقةً على خدّها وقلبها.... ملامحها تغيّرت، حفر عليها

الحزن خطوط تجاعيد مبكّرةً على جبينها وحول عينيها ومحا ارتسامات الفرح من تقاسيمها، وما تبقّى من إرث شبابها كلّه هو ابتسامتها الراضية التي ذبلت فحسب وصارت من تدابير حياتها القاسية، هزيمة الحزن بابتسامةٍ والرّضا مقتلٌ للبؤس، هي تلبس ابتسامتها مضطرّة بعد أن ألقى زواجها على كتفيها أعباءً لا طاقة لأنثى بمفردها على حملها. مشت تلتقط بعينيها صوراً للرّبيع القادم، صوراً لطفولتها وأيّام زواجها الأولى ومشية أحمد الأولى أيضاً.

الغدير يثرثر مع الخضرة المسكوبة على جنبيه فتوقّفت قليلاً عنده لسماع حديث الأرواح المتآلفة ربيعاً وكينونةً ولكنّها عدلت عن ذلك بعد برهةٍ مخافة أن تتأخّر على عملها.

تذكّرت سعيد، من أسبغ على حياتها بأفضاله بادئ زواجها، ليسربلها بجفائه الحارق فيما بعد. لم تتوقّع منه الجدّ حين اشترط لبقاء حبّه أن تتخلّى عن زوجها وأولادها لتبقى عنده أختاً مصونة من العوز والخيانة، كان ذاك الشّرط شبيه مزاحٍ ثقيلٍ بعيد عن الجدّ والتطبيق، فكيف لأمّ مهما بلغت قسوتها أن تترك ولدين صغيرين في عهدة خائنٍ عابثٍ ؟!، لم تصدّق بأنّ من تكبّد مصاريفهم حولين كاملين حبّاً بها أن يقسو عليها، أن يحرمها من حنانه مهما بلغ حزمه وقراره.

تتململ دمعةٌ على جانبي هدبها وتنزل مسرعةً دونما إنذارٍ، دمعة من توقٍ وحزن، تمسحها مخاطبةً شبح سعيدٍ أمامها: سامحني يا أخي .... لم أقوَ على تركهم أبداً.

فيتبدّى لها خيال إبراهيم وراء شبح سعيد ينوي اغتياله فتشيح ناظريها نحو السّماء طالبةً النّجدة.... إبراهيم سبب

شقائها وأحزانها، سبب دموعها الباقيات، قشّةٌ قصمت ظهرها منذ عرفته، وتتساءل هل لظهرها المحني أن يستقيم يوماً بعد انحناءه تلك السنين؟!.

حدبةٌ تحسّ بها دريّة على ظهرها تجبرها على إسدال كتفيها قليلاً إلى الأمام، تذكّرها بماكينة السجّاد في المصنع، تتأوّه في سرّها قائلةً:

- هو زمن انحناءٍ بامتياز، سأحدودب كلياً ذا يوم لأتقوقع في شرنقةٍ وبعدها قد أطير عالياً.

يتراءى أمامها وجه حسن، فتورق روحها بعد يباس التّوق، وتشرئبّ أمانيها بعد انحناءه، وتعذب بسمتها وتفترّ بعد ذبول. هو مرآة أملها الباقي وجذوته المباركة

في المزار القريب من المصنع، تُحرق بخوراً يعطّر ما تعتّم من زواياها الحزينة وتنهي صلاتها بحبٍ وخشوعٍ ورجاء، وبرضىً تامٍ وتسليمٍ لله تدخل باب المصنع استعداداً لانحناءةٍ جديدة.

لم تكن وحدها من أحنتها الظّروف.... المصنع يكتظ بنسوة عاثرات الحظ أجبرتهنّ الحياة على العمل، أمرٌكان يعزّيها ويحزنها في آن، فليس من العزاء في شيء أن يصير الشّقاء أمراً شائعاً واعتيادياً.

جلست كلّ واحدةٍ منهنّ إلى نولٍ كبيرليبدأن نهاراً مليئاً بحكاياتٍ لا تنتهي فنادراً من أنهت حكايتها في اليوم نفسها فتبقى أحاديثهنّ معلّقةً بخيط حديثٍ قد لا ينتهي إلا بانتهاء آخر سجاد يصنعنه في يومٍ ما.

الحديث في موضع العناء مريحٌ يقصّ الوقت بحرفيّةٍ وينعش أوجاع الظهر، بعض الحكايات كانت تتخفّى بأثوابٍ مستعارةٍ

فتحكي إحداهنّ عن جارتها مثلاً وكلّ تعابيرها تنضح بما تقول فتعترف انفعالاتها بما لا تودّ الاعتراف به.... ربّما كيلا تنحني أكثر.

ينصرم النّهار متخماً بالثّرثرة مدججاً بالضّحكات لينتهي الدّوام تماماً عند الثالثة بعد الظّهر. فتقُطع الأحاديث على نيّة إكمالها لاحقاً ويحثّن خطاهن مسرعات لبيوتهن.

طريق العودة لا يشبه طريق دريّة الصّباحي المتّئد على الذّكريات. تطلق العنان لساقيها في العودة فالأولاد لوحدهم في البيت وقد ينفد صبر الأخوة على حسن الصّغير الذي لا يهدأ إلا بقدوم أمه إليه. حسن بوصلة الحياة عندها منذ جاء. وبارقة أملها الوحيد فبالرّغم من أمومتها التي لا تفرّق ابناً عن غيره إلا أنّ عاطفتها تجاهه في حالة توهّجٍ دائم لربّما كان احتياجاً متبادلاً بين طفلٍ يرى أمّه بعين الحياة وبين أمٍّ ترى الحياة بعين طفلها.... مجيء الصّغير لحضن الحياة كان قرارها وحدها بعد أن تنكّر له والده الذي كان سبب حملها به في ليلةٍ فقد بها عقله. شعرت بالذّنب تجاه قادمٍ يُحكم بالموت من دون ذنب. أتى ليلبّي نداء الله والحياة. فتحمّلت قرار أن تهبه الحياة التي قسمها الله له. حملت به تسعاً وولدته في ليلةٍ لم تنسها يوماً للآن.

وصلت فناء البيت. كان الباب مواربا قليلاً. يبدو أنّ الأولاد نسوا أن يوصدوه جيداً بعد وصولهم. دفعت الباب بتشوق مناديةً ابنها الأكبر وبوصولها باب الغرفة تُقتل كلماتها دهشةً واستغراباً. تسمّرت أمام الباب مذهولة الوجه جاحظة العينين. ثمة ضيفٌ في البيت. ضيفهم المعتاد بقدومه ورحيله المفاجئين.... زوجها إبراهيم.

حدقت في وجهه طويلاً قبل أن تتنبّه أنّها نسيت إلقاء التّحيّة

عليهم، فحيّتهم وجمعت ما لديها من لباقةٍ وسلّمت على زوجها مهنّئةً له بسلامته.

الأولاد جلسوا قرب بعضهم بشكلٍ مرتّب.... هم مستنفرون دونما ريبةٍ في ذلك، حتّى حسن لم يجلس قرب والده كما اعتاد في مرّات مسبقة، يبدو أنّ الصّفعة الأخيرة له من والده أبعدته مسافةً كبيرةً عنه ليلتصق بباقي إخوته.

ملامح مريم تشي بالتّساؤلات وبالتّململ.... لم يخفِ على والدتها كما على والدها أنّها لا تحب أباها وتمقت مجيئه، حالتها تُشابه حال خالتها أيام صباها وهذه الكراهية ستؤدي يوماً إلى عاقبةٍ وخيبةٍ إن لم تتداركها دريّة.

أحمد يحمل كتاباً مفتوحاً يقلّب صفحاته متظاهراً بالدّراسة كمن يريد انشغالاً بشيءٍ ما. جلست دريّة قبالتهم تفكر بما يوجّب إليها قوله لأولادها النّاقمين على أبيهم كحالها، لقمةٌ فجّةٌ عالقةٌ في حلقها عصيّةٌ على البلع، هل ستلتمس لإبراهيم عفواً آخر لتجمّله في عين أولادها؟!، هل سيبقى مقالها مؤطّراً بما يجوز وبما لا يجوز؟،هل ستنادي أمامهم باحترامٍ لأبٍ غائبٍ عابثٍ مهملٍ وهم من يكبرون ويرون في آباء أقرانهم ما لم يألفوه في أبيهم يوماً، أبٌ شحيح الحبّ، فظُّ القلب، فقير اللهفة، متسوّلٌ على أعتاب من يظنّهم أصحاب القيمة والشّأن.

ابتدأت دريّة حديثاً لتكسر الصّمت المخيّم على المكان: هل مرّ على وصولك زمنٌ طويلٌ.... ألست جائعاً

- نعم إنّي لجائعٌ .... أنا هنا منذ العاشرة صباحاً، وصلت مرهقاً فنمت فور وصولي وعندما أفقت لم تفطن مريم أن تسأل أباها إن كان جائعاً أم لا؟

- مريم صغيرة، ولم تعتد أعمال البيت للآن. أجابته دريّة قاطعها ضاحكاً: كنتِ في عمرها تقريباً وقت تزوّجنا.

وقبل أن يكمل حديثه المتهكّم، انتفضت مريم واقفةً من دون أن تلتفت لأمّها قائلةً له:

- أمي تزوّجت في عمري فأنهت حياتها مبكّراً، أنا لست مثلها ولن أكون تحت نقمة أحد، يضربني متى يشاء، ويهجرني حين يريد، ويبخل عليّ بحياةٍ كريمةٍ تغنيني عن الحاجة، لن أصير خادمةً لأحد حتّى لك.

تنهي مقالتها لتهرب بعدها صوب غرفتهم المشتركة العابقة برائحة العفن. حديثها ذر الرّماد في الجوّ كلّه فصار خانقاً جدّاً وقبل أن يكيل لها والدها سيلاً من الشّتائم بادرته دريّة بالقول:

- بالله عليك يا إبراهيم.... لا تبدأ بذات المقامة مثل كلّ مرّة، دع الأولاد ينسون فعلك في زيارتك الأخيرة فإن تناسيت ضربك لي برغبتي فالأولاد لم ينسوا بعد، ألا يكفيك ابتعاد حسن عنك مخافة صفعةٍ أخرى؟! سأجهّز الغداء للجميع.

ونهضت بحماسة إلى المطبخ ولسان قلبها يلهج بدعاءٍ يتيمٍ، ألا يطول بقاء زوجها في البيت وأن يعود أدراجه في أقرب وقت.

السّنة الدّراسيّة على وشك الانتهاء، وامتحانات مريم العّامة ليست ببعيدة ويكفيها ما بها من التّوتروالخوف.

كانت مريم جالسةً في الغرفة تنظر من النّافذة المفتوحة على غير رؤيةٍ، دونما تأمّل، ساهية في عصفورٍ يزقزق على فنن قريب، بينما الضّياء يلفح وجهها الشّاحب المثقل بحب الشّباب.... نسمة ربيعٍ باردة قليلاً أجفلت جلدها وقلبها فقطعت شرودها لاإرادياً، نقّلت بصرها بين أثاث الغرفة القديم وجدرانه المزدانة

بلوحات الرّطوبة ليستقرّ أخيراً على مرآتها القبيحة كما تدعوها الفتاة. أمسكت المرآة على مضض وقرّبتها منها لتطالع فيها وجهاً تمقته، وجه الدّمامل الذي يجعلها محطّ سخريةٍ بين أصدقائها في المدرسة، وجهٌ ليس كبقية الوجوه التي منّت عليها الأقدار بصفحاتٍ ملساء رخاميةٍ ومرايا جميلة. منذ أن أزهر ربيعها ومرآتها تعكس وشوم القبح على صفحتها. تلمسها حيناً لتتأكّد من أنّها ليست وجهاً مستعاراً لإحدى الجنّيات في حكايا أمّها القديمة، وطوراً برجاءٍ أبديٍ لاختفائها لتذوي بعد رجاءها كشمعة بكاءٍ حارقةٍ.

تناديها أمّها لتنضمّ إليهم لطعام الغداء فتضع مرآتها جانباً وتمضي بهدوءٍ بعد وأدت غضبها كدبّوسٍ في هشاش روحها. من دون أن تنظر في وجه أبيها. انضمّت إليهم حول الطّبق. أبوها من لم يرحّب بقدومها إلى هذا العالم. يوم ولادتها كان يوم فضيحته التي ذاعت في البلدة كلّها. ذاك اليوم الذي قطع أيّة علاقةٍ له بعائلة أمّها وخالها الذي لم يعد صديقه بعد تلك الواقعة. اعتبر ولادتها نذير شؤم فحمّلها كراهيةً لماضٍ لا ذنب لها به.

طوت الفتاة سنين طفولتها آثمةً مذنبةً في عيني والدها. فكان لها النّصيب الأكبر من الضّرب والتّقريع. حتّى أنها هربت يوماً عندما عاد من سفره لدار جدّها أبا زيد من دون أن تُخبر أحداً فاضطرّت أمّها للبحث عنها طويلاً قبل أن تستدلّ على طريقها. لم تستطع الجدّة إخبار دريّة بقدوم الصّغيرة وقتها لمرضٍ ألزمها الفراش وقتاً بعد وفاة زوجها بفترةٍ وجيزةٍ. لم يتكلّف عناء البحث عنها أو سأل نفسه لم تهرب ابنته من لقياه وهو الغائب منذ زمنٍ، بل اتّخذ دوره كأبٍ يفترض به معاقبة من يسيء التّصرف. نزعها

من ذراعي أمّها وضربها بلا رحمة، لتقضي البنت ليلها تلملم بقيّة شهقاتها المبحوحة الشّاردة في الهواء، متورّمة العينين، ذابلة المحيّا، تجبر أجفانها على نومٍ قسريٍ لتنهي أحداث يومها المريع.... وتشاء الأقدار بأن تعاقبها الحياة بأكثر من أبيها، بدمامل حمراء تغطّي أغلب مساحة وجهها الأبيض لتبدو كنقوشٍ ملتهبةٍ فوق ورقٍ جافٍ غض.

لكنّ أحداً لم ينتبه إلى تلك الدّمامل التي بدأت بالنّمو في روحها القلقة، فكلّما عيّرها والدها أو أحد زملائها في الصّف بقبحها ودمامتها، أحسّت أن قرحةً لعينةً تنبت في داخلها، تنزّ حرقةً كلما رأت وجهها في مرآة القبح.

أنهت طعامها بهدوءٍ حذرٍ، كان طعاماً صامتاً شهياً على قلّة أصنافه، تنقصه فقط حرارةُ تشوق مفترضةٍ لأبيهم العائد بعد غياب طويل.

نهضت من فورها صوب الغرفة تفادياً لسماع حديثٍ قد يستفزّ ما دفنته عميقاً في داخلها، رمقتها أمّها بنظرةٍ رؤوف، صمتها يعرّي ألمها أمام أمّها التي تعلم ما تكابد هذه الصّغيرة.

رفعت دريّة الطّبق عن الطّاولة الوطيئة بينما انكفأ إبراهيم على تهذيب لفافة التّبغ العربي الذي اعتاده مؤخّراً، كان يجد في تحضير اللفافة سعادةً لا توصف، يفرد التّبغ بتأنٍّ على ورقةٍ بيضاء ناعمة الملمس ويفتّلها بيديه ما طاب له من وقت ، ليلمّها من أحد الأطراف بعد أن يبلل طرفاً منها بلعقة اشتياق ليكمل إلصاقها ببعضٍ فيعمد إلى إشعالها سريعاً، تركته دريّة برفاهيّة شغفه ذاك، وانشغلت بجلي الصّحون الفارغة تماماً من أيّ طعام ٍمتبقٍ، جلي الأطباق مساحة بوحٍ يوميّةٍ عند دريّة، تنزوي فيها

لنفسها، تخلو مع روحها لتحدّثها بما ضاقت بها، فتبدأ بإبراهيم.

إبراهيم الذي انقلب بعد ولادة مريم، التي بدأت تكبر في ظل كره الإحساس بمحبّة أبيها، لا ذنب لها سوى أنّها ولدت في يوم الفضيحة، فضيحة زوجها التي ضجّت بها القرية آنذاك، قلّبت ذكرياتها سريعاً، أخيها سعيد من قدم بعد ولادتها فوراً لأخذها إلى بيت أهلها مع ولديها ليقصّ عليها مأساة وخذلان حياتها ويعرض عليها حلّه النّهائي بطلاقها من زوجها وترك ولديها في عهدته ليقاسي جرّاء ما اقترفته يداه، زوجها الذي عاد من سفره يوم أكملت مريم تمام شهرها الثّاني، معاهداً إياها على عدم تكرار فعلته الشّنيعة وأن يعود زوجاً محبّاً وفياً لها ولأولادها، حاولت تصديقه من أجل ولدين لا ذنب لهما في الحياة سوى أنّهما من نسل إبراهيم ومن غير المحقّ والصائب أن تُترك رضيعةٌ وولد صغير في كنف جدّيهما الطّاعنين في السّن، هما عزاؤها الوحيد في حياتها المهيضة الأحلام، المشبعة بالقهر فاختارت التّظاهر بالتّصديق لتعود مع ولديها إلى منزلها ليؤنسا وحدة وانكسار روحها وليعوّضاها عن حرمان وجفاف القلب والنّبض.

كلمات أبيها الحارقة حين غادرت منزله بصحبة زوجها وولديها من حكمت عليها بمقصلة الهجر والفراق، كان اختياراً قسرياً تفرضه أمومتها عليها، أنكره عليها أبوها ورماها بتهمة الخزي الذي لا يليق بوضعهم ومكانتهم كعائلة.

قطيعةُ قلبٍ وروح، تزيدها اضرام نار الخيانة، لتستحيل دريّة بعدها لمشروع كائن حيّ عنوةً.

علينا اختيار الصّائب دوماً حين يتعلّق الأمر بمن نحب مهما بلغ مقدار الألم النّاجم عنه ولو كان على حساب القلب وجراحاته

العصيّة الالتئام، إبراهيم كان حديث البلدة بأكملها، سابقةٌ لم يشهد مثلها مجتمعٌ ريفيٌ محافظ، غدا في نظرهم متسكعا سكّيراً غير جديرٍ بالاحترام، وغدت في نظر نفسها أقبح النّساء وأشنعهم فهي الأولى بين نساء البلدة التي يُقدم زوجها على خيانتها ولو سرّاً، ولكم تجنّبت الخروج من بيتها بعد عودتها وولديها إليه كي لا تجلدها نظرات النّاس المشفقة حيناً والهازئة حيناً آخر، كانت تُشيح وجهها عنهم تغضّ فكرها طواعيةً كي لا تسمع نداء الحقيقة في وجوه النّاس واكتفت بنداء الأمومة الذي يستصرخ ما بقي حياً في الرّوح التي هشّمها إبراهيم بأنانيّته وإهماله .

حملها بحسن هو الحدث الأكبر الذي واجهته بمفردها بعد تلك المأساة فأبوه المتنكّر لصفته الأبويّة والزوجيّة جابه قدومه بالرّفض والتّنصل من فمٍ جديدٍ يُضاف إلى الأفواه الواجب عليه إشباع جوعها، حزنها على مريم الصّغيرة دفعها للتّمسك به ومعاهدة الحياة على نزالٍ شريفٍ تستحق في نهايته وسام عيشٍ كريم.

تنهي جليها للصّحون بدمعةٍ تسللت خفيةً من مآقيها فأجبرت عينها على بلعها عنوةً جاءها صوت حسن باكياً من الغرفة المتجاورة فاتّجهت نحو مصدر الصّوت، هو الشّجار المعتاد بين مريم وحسن كلّما اجتمعا سوياً في غرفةٍ واحدة ولكن هذه المرّة بوجود ابنها أحمد فخاطبته غاضبةً: أحمد .... لمَ لم تنه شجارهما يا بني؟

- لقد تعوّدت على صراخهما، فلو صادف وجودهما هادئين معاً لبلغني العجب.

هرع الصبيّ نحوها فاتحاً ذراعيه ليعانق أعلى ساقيها بحفاوة

بينما بقيت مريم واجمةً مكانها تُمسك بيدها كتاباً مقلوباً.

- اهدئي يا مريم فأخوك صغيرولا يُقاس عقله بعقلك.

- نعم يا أمّي، أريد الهدوء فحسب فيقلقني بفوضاه.

طوّقت الصبيّ المتشبّث بثوبها الطّويل: سآخذه معي وأنتما عليكما بالدّراسة والهدوء أيضاً

- هل سيبقى هنا طويلاً يا أمّي؟ يخاطب أحمد أمّه بلهجةٍ فاترة

- لا أدري يا بني.... لعل زيارته قصيرة

- هل سيعطيك نقوداً هذه المرّة أم أنه سيقترض منك مصروف عودته؟

هزّت رأسها حائرةً معقودة اللسان فأسئلة الشّاب مشروعةٌ صعبة الإجابة، وسلوك أبيهم لا يخفى عليهم فعسى أن تمرّ أيامه بينهم بسلامٍ فحسب.

ظلّ الصّغير ممسكاً بطرف ثوب أمّه أثناء مرورهما في الغرفة العابقة برائحة التّبغ الكثيف، تثير دهشته الغمامة الهائلة السّابحة في دفء الغرفة. فلمعت عيناه دهشةً وإعجاباً، أجلسته أمّه حرجها متأمّلةً بحسرةٍ في وجه زوجها الموشّى بالدّخان، يجهّز للفافته الثّانية على أقل تقدير

سألته برويّة: هل إجازتك طويلةٌ هذه المرّة؟

- أصبحت لا تطيقين بقائي كأولادك يا دريّة؟!

- لا أخفيك .... منذ زمنٍ بعيدٍ لم أعد أكترث لوجودك أو لغيابك، بالأصح أغلقت باب أيّ شعورٍ تجاهك منذ أوّل مرّةٍ فتحت فيها باباً أزرقاً في الغربة.

يقاطعها إبراهيم بحدّةٍ:

- كم مرّةً قلت لك أنّ الأمر حصل مرّةً واحدةً فقط، زوبعة

طيشٍ وانتهت ولم تتكرر، ولكنّك تصرّين على تكذيبي وهذا يشقّ عليّ كثيراً.

- لا داع لسرد الماضي .... لا داع لتكرار الأسئلة التي تنتهي دوماً من دون إجابة ٍمقنعةٍ.... لقد كنت زوجةً وفيّةً محبّةً لا تستحقّ الخيانة ولو لمرّةٍ واحدةٍ

يسكت إبراهيم متظاهراً بتململه واستنكاره من كلام دريّة، بعض الأشخاص يتسلّحون بالغضب لإنقاذ أنفسهم من بطش أسئلةٍ محقّةٍ أو أوجه صادقةٍ.

هو يعلم في قرارة نفسه بأنّ دريّة لا تستحقّ خيانته لها، وفيّةٌ للحدّ الذي لا يطيقه ضميره إن استفاق يوماً، ولذلك هو دائم السّبات في غيبوبة لذّته تلك، بين الخمر وبنات الليل، هو يعتبرها قشّة النّجاة، الشيء الحقيقي الوحيد خارج غيبوبة اللذة تلك. يسود الصّمت لبرهةٍ بقي فيها الصّغير قابعاً في حرج أمّه، فتطلب منه أن يُحضر دفاتره لتساعده في تحضير دروسه، لتنتهز فرصة انصراف الصّبي لتسأله أكثر الأسئلة إحراجاً لإبراهيم:

- هل ستترك لنا بعض النّقود يا إبراهيم هذه المرّة؟! مريم لديها امتحاناتها العّامة هذه السّنة ولا تخرج من البيت إلا مرغمةً خجلةً من ملابسها البالية، أريدها أن تتقدّم لامتحانها بهندامٍ جديدٍ لعلّ ذلك يُحسّن نفسها المتوتّرة دوماً

- هناك مالٌ إضافيٌ هذه المرّة فلا تخافي

فتجيبه بتهكم: إضافي؟! هل بات التزامك تجاه أولادك أمراً إضافياً.... أتراني أتسوّلك يا إبراهيم؟!

فيجيب ساخراً بضحكةٍ ماكرةٍ لم تعهدها من قبل: جدّك الأكبر كان متسوّلاً لربّما وصلك عبر الجينات الوراثيّة

- أختي من كرام هذه البلدة ورزقها الله من واسع عطائه ولم يطلبوا يوماً صدقةً من أحد، أما زلت تذكر سعيد؟ حين تحمل مصروفنا سنتين كاملتين وأنت تلهو عابثاً في غربتك؟!

- أليس سعيد نفسه من قاطعك وأخوتك لأنّك عدتِ إلي.... أليست أختك ذاتها من تبرّأت منك أمام النّاس لأنّك تخدمين في قصر الباشا توفيق.... وما زلت تمدحين بهم؟!

- أهذا جزائي لأنّي عدت لك ولأولادك يا إبراهيم.... هل كنت قادراً على تربيتهم لوحدك.... أو قادراً على نسيان نفسك وأنانيتك لأجلهم؟!

- أنت امرأة نكديّه، كنت سأتزوّج أخرى تعرف كيف تُسعد زوجها وتمنعه من السّفر.

وهنا يدخل حسن باسماً ومعه حقيبته فيرميها أمام أمّه وفي فمه مصّاصةٌ ملوّنةٌ وقبل أن تسأله عن سرّ مصّاصته يخبرها بفرحٍ بأنّها من مريم، فتقترب منه هامسةً في أذنه: مريم تحبّك يا حسن، هي خائفةٌ من الامتحان لا أكثر

«وأنا أحبّها» يردّ الصّغير بعفويّةٍ بريئة لتبدد كلمته ما تراكم من ضباب العتب في الغرفة.

مرّ يوم إبراهيم الأوّل بسلامٍ، لم يرأولادة إلا حول طبق الطّعام ولم يخرج لسهراته على غير المألوف بل تقصّد أن يلاعب الصّغير بأوراق لعبٍ قديمةٍ مساءً كمحاولةٍ منه لإرضاء قلب الصّبي بعد صفعته الأخيرة له.

صباحاً تركوه نائماً وانصرفوا بعد فطورهم كلٌّ إلى وجهته، أحمد ومريم باتّجاه الباص الذي يقلّهم إلى ثانويّة المدينة، ودريّة والصّبي لطريقهما المعتاد. نبّهتهم دريّة طوال الطّريق بالتزام

الصّمت أمام أبيهم مهما بدر منه قولٌ أو فعل ؛وشددت قولها وخصوصا إلى مريم وبشّرتها بهندامٍ جديد قبل الامتحان. ودّعتهما قبل صعودهما للباص لتكمل مسيرها مع حسن الصّغير.

تنهّد أحمد مخاطباً أخته بعد جلوسهم على المقعد:

- لعلّ أباك عاد بنقودٍ هذه المرّة ولهذا تطلب منّا درية بعض الرّزن أمامه.

فتجيبه مريم عكس ما توقّع

- أباكِ! .... هه أليس أباك أيضاً يا أحمد؟!

- يبدو انّكِ اليوم بمزاجٍ جيّدٍ يا مريم. قالها بابتسامةٍ خفيفة

- أنا لم أحمل كلام والدتي على محمل الجد، في كل مرّةٍ يُقرضها وعداً ويستردّه منها نقوداً ليعود، لم ولن أصدّق أنّه سيترك لنا مالاً، منذ زمنٍ لم أعد أصدّق الفرح، لقد تحجّر قلبي فلم يعد يلهث وراء تلويحه من بعيد، الفرح زائرٌكاذبٌ مخادعٌ يزور الجميع إلا نحن حتّى في العيد.... أتُرانا بلا عنوانٍ يا أخي؟!

قالتها والدّمعة تترقرق ساخنةً في عينيها. أطرق أحمد برأسه أسىً على أخته التي ظنّ أنها تطيرعلى كفّ الفرح بعد بشارتها تلك، لقد نسي بأنّ أعيادهم كلّها مرّت بوعودٍ زائفةٍ وتهندمت بلباسٍ مستعملٍ من عند أحفاد الباشا توفيق حيث كانت أمّهم تعمل لإعالتهم وبعد عملها بمصنع السجّاد لم تستطع شراء ملابس جديدةٍ لهم باستثناء بدلات المدرسة ولأجلها تضطر للاشتراك بجمعياتٍ مع بقيّة النّسوة في المصنع بداية العام الدّراسي لتُخنق لاحقاً بقية العام بسداد أقساط هذه الجمعيّات.... أتراهم سيكبرون بأحلامٍ مستعملةٍ مثل ثيابهم؟

أم أنّه من حسن حظّ الفقراء أن الأحلام لا تباع في الأسواق

المقبيّة أيضاً.

ذات الدمامل

الثّانويّة تكتظّ بالطّلاب، ثانويّةٌ مختلطةٌ ضخمةٌ من ثلاثة طوابق وهي أكبر الثّانويات في المدينة ولها تاريخٌ عريقٌ في التعليم وفيها درس معظم الأطبّاء والصّيادلة والمهندسين من أبنائها وهذا ما جعلها مطمح الكثيرين من الأهالي لإرسال أولادهم إليها من المدينة أو من البلدات والقرى الرّيفية المحيطة.

أحمد لا يفارق أخته طول الطّريق حتّى وصلا لباب المدرسة فيفترقان تلقائيّاً، لينضمّ لرفاقه الشّباب بينما تنزوي مريم وحدها كطيفٍ يسند إلى جدار الباحة متعللةً بقراءتها لأحد الكتب لتتجاهل بعض النّظرات الجارحة لروحها كالسّكاكين الحادّة.

وجهها هذا الذي زاد طين ألمها بلّةً في دروب أيامها المفروشة فقراً في ظلٍ أب زائغ، فجاء وجهها الموشوم ليبعدها عن صحبة عمرٍ غضٍّ ويقذفها كورقةٍ جافّةٍ في ربيعٍ مزهرٍ جانب حائطٍ جاف.

مريم جائعة حلم، بيد أنّ أكبر أحلامها لا يتعدّى وجهاً أملساً ناعماً كزميلاتها، كانت تسترق النظّر بين الفينة والأخرى في وجوه الفتيات وهنّ يثرثرن ويضحكن فتتشردق بغصّةٍ قاتلةٍ، إنّهنّ جميلاتٌ حتّى أقبحهنّ تفوقها جمالاً.... هي وحدها من حُقّ عليها لعنة الدّمامل.

مرّت من جانبها زبيدة أجمل فتيات الصّف، رمقتها بنظرةٍ وادعةٍ فانشغلت بقراءةٍ مزيّفةٍ لتتحاشى نظراتها، هي لا تطيق أن تتحسس الجمال من قرب أو ربّما قد لا تتحمّله.... يرنّ جرس

الاجتماع الصّباحي فتغلق كتابها مسرعةً وهي تبوح بسرّها بأنّها لو امتلكت وجها جميلاً كزبيدة في يومٍ ما لأحبّت الفقر ولتقبّلت أبيها السّكير كانت جميع الأمور ستكون بخير.... كلّ الحياة ستكون بخير.

كان ارتكاس أحمد لواقعه المرير أكثر اتزاناً من أخته في الأقل ظاهرياً، لم ينزوِ لصق الجدار بل انخرط بين الطّلاب متغافلاً عن كلّ ما قد يسمعه من تعليقاتٍ لفقره وقدم لباسه أو لسمعة أبيه السّيئة، بذلته لا تزال جديدة، اشترتها أمّه له في العام المنصرم بعد نجاحه في الشّهادة الإعداديّة بمجموعٍ جيّد ولاستحالة استمراره بارتداء البدلة القديمة التي أمضى فيها سنين الإعداديّة كلّها.

في مقتبل العمر أجسادنا لا تأتمر لمقاسات الثياب، اندفاع جذوة الحياة فيها تهزأ بها ضيقاً أو قصراً، تمنى أحمد يوماً أن يوقف طوله بسبب بدلته السّابقة التي تنكمش يوماً بعد يوم فلم تواته الأماني كما يشاء بل عاندته الطّبيعة فشبّ طولاً مطرداً. ومستسلماً لواقع الحياة التي لا يملك فيها زمام طوله، صم أذنيه واكتفى بأن يجاري ضحكات أصدقائه مازحاً على بذلةٍ لا تغطّي الشّبر الأخير من ساقيه.

قال لأمّه حين اشترت له بذلته الجديدة أن تشتريها أكثر طولاً منه لتعمد إلى تطويلها كلّما احتاج الأمر وباغته طوله بزيادةٍ متوّقعةٍ، أُعجبت دريّة بنباهته وقدرته على التّعاطي بإيجابيّة مع ظروف الفقر الصّعبة فيجد لها حلولاً مناسبةً تتماشى وضعه.

كان أكثر ما يزعجه حين يرشقه بعض الطّلاب من منطقته بعبارات تُلمّح إلى أبيه السّكير خصوصا عندما يحصّل درجةً أعلى منهم في صفّه، هذه الدّرجة التي لابدّ له من المحافظة عليها ليكون

قادراً على مسح ماضيه، وأحمد كان لديه من الإصرار ما يؤهّله ليخُطّ سير حياته بعلمه ويزيل عنها آثار أبيه الذّائعة الصّيت

« ليس بيد الفقير حيلةٌ إلا تعليمه» هي مقولة أمّه الشّهيرة لهم، والتي أصبح مؤمناً بها كإيمانه بأن الفقر لا يعتدي على أحد، فالفقر وإن لم يكن عيباً إلا أنه ليس متناقلاً بالجينات الوراثيّة بل إن سقوطه واجبُ حكماً بالتّقادم.

حسن الصّغير كان أقلّهم حسّاً وإدراكاً لفقرهم، ففي صفّه الأوّل في المدرسة الابتدائيّة، لم يتعرّف أصدقاؤه إلى فقره بعد، فملابسه كانت جديدةً كلياً، وللأطفال عالمهم البريء البعيد عن سمعة آبائهم وعائلاتهم.

نهاية الصّيف الفائت تكرّم أبوه بمبلغٍ من النقود احتفظت به دريّة لبداية العام الدّراسي فاشترت لهم بذلاً جديدةً.... بنطال مريم القديم الممزّق لم يترك أمامها حيلةً سوى شراء بذلةٍ جديدةٍ لها، ذا مساء وإثر نزٍّ صارخٍ لدماملها الخفيّة عمدت إلى تمزيق بنطال البذلة المدرسيّة حين علمت من أمّها مصادفة بأنّ عليها ارتداؤها طيلة دراستها الإعداديّة، كان المقص حلّها الوحيد أمام ظلمٍ سيحيق بما تبقّى من جسدها فكيف ستخفي جسدها بأكمله وهي تكابد العذاب في إخفاء وجهها بين طيتي كتابٍ مفتوح.

اليسير المتبقّي من رفاهية إبراهيم لم يكن كافياً لكفافهم من مأكلٍ ومشرب ما اضطرها للعمل لتحمّل تبعات قرارها بالعودة لزوجها المهمل العابث فوجدت نفسها أمام قصر الباشا توفيق فعملت عنده بنفس اليوم الذي التحق فيه أحمد بمدرسته الابتدائيّة لينضمّ عصراً لأخته مريم التي كانت تقضي يومها عند جدّيها لحين عودة أمّها عصراً من عملها في القصر، وما إن كبرت

مريم والتحقت بأخيها في المدرسة حتّى صارا يعودان معا إلى البيت وينهمكان في تحضير الدّروس لوقت رجوع أمّهما من القصر، قصر الباشا توفيق ألبسهم يوماً ألبسةً مستوردةً، ألبسة أحفاده يأتي بعضها من البلد لبنان المنفتح على عالم الموضة والأزياء وعندما يشبّ الأطفال وتصغر ملابسهم عليهم توزّع بين من يعمل في القصر كلّ بحسب ما لديه من أولاد، وفي العيد كان الباشا يدفع لمن يعمل عنده أجراً إضافياً كإكراميّةٍ ليشتروا لأولادهم ما يلزمهم من ثياب للعيد، دريّة اعتادت أن تخبّئ النّقود إمّا لشراء المؤونة أو الوقود أو لتشتري أثاثاً جديداً للمنزل.

مرةً اشترت لهم تلفزيونا بالأبيض والأسود تجمهروا قبالة الشاشة دهشين يحملقون في المذيعة التي تنطق باللغة العربية الفصيحة لا يفقهها الصّغيران بعد، فيضحكان ويرقصان على أيّ لحن عابر على الشّاشة الصّغيرة، كان كصندوق الفرجة يلهي الأطفال عن أمّهم قليلاً لحين انتهائها من ترتيب البيت وتنظيفه بعد عودتها من عملها المتعب.

منذ مدّة لم تخطر أختها على بالها، فاعترتها الغرابة والتّساؤل في طريق عودتها من المصنع بخطىً حثيثةٍ خشية شجارٍ محتمل بين زوجها وأحد الأولاد وخصوصا مريم، في لجّة انبهارها تتساءل: لمَ تذّكرتها اليوم ؟!

ألانّها تحدّثت اليوم مع إحدى زميلاتها عن قصر الباشا توفيق، ذاك القصر الذي أغدق عليها من الخير الكثير، كان قصراً مغرقا في الأبّهة والفخامة فالباشا من سلالة الإقطاعيين القدامى ممن اشتروا الأراضي الواسعة بعد قانون الإصلاح الزراعي وبنى له قصراً في أرضه ليعيش فيه مع ابنيه وأحفادهما، كان قصراً منيفا

في قريةٍ متلاصقةٍ لبلدة دريّة فلم تخجل يوماً من عملها فيه وترى فيه كفافاً واستغناءً عن طرق الأبواب لتسوّل لقمة العيش.

تهاني أختها التي غابت سنيناً لتعود ذات يومٍ بثروةٍ طائلةٍ وتشيّد قصراً في قريتها يضاهي قصر الباشا فخامةً وعمراناً.... تاريخها حديث العهد كحداثة نعمتها، ومن وضعت أوّل اهتماماتها أن تصير سيدةً بمجتمع الأثرياء القلائل في تلك المنطقة، كان عليها حين جاء من يخبرها بأنّ لديها أختاً تعمل في خدمة الباشا توفيق أن تجد حلاً أمام هذا العائق الحتمي لتكون «ستاً» يُشار لها بالبنان.

أختها التي لم تتذكرها يوماً وأنفت من زيارتها حين عادت أهلها زائرةً بعد عودتها من السّفر، فمن المؤكّد بأنّ إحدى زوجات إخوتها أخبرتها بقصّتها مع إبراهيم وكيف قاطعها أهلها عقاباً إجبارياً لاختيارها البقاء مع طفلين صغيرين لأبٍ جائر.

شريط حياتها السّينمائي تحتلّه أختها المتنصّلة من كينونتها كأخت، ذاك اليوم وعندما انصرفت من قصر الباشا توفيق باتجاه ساحة القرية انعطفت يميناً لتسلك دربها اليومي إلى بلدتها، فاجأها أحد الشبّان بحديث مفاده أن أختها تريد التحدّث إليها وأنّها أرسلته ليعود بها إلى منزلها في القرية ذاتها، اختارت من الاحتمالات التي انقضّت على ذهنها متزاحمةً للتأويل والتعليل الاحتمال الأحب إليها وهو الشوق فلعلّ أختها تخفي توقها في صدرها مداراةً لأهلها وذويها وقد فاض الحنين فأردى خوفها مسجىً على عتبات وريدها النازف حباً، هكذا أملت دريّة وهي تمشي برفقة ذلك الشّاب حتّى وصلا لباب القصر المنيف الذي تقطنه أختها، فتحت خادمة آسيوية الباب، ترتدي زياً إفرنجياً،

رمقتهما بنظرةٍ سريعةٍ وانصرفت من فورها لبعض شأنها.

الجوّ باردٌ في الصّالون الواسع المتخم باللوحات والثّريّات الضخمة، انتابها شعورٌ بأنّ العناق لن يكون حاراً كما تمنّت ولكنّها أمسكت بناصية أملها واستصرخت في روحها كلّ الذّكريات التي جمعتهما سويةً. صوتٌ رفيعٌ قادمٌ من بعيدٍ يهبط السّلم المصقول رويداً رويداً، رائحة العطر تسبق صاحبتها، تلتفت دريّة لتصافح نواظرها تهاني بثوبها الأنيق الطّويل المطّرز بخيوطٍ مذهّبةٍ على صدره وأكمامه، قسمات وجهها ثابتةٌ على الرغم من السّنين وعيناها تلمعان بحدّةٍ توشي بالقسوة.

قبالة غمامة عطرها وقفت دريّة يلسعها حنينٌ قديم، فرمت نفسها في حضنها لتهدّئ لواعج التّوق المستنفرة وهمست لها: أختي.... لكم اشتقت إليك.

عناقٌ لم يتعدّ دمعتين ساخنتين في عيني دريّة، أنهته يدان باردتان أبعدتاها عن لجّة الحنان القصير ذاك، شردت في وجهها مليّاً، كان مصقولاً كالرّخام، فأحسّت بأنّها عانقت تمثالاً فاقد الحس ناقص القلب والذّاكرة.

عاودت الاحتمالات تعيث فساداً في رأسها فحجّرت الدّمعة الثّالثة في مآقيها

- الحمد لله على سلامتك يا أختي. قالتها بصوتٍ متهدّلٍ لتزيح ستائر الغموض عن لقائهما البارد فأجابتها على الفور:

- سلّمك الله يا دريّة .... كيف تسير حياتك، عساك بخير؟

أشارت إليها بالجلوس، فجلست قبالتها على أريكةٍ فخمةٍ وبصوتها الجاف وملامحها المتلبّدة بالجفاء، بدأت سردها لمجريات سنين غربتها على الطرف الآخر من الكرة الأرضيّة حيث

تنقلب فصولهم وشهورهم، وأنّهم عادوا بثروةٍ طائلةٍ كافيةٍ لشراء أراضي كثيرة وتاريخٍ جديدٍ بألقاب فخمة تليق بحقبتهم الحاليّة، لقد صارزوجها صنواً لكبارالباشوات هنا ولاسيما الباشا توفيق.

بلحظةٍ ما خُيّل لدريّة أنها أمام حرباء بدّلت لونها للتّو، فوفّرت على نفسها عناء سردها لقصّتها مع إبراهيم، فمن الواضح أن العائدة مما وراء البحر تؤجّل بقيّة الحديث بناءً على ما سمعته بخصوص حياتها مع زوجها، وصدق حدسها كعادته حين استطردت تهاني قائلةً:

- قدرك أن تتزوجي من ذاك العربيد.... لم يكن لزاماً عليك أن تبقي تحت رحمته طيلة عمرك. قالتها بأسلوب ناصحٍ تأخّر مجيئه قرناً.

فتجيبها دريّة بكل هدوءٍ:

- كلٌّ ينظر للأمر من حيثه، فكفّوا عن ملامتي جميعاً، ما اخترت العذاب لحبّي له، ولكنّي لن أترك أطفالي يواجهون العذاب بمفردهم مع أبٍ كهذا، ما من أمّ ترمي أطفالها لأيّ سببٍ كان حتّى لوكان على شاكلة ما أقاسيه.

تمطّت ابتسامةٌ خبيثةٌ على شفاه تهاني لتسألها ما أرادت إيصاله لها منذ قدومها ولربّما كان سبب الحوار الحقيقي الذي تكلّم عنه ذاك الشّاب الذي أرسلته تهاني وراءها:

- وهل بإرادتنا نصيرخدماً عند الباشا توفيق؟!

احمرّت عينا دريّة لسؤالٍ استفزّ قهرها وأدمى خافقها فأجابت بحدّةٍ:

- عندما أكون وحيدةً من دون أهلٍ أوزوجٍ أوشهادةٍ وفي عنقي طفلان جائعان سأصيرأي شيءٍ شريطة أن يحفظ شرفي.

تنفجر تهاني ضاحكةً بقهقهةٍ انشطاريّةٍ طويلةٍ أقلقت برودة المكان لتنهيها قائلةً:

- وكرامتك! هل نسيتها؟! أم أن لديك مورّثاتٌ من جدّنا الأكبر زعيم المتسوّلين.

نهضت دريّة غاضبةً من مكانها، وهمّت بالانصراف فما عاد بوسعها احتمال سخريةٍ علنيّةٍ ممن تخالها للآن أختاً لها. مسكتها تهاني من ذراعها بقوّةٍ وهي تقول:

- لم ننه حديثنا بعد يا دريّة.... بالأحرى لم يبدأ بعد

- لا حديث بيننا يا سيّدة تهاني

- كوني الآن سيّدةٌ هو واقعٌ لن يتغيّر بمطلق الأحوال ولكن لا يُفترض أن يكون للسيدّة أختاً تخدم عند أحدهم

- أتريدين أختك أن تخدم عندك إذاً؟!

- لا.... أريدك أن تتركي قصر الباشا توفيق ريثما أجد لك عملاً يعيلك وأولادك

- مثل ماذا أيتها السيّدة؟

- لا أعلم للآن، ولكن يحتّم عليك ترك ذاك القصر فوراً، وسأعطيك نقوداً تكفيك ريثما أجد لك عملاً عندي

- عندك يا سيّدة؟!

- نعم عندي، لديّ هذه الفيلّا الفخمة وأراضٍ كبيرةٍ سنستثمرها بمشاريع مهمّة ولا بدّ أني سأجد لك عملاً فيها.... لا تقلقي لن تشعري بحاجتك لأي شيء طالما أنّك تأتمرين لي وتفعلين كلّ ما أقوله لك.

- أنا أختك يا تهاني! تنطقها بمرارةٍ فائقة

- نعم أختي، لم أنسَ ذلك ولذلك سأساعدك

- ما كنت لتساعديني لولا لقب السيّدة الذي تلهثين وراء استحقاقه، وأكاد أجزم بأنّ كرامتي لا تعنيك في شيء وإلا لما طلبت مني الخدمة عندك فما الفرق بين خدمةٍ هنا أوهناك؟ هل الخدم عندك موفورو الكرامة بنظرك؟ لن أترك العمل عند الباشا توفيق أبداً يا سيّدة تهاني

- ستتركينه بإرادتك أورغماً عنك يا دريّة

لم تأبه لتهديد أختها وقتئذٍ، كانت الصّدمة تُغشي روحها والمرارة تكوي ما تبقّى من آدميّتها، تركتها والثّلج في عينيها يزاود على سعير أضالعها المحترقة أسىً وقهراً وفجيعةً بمن ظنّتها ستراً ودفيئةً وغطاءً لحزنها.

لن تنسى دريّة أبداً حين وصلت فناء منزلها الفقير فأطلقت تلك الصّرخة الهائلة التي حسبت بأنّها قد أصابت العالم كلّه بصمم دامٍ، هذا العالم المجنون الذي يخنق شبابها وجسدها وأحلامها، لوح الجليد ثبّتها في مكانها وقتاً خارجاً عن عُرف الزمن بينما قميصها الرّث الباهت اللون تغسله غمام هتونٍ ماطرة، لأول مرّة أحسّت بضعفٍ يشّل أطرافها، يفتت قلبها، قتلٌ مجزّأٌ لحواسها الشّاردة في ماضٍ ما عاد يصلح حتّى للذكرويليق به النّسيان فقط.

أسبوعٌ كاملٌ بعد هذه الحادثة لم يكن كافياً للنسيان بعد، ثمة وجلٌ مستنفرٌ داخل روحها يقلق محاولاتها للهدوء المفترض، حاولت التّنقيب في ركام ما خلفتّه أعاصير القهر في داخلها عن إبرة سكينةٍ ضائعةٍ دونما جدوى حتّى جاءها الزلزال المدمّر الذي أتى على ما تركته الأعاصير يصارع من أجل بقائه.

استدعاها الباشا توفيق إلى مكتبه، فذهبت إليه قبل اجتماع هواجسها المبعثرة، في تلك الغرفة المطلّة إلى نافورة الماء في حديقة

القصر والمتخمة بصور من يحبهم من أولاده وأحفاده، كانت الصفعة التي آلمت عظامها فتحطمت وعاث الزلزال في جسدها فحفرت في روحها جدثاً لترقد فيه ما تبقت من تلك الآمال الضالة، لم يوضح لها الباشا أيّة مسوغات عن سبب فصلها من العمل وهي المطيعة الملتزمة بعملها طيلة السنوات التي قضتها في قصره واكتفى بقوله بأنّهم سيستغنون عن بعض الخدم وأمام دموعها المكتظّة بالحيرة والألم خاطبها الباشا:

- لا تحزني يا دريّة.... أختك السيّدة تهاني هنا وستساعدك بالتّأكيد، سأصرف لك مكافأة عن سنين خدمتك عندي وأتمنى لك كلّ الخير

قالها ونهض ليدخّن غليونه أمام النّافذة المفتوحة فحجبت عنه رائحة التّبغ أن يشمّ حريقاً مستعراً في قلب تلك المسكينة.

أختها إذاً وراء هذا كلّه، تسلمت مكافأتها ومشت في طريقها على غير هدى كبلهاء شريدةٍ، قادتها قدماها لقصر من حرمتها نعمتها الجارية ورمتها في أتون العوز والحاجة، دخلت القصر من دون استئذان من البوّاب الذي هرع وراءها ليمنعها من الدّخول فلم تُعره اهتماماً، طرقت على الباب لتفتحه لها نفس الفتاة الحمقاء في المرّة الماضية من دون أن تطلب إذناً دخلت باتّجاه الصّالة الكبيرة التي لم تنسَ تفاصيلها بعد.

الجوّ عابقٌ بالعطور والفخامة وضحكاتٍ منمّقةٍ مفتعلةٍ، وقفت أمامهم بكامل فقرها، برائحته التي جعلت وجوههم تستنكره بحواجب مقطّبةٍ، نهضت أختها عن كرسيها كمن شبّت بها النّار فجأةً مطلقةً سهاماً قاتلةً تجاه من تقف دليلاً حياً على ماضي السيّدة المحدثة النّعمة، وخاطبتها بحدّةٍ:

- كيف جئت، بل كيف دخلت، ومن سمح لك بالدّخول؟!، اخرجي من هنا فوراً

وبكل طاقة الوّجع النّاطقة فيها أجابتها دريّة:

- تخافين أن يعرفوا أنّ هذه الفقيرة التعيسة هي أختك، من لحمك ودمك؟ أختك التي تعمل خادمةً في قصر الباشا توفيق

جلدتها كلمات دريّة فأوجعتها للحدّ الذي بدأت فيه بالصّراخ للخدم لرميها خارجاً متنصّلةً منها ومن قرابتها:

- ومن قال بأن عندي أختاً مثلك ؟! أنت مجرد خادمةٍ وضيعةٍ في قصر الباشا توفيق جاءتني يوماً تتسوّل فطردتها ويبدو لأنّها جُنّت لتفكّر بالعودة إلى هنا...ارموها خارج القصر فوراً

- أنت أختي وجدّنا كان متسوّلاً فعلاً مهما حاولنا الإنكار، ولكنّي لن أقف يوماً في عتبتك لأتسوّل حتّى لو فصلني الباشا من قصره بسببك ولن أنسى لك ذلك أبداً.

كانت آخر ما قالته دريّة قبل أن يرميها الحارس خارج القصر كمتسوّل شاردٍ ملعونٍ من السّماء والأرض، دونما دثارٍ أو ظلٍ أو هويّةٍ إنسانيةٍ بملامح بشريّةٍ واضحةٍ.

رافقها شريط الذّكريات لحين وصولها للمنزل بشرايين تنبض حرقةً ولوعةً، لقد اعتادت التّألم وفيض الدموع لم يبق منه سوى عبراتٍ متناثرةٍ تهطل رغماً عنها، فناء البيت يضجّ بالأصوات، فلعلّ شجاراً حاصلاً في الدّاخل بين زوجها وأحد الأولاد وهذا ما تخوّفت منه طوال اليوم، دخلت بتشوق مناديةً باسم صغيرها حسن الذي ما إن تناهى إلى أذنيه صوتها حتّى هرع إليها وارتمى في حضنها.

كان الشّجار محتدماً بين إبراهيم وأحمد على غير العادة وما إن

همّت لتسأل أحمد عن سبب الصراخ يجيبها قبل السّؤال:

- قولي له ألا يتدخّل في حياتنا يا أمّي

يقولها وينصرف إلى غرفته ليتركها أمام كلام زوجها العابق بالغضب ورائحة خمر منفّرة:

- إنّ أولادك عديمو الاحترام والتّربية، هذا الشّقي تطاول بكلامه عليّ ولولا انّه أطول منّي لضربته

تنصرف عنه من دون أن تُجيبه لتلحق بابنها إلى غرفته فتجده لا يزال مرتدياً ثياب المدرسة ولأوّل مرّةٍ لا كتباً مفتوحةً على الطّاولة فتسأله بحدّةٍ:

- ما الأمر يا أحمد؟

- ألم تسأليه؟ أم أنّ رائحة الخمر منعتك من سؤاله؟!

فتجيبه مهادنةً لظى غضبه المتطاير في الهواء:

- نعم.... ولكنّي أريد الصّدق منك

- منذ عدنا وهو على حاله التي رأيتها، سكرٌ وتبغٌ ورائحةٌ خانقة، وبعد هنيهةٍ من دخولنا لغرفتنا ارتفع صراخه طالباً من مريم أن تُعدّ له الطّعام فمنعتها من ذلك فارتفع عويله أكثر فأكثر لدرجةٍ دفعتني لترجّيه التماس الصّبر لحين عودتك من المصنع وبعدها

وهنا سكت أحمد فجأةً من دون مبرر فأكملت أمّه استجوابها له

- ولكنّ ذلك لا يستحقّ منك هذا القدر من الغضب يا بني ؟!

وهنا يتبدّى وجه مريم من وراء كتابها المفتوح قصداً لتجيب أمّها على سؤالها الأخير:

- لقد نعتني ذاك المخلوق السكّير بذات الدّمامل يا أمّي

قالتها وعادت لتحتجب وراء كتابها المفتوح كممثلٍ ثانويٍ أنهى

مشهده واختفى على الفور، هزّت دريّة رأسها كإشارةٍ لفهمها بقيّة الحكاية، فاستطردت بقولها

- لن يتغيّر مهما فعلنا ومن الأفضل لنا مداراته حتى يعود من حيث جاء

- إلى متى يا أمّي؟. يقولها أحمد بمرارةٍ

- إلى أن يشاء الله يا ولدي

اتجهت بعد حديثها مع الشّاب إلى المطبخ مسرعةً لإعداد الطّعام منعاً لتفاقم الأمر وعندها تيقّنت لمَ احتلت سموم تهاني ذاكرتها المتعبة فلطالما كانت أوجاعها تأتي مجتمعةً وكلّ ما أوجعها في حياتها مرّ عليها اليوم ذكرياتٍ وحضوراً.

ومع أنّ إجازة إبراهيم هذه المرّة لم تتعدّ أسبوعا واحداً، إلا أنّها مرّت عليهم متثاقلةً كدهر، أيّامهم معه تشوبها النّقمة والصراخ ورائحة الخمر، هو ينفر من حقيقته التي تؤلمه وحين تتجلى أمامه يحاول التستّر وراء الصراخ والغضب لإخفاء تقصيره كأبٍ تجاههم.

قبل سفره ترك لدريّة مبلغاً من المال لذات الدّمامل كما اعتاد أن ينابزها وودعها فجراً بسلامٍ خالٍ من أية مشاعر إنسانيّةٍ مفترضة، فأشرق صباحهم ذاك بحلتّه القديمة الخالية من رائحة الخمر والزّعيق ملوّناً للتّو بضحكاتٍ افتقدها ذاك البيت سبعة أيّامٍ عجاف.

عندما يتعلّق أيّ موضوعٍ بمريم يتّسم بالتّعقيد قبل بدايته فبالرغم من حداثة سنّها فطبعها المضطرب المتفاوت حسب مزاجها الخاص يجعلها صعبة المراس دونما قصدٍ منها، فعلى الرغم من مرور ثلاثة أشهرٍ على سفر والدها واقتراب امتحاناتها

العّامة إلا أنّها لم تنسَ إهانة والدها لها وعليه فقد رفضت شراء ملابس جديدةٍ بالنقود التي تركها والدها لها، من دون قصدٍ منها نكأت لأمّها جرحاً قديماً حين قالت لها

- تسوّلي لي ثياباً من عند إحدى زميلاتك في المصنع ولن أغضب هذه المرّة

هذه الفتاة تُدهش أمّها بدقّة التّفاصيل التي تُحفر في ذاكرتها، «يا لبؤس ذاكرةٍ كهذه» تقولها درّية وهي تستذكر حادثة قديمةً، ذاك اليوم الذي اضطرّت فيه لقبول ثيابٍ مستعملةٍ من إحدى صديقاتها في المصنع لبنتٍ تماثل مريم في العمر والحجم، كانت رحلة مريم المجّانيّة الأولى وكان التحجج برسم الاشتراك ضرباً خياليّاً من الخزي، الفرح يتراقص أمام عيني أمّ مفلسةٍ تجد من الصعوبة أمرّها وأقساها بأن تحرم ابنتها من رحلتها بسبب عجزها عن شراء ملابس تليق لذهابها مع أقرانها، ثيابها رثّةٌ لدرجة لا تطاق ولن تتحمل البنت سخريةً واقعةً من أصدقائها فأذعنت درّية لمساعدة صديقتها في العمل وأرسلت الفتاة في رحلتها تلك، فعادت عليها باكيةً متورّمة العينين، لديها من قوّة الصوت ما يكفي فقط لإخبار أمّها بأن جميع من في الرّحلة عرفوا أنّ الثياب لفتاةٍ من القرية المتجاورة فإحدى الصّغيرات ممن ذهبوا للرحلة عرفت الثّياب جيداً وخصوصا أنّها لابنة خالتها.

- في داخل هذه البنت مقبرةٌ هائلةٌ تضجّ بالألم، ولعل ـ من الظلم أن تدفن نفسها فيها

قالتها درّيةُ وهي ترفو طرف ثوبها الذي مزقتّه سنينه الطويلة، مستحضرة ذكريات الفقر في سنتها الجرداء التي عاشتها بعد تركها لقصر الباشا توفيق بمؤامرةٍ دنيئةٍ من أختها تهاني، فالتّعويض

الذي أعطاها إياه الباشا نفذ سريعاً وحلّت الطّامة الكبرى حين مرض أحمد بالحمّى واضطرت لأخذه للطبيب الأمر الذي أجهز على آخر النّقود التي بحوزتها، ولكنّ وضعه ازداد سوءاً وتعقيداً، فلم يتحسّن بسرعةٍ واستغرق علاجه زمناً طويلاً.

استدانت نقوداً بادئ الأمر من أمّ إبراهيم على نيّة إرجاعها متى عاود إبراهيم من سفره لتنفذ النّقود قبل أن تفكّر دريّة بخيارٍ آخر لتأمين المزيد منها فكان طرق الأبواب المغلقة حلّها الوحيد في ورطتها العصيبة هذه، لباقة الفقر وخجله تجمّلان الفقراء فالأعذار المتعاطفة الخجلة ممن قصدت أبوابهم أشعرتها بالرّضا على الرغم من قساوة التسوّل، ولا تعلم للآن كيف وجدت نفسها أمام بيت أخيها إحسان الأستاذ المحترم من قبل أهل القرية جميعاً، هي أمٌّ قبل كرامتها وماضيها وهي أخته قبل إبراهيم وبعده، طرقت على باب بيت إحسان وضحكات تهاني السّاخرة تحيط بها من كلّ الجهات، لقد أصبح العالم أمامها قُطباً واحداً بل باباً واحداً، بابٌ سُدّ في وجهها عمداً وعليها فتحه عمداً أيضاً.

وفُتح الباب، تحرّك المزلاج ببطءٍ فجمدت مكانها وبلحظةٍ همّت لأن تعود، تمهّلت قبل قرارها السّريع فالعودة الآن غير مجديةٍ والصعوبة كائنةٌ في وقفتها أمام الباب وما إن فُتح فانسحابها لا يعني شيئاً، هذا الوجه تعرفه جيّداً منذ الطّفولة بتفاصيله وضحكته ورنّة صوته، خاطبته بصوتها القديم لعلّه ينعش بينهما وداً شارف على الموت.

- أنا بحاجتك يا أخي.

نطقت عبارتها لتصمت عنوةً، جفت الأبجدية المتبقيّة وانتحرت الكلمات على بوّابات شفتيها وانتظرت سارحة النّظرات

لا تلوي إلا عن جوابٍ يفتح قفل فمها ولا يقفل الباب أمامها.

فهل سيغُلق بابه في وجه بضعةٍ منه؟ هل سيرفض هذه اليد الممدودة إليه احتياجاً وحبّاً؟ هل سيخذلها بحجّة كرامةٍ عائليّةٍ مزعومةٍ؟ أم أنّ وجهها المغرق في الحزن سيستحضر بقيّة كرامةٍ ضائعةٍ؟ وبصوته القديم ذاته يجيب: ادخلي يا أختي.

ترتعد أوصالها ويطرق النّبض أسماعها كأجراس فرح.

- لا أريد إحراجك يا أخي ولكن الدّنيا سدّت منافذ رحمتها في وجهي، أحمد مريض منذ فترة ونفذت نقودي قبل أن يمنّ الله عليه بالشّفاء فإن تكرّمت بإقراضي للنقود سأكون ممتنّةً لك طول العمروسأعيدها لك في أقرب وقت.

ظلّ الباب مفتوحاً كباب رحمة، تسارعت خطا مشيته إلى الدّاخل حتّى توارى وراء أحد الأبواب فبقيت تسترق النّظر إلى الغرفة التي لم تدسها قطّ في حياتها.

تنحّت جانب الباب كي تتفادى ملامة بعض العيون المارقة مصادفة أمام الباب المفتوح وآثرت التّخفّي لحفظ ما بقي من ماء وجهها بعد تسوّلها الأرعن.

عاد إحسان سريعاً ليدسّ في جيبها مبلغاً من المال أثقل جيبها الملتصق ونفخ أوداجه، وقبل أن تنطق ببنت شفةٍ يطبع على جبينها قبلةً أحيتها بعد يباس ويأس.

شكرته بابتسامةٍ موشاهٍ بدمعةٍ حارقة وتمنّت لو لم يكن أحمد مريضاً لتذعن بكلّ الرضا لإلحاحه بالدّخول، وانصرفت متلبّسةً بحيرةٍ عمياء.... أهو الفرح أم الحزن من يدّق طبولاً في قلبها؟!

طبعت على جبين الصّبي قبلة امتنانٍ وضمّته طويلاً إلى صدرها شاكرةً له وفجأةً أحسّت بالغبن تجاهه وهو من يعاني من الألم ما

يعانيه فهمست له معتذرةً: سامحني يا ولدي.... فأحمالي لا تُطاق.

صباحاً قرر الطّبيب إرسال الصّغير إلى مستشفى حكومي في المدينة فصّرت حوائجهم وانطلقت بكلّ امتنانها لليد التي لم تردّها خائبةً ورجاءَ لله بأن يُعافي ابنها سريعاً. بقي أحمد ثلاثة أيّامٍ في المستشفى استردّ فيها صحّته واستردّت فيها دريّة بعضاً من فرحها المسلوب حين فاجأها إحسان بزيارته لهما في الردهة ليؤكّد لها أنّ باب أخيها ما زال مفتوحاً ولن يُقفل أبداً.

كبُر بطنها في نهاية السّنة الجرداء تلك فاختتمها حسنٌ بولادته التي لا تنس فكانت بدايةً لانزياح الصّخرة الجاثمة فوق صدرها فتحلحلت أوزار الفقر عنها.

عمل جديد في المصنع القريب من بلدتها وإحسان الطّيب الذي بقي مداوماً على إرسال النّقود إليها مع أحد أولادها خفيةً وقت انصرافهم من المدرسة ومرّةً فاجأها بزيارةٍ خاطفةٍ تحت جُنح الليل ليخبرها بأنّه يتحيّن الفرصة المواتية لفضّ القطيعة بينها وبين أخوتها. بارقةٌ أملٍ كانت كافيةً لمؤونة صبرٍ إضافيةٍ لحالك لياليها القادمة.

تغفل دريّة عن شريط حياتها لتنظر في وجه ابنتها حين قالت:

- إنّ للفقر رائحةٌ يا أمّي

قالتها بهدوءٍ غريبٍ لم تعهده دريّة. فتضيف سؤالاً مستفهماً علها تفهم ما يدور في خلد الفتاة:

- ما الذي تقولينه يا بنت؟

- نعم هو ذاك. فتاةٌ وفدت حديثاً إلى المدرسة وفور وصولها اختارتني صديقةً لها. أتراها رائحة فقري من جذبتها إليّ؟ فلا أظنّ بأن أحداً يرغب بصداقة ذات الدّمامل ما لم يكن فقيراً. أتراها

أحسّت بوجعي؟ أم أن عيوب الفقراء لا تُستهجن فيما بينهم؟

قاطعتها أمّها مستنكرة قولها: وهل تعتبرين دماملك عيباً؟!

- نعم.... وجهي المدمل معيبٌ بين أوجه الرّخام

- أنت تهذين والله، كفّي عن الفلسفة وانتبهي لدروسك وعندما تنجحين لن يتذكر النّاس وجهك أو فقرك

- مخطئةٌ يا أمّي، فأنا لن أنجح ما دمت قبيحة

- ومن قال بأنّك قبيحة؟!

- أبي، أصدقائي، وكل الوجوه التي تنفرحين تطالعني نظراتها

- انجحي وسأدّخر لك بغض النقود لعلاج وجهك، هذا وعد

- حقاً يا أمّي؟!. تقولها باستجداءٍ فتجيبها أمّها بثقةٍ متناهيةٍ

- حتى لو بتنا على الطّوى، أعدك

يخفق قلب الفتاة وتحوم ضحكتها كحمامةٍ هادلةٍ في الفناء وبلهجة انتصار قادم أجابت .

- وأنا أعدك بنجاح يليق .... أعدك

ركضت صوب غرفتها بخفّة غزالٍ شارد بجديلتين تتمايلان على ظهرها فرحاً.

همست دريّة في سرّها متخوّفةً: أيُعقل أن تكون ابنتها على شفا عقدةٍ نفسيّةٍ تتلخص بقبحٍ وفقرٍ؟ لو لم أبع المصوغات سابقاً لبعتهم من أجلك يا ابنتي.

ستدع عندها هاجس وجه الرّخام لتنجح، فلعلّ وجهها المصقول القادم كفيلٌ بصقل روحها لاحقاً، لن تترك ابنتها مع خريف يلوك داخلها وربيعها لم يُزهر بعد.

وانتهى الامتحان كما أرادته دريّة، من دون خوفٍ على نتيجته، فحماسة ابنتها وروحها التي استطابت بعد وعد أمّها كانا كافيين

ليُثبتا للجميع أنّ ابنتها تستعد لنزالٍ مع شبح الدّمامل الذي تُبغض، لتستحق نجاحاً يليق بوجهٍ مصقول، البذخ الرّوحاني المتجلّي أمامهم شغفاً وتصميماً وحبّاً لم يسع دريّة أمامه إلا أن تجد حلاً في الوقت المتبقي لديها لتأمين نقود العلاج الموعود. المال الذي تركه إبراهيم لم يكفِ سوى لشراء ملابس لمريم من سوق الثياب المستعملة، يلزمها حلّ إنقاذ فصارت تقلّب في رأسها خياراتها المعتادة، وقبل أن تفنّد آخر خيارٍ لديها قاطع أحمد سيل خواطرها بقوله:

- رأيت اليوم أبا صالح.... سأعمل عنده في معمل الطابوق طيلة فترة الصّيف وسيعطيني أجراً جيداً فهو صديقٌ لخالي سعيد ويحفظ وداً له

لم تجبه على الفور، استغرقت وقتاً للملمة أفكارها المتناثرة مدركةً بأنّ عمل أحمد المفاجئ هو طاقة أملها المرجوّة لمعضلتها تلك.... تمتمت في سرّها وهي تعدّ لهم طعام العشاء

- لا أدري من المذنب بيننا؟ أنا؟ أم أبيكم؟ أم أنتم يا أولاد؟!

حول طبق الطّعام المتواضع ارتسمت ملامح صيفٍ قادمٍ أملاً وتعباً، عرض حسن الصغير على أخيه الذّهاب معه للعمل متذرعاً بأنّه لا يطيق غيابه ويخاف من انتهاء هدنة مريم معه فتعاود تأنيبه من جديد، تضحك أخته وهي ترمقه بنظرةٍ ملؤها العتاب فيُميل رأسه على كتفه مقلداً حركاتها العاتبة بنوعٍ من الشقاوة المفتعلة، فيضحك الجميع ناشرين طعم فرحهم على طعامٍ شهيٍ لم يتذوقوا مثله من قبل.

لم تُفلح حجج حسن في الذهاب مع أخيه وكإرضاءٍ له رُكّبت له مرجوحة خشبيةٌ على شجرة الدّراق ليتعلّم قيادة الهواء كما

قالت له مريم، وهنا نطق الصّبي بأولى أمانيه « سأصبح طياراً يوما ما» وأمام ذهول الجميع من حلمه المباغت دخل الغرفة مهرولاً ليعود حاملاً صاروخاً ورقيّاً تعلم صنعه مع أقرانه في الصّف، فرماه فوق أجنحة هواءٍ صيفيٍ متكاسل، فانتهت رحلته القصيرة في حضن أمّه التي قايضته مقابل استرجاعه بقبلةٍ طويلةٍ.

عمِل أحمد عند أبي صالح بالأجرة اليوميّة فيقبض مستحقّه نهاية نهاره، وعند عودته ينقدها لأمه كاملةً فهو عالمٌ بحال أمّه ووعدها لمريم ولربّما كان عنده من الترجّي لشفاء وجهها ما يعادل أمّه فاستبصر بحدسه الذي ورثه عنها عن أمّه الأزمة الحقيقية الواقعة على كاهل أمّه فكان عمله مساعدةً لأمّه على إيفائها لوعدها من دون أن يخبرها بما يكنّه في طويّته.

مازح أمّه مساء أحد الأيّام حين غصّت رافضةً أن تُصار كل نقوده إليها فقال:

- لا تلومي نفسك يا أمّي .... بانتهاء الصّيف سيعاود خالي إرسال مكاتيب الاشتياق لك مع حسن كما كان يفعل معنا وستتحسّن الأوضاع، دعيني الآن أتقمّص دور الرجل المسؤول عن أسرته.

يعود ليستطرد بقيّةً حديثه: أيعقل أنّ أحداً من أخوالي لم ينتبه لتودد خالي إحسان إلينا طيلة الفترة الماضية؟ أيعقل أيضاً أن تستمرّ قطيعةٌ مجحفةٌ كل هذا الزمن من دون مراجعةٍ عقلانيةٍ لها؟ ألم يحنّوا لك وأنت من كنت دثارهم الحاني يوماً؟!

- إذاً عليك بمحبة أختك مهما فعلت ولا تتركها للحياة تمضغها كيفما شاءت وكن عوناً وسنداً لها مهما تكالبت الظروف والأحداث

فيعاجلها بسؤالٍ آخر:

- هل اعتبر أخوالي طلاقك الحلّ الوحيد النّاجع لسُكر أبي وعربدته؟

- نعم.... خالك سعيد فضح أباك أمام النّاس فشتمه أبوك علناً في البلدة ما اعتبره أخوالك أمراً لا يُغتفر فالعربيد إبراهيم بمجونه وسكره كان صهراً معيباً لا يليق بعائلتهم المحترمة، طلاقي كان حلاً مشرّفاً بالنّسبة لهم أمّا إليّ فلم أفكّر بما فكّر به أيٌّ منهم، لقد فكّرت بكم فقط من دون أن أعطي اهتماماً للعذاب الذي سأحياه، كنتم حياةً كريمةً من نوعٍ آخر خارج نطاق عقولهم وأفكارهم، كنتم كرامة قلبي الباقية أو لنقل ما تبقّى منه

- وأية عدالةٍ تُجيز ذلك يا أمّي؟ يقولها أحمد بمرارةٍ خانقةٍ فتجيبه ووجهها ينضح رضىً لا حدّ له:

- وهل من العدل أن يبقى الظّل ظلاً والنّور نوراً للأبد؟ ألا يستحقّ الظّل بعض الدّفء يوماً

يرفع أحمد حاجبيه متعجّباً من جواب أمّه فتردّ عليه بمثل ما فعل، بحاجبين مرفوعين يضغطان سنين شقائها أخاديد متعرّجة في جبينها الواسع المضيء.

- هل الفقر يولد في النّفس حكمةً مكتسبةً بفعله لا بفعل السّنين؟ قلّبها أحمد في رأسه كثيراً قبل أن ينام تلك الليلة.

تمرّ أيّام الصّيف في يوميات دريّة بقسطٍ أكبر من التّعب وأقلّ من الهدوء فبين دوامها في المصنع واهتمامها بأرضها الزراعية وأعباء منزلها التي لا تنتهِ تصخب أيّامها بأحاديث الفقر والشّقاء حتى انقلب حديثهم ذات يومٍ بقدوم أحمد راجعاً من عمله عصراً ودونما انتباه لثيابه الملطخة بالإسمنت ليحمل الفتاة بين يديه لتطلق ساقيها ويديها كدولاب هواءٍ وفي غمرة اندهاش الجميع

يقبّل وجهها المحمر السّاخن فيزيده اشتعالاً ليفصح أخيراً عن سرّه المكنون:

- لقد نجحت مريم وبتفوّق.... لقد نجحت

قالها ليعاود إكمال دورات دولاب الهواء السّعيد ذاك ليقفز حسن من حضن أمّه باتجاههم ليوقفه بينما انقضّت عليهما دريّة كغمامةٍ ماطرةٍ لتطوّقهما وتمطرهما قبلاً وعناقاً، لأول مرةٍ منذ زواجها تطفو السّعادة فوق الفقر، درجةٌ ممتازةٌ مستحقّةٌ تستحقّ إيفاء وعدٍ قُطع لأجلها

وحُقّ لها ما تمنّته ففي اليوم الذي تلا نجاحها الباهر قصدت مريم المدينة لعيادة أحد أطباء الجلديّة لمعاينة وجه الدمامل والتي أسفرت عن كميّة كبيرة من العقاقير والمراهم الجلدية ونصائح وإرشاداتٍ دقيقةٍ لكيفية استخدامها عدا عن جرعة الأمل الكبيرة التي أترعها الطبيب في نفس الفتاة التوّاقة للفرح.

اعتذار

نجاح مريم المستحق لم يقوّض حواجز الأسمنت بين دريّة وأهلها فلم يأتِ أحدٌ من أخوتها مباركاً عدا إحسان الذي قدم مع عائلته كلها للمباركة لمريم المتفوّقة. لقد قرر إحسان أخيراً زيارة أخته علانيةً دونما أن يلق بالاً لملامةٍ قد يسمعها من أخوته.

كان وهج السّعادة على وجه دريّة يغلب خجلها من فقر مدقع يهين كرامتها ويقلل من حفاوةِ استقبالها للضيوف التي ودّت لو تفرش لهم فناء منزلها عيوناً وأهداباً.

فلعلّ زيارة إحسان هذه ستكون أوّل ثقبٍ في جدار الجفاء السّامق بينها وبين إخوتها لم تستطع النّوم تلك الليلة كانت السّعادة تغافلها عند كلّ غفوة فتعيدها إلى مشاهد ملونة من سهرتها المتخمة بالفرح، شريط الذّكريات صار ملوّناً، ذاكرتها الصّدئة التي تقتات بلونين يتيمين منذ زمن، اخضرّت وتلوّنت بساعتين فقط من دفء المحبّة.

يا للأرواح كيف لا تحيا إلا بالدفء، يعذّبها الصّقيع ويتلفها الحنين، وبعضٌ من أملٍ يفرد لها جناحي الهواء فتطير في ملكوت لا تحدّه بطاحٌ ولا تظلله سماء، اشرأبّت آمالها أكثر من هواجسها لأول مرّةٍ منذ أن فتح إبراهيم بابه الأزرق الأول، لم تستمع لثرثرة قابعةٍ في ركن سريرتها اليقظة دائماً عن مؤونة البيت وتشذيب الأرض قبل قطاف الزّيتون وأحذية الأولاد التي ترفض الاستمرار لبقيّة عامهم هذا.

نقوط مريم كان كافياً لشراء حاجيّاتها وأخيها بداية العام الدّراسي وأحمد بما يكسبه سيساعدها قليلاً في تامين مؤونة البيت أمّا حسن فلا تزال متطلّباته ضئيلةٌ كحجمه وكان طلبه منها هو آخر ما تذكّرته دريّة قبل أن تداهمها غفوةٌ أودت بها في غياهب نومٍ فرحٍ ألا وهو الدجاجة التي يود أكلها مع الأرز فابتسمت ونامت كما لم تنم من قبل

وتشاء المصادفة أن تلتقي بمن تتمنى رؤيته ولو من بعيد، من يعاتبه قلبها في كلّ نبضة، من كان شجرتها الوارفة الظّلال فتركها يوماً للهاجرة تكوي منها العظم، من أنكرها بعد يقين كان شبيهاً ببطرس الذي أنكر مسيحه بعد إيمان، أو ليس سعيد من أنكر لحمه؟!

قادتها قدماها ذاك الصّباح إلى دكّان للدّجاج المدجّن، افتتح مؤخّراً في البلدة على الرغم من أن أكثر السّكان في البلدة يأكلون الدّيكة التي تُربّى في قنن الدّجاج المنتشرة في أغلب البيوت الرّيفية.

قبل افتتاح الدّكان كانت دريّة تشتري لأولادها بداية كل شهرٍ ديكاً من إحدى جاراتها اللواتي يمتلكن في بيوتهنّ قناً لتربية الدّجاج المنزلي، إلا أنّ حسن وجد لحمه قاسياً بعد أن تذوّق الدّجاج المدجّن مرّةً حين اشترت لهم أمهم واحداً من القرية المتجاورة حيث مصنع السّجاد الذي تعمل فيه.

وقفت في آخر الطابور أمام الدّكان تتفحص نقودها، تتفحّصهم وتعدّهم آملةً أن تكفي لشراء الدّجاجة المنشودة. وفي لجّة المخاوف الممزوجة بالأمل حانت منها التفاتةٌ لشخصٍ مرّ مسرعاً بجانبها من دون أن يلتفت صوبها، ورغم سرعته وتجاهله إلا أنّ قلبها عرفه جيداً بتفاصيله بملامحه التي لا تحتاج لتهيئةٍ في

الذّاكرة.

هو سعيد المحفور في قلبها وإن طال شعره واختلفت هيئته وتوضّحت كرشه. لن تُخطئه ولو تخفّى في ألف حلّة ستعرفه ولو أدار ظهره عمراً بأكمله. وجهه وشم في قلبها الوفي الثابت في زمن غادر متقلّب.

وصل عند البائع ليكلّمه على انفرادٍ لبضع دقائق فقط ثمّ عاد على عجالةٍ كمن يريد اللحاق بأمرٍ مهم فيتعثّر بوجه أخته في نهاية الطابور. تتصادم الأعين وتتصافح النظرات. جمّدها الحنين في مكانها وقلبها يحاول الوثوب من مكانه ليرتمي إليه.

صمدت أمامه مرغمةً مخافة أن يسمع طقطقة أضلاعها المتناحرة تحت وطأة دقات قلبها المستعر شوقاً. تفحّصتّها عيناه. ثمة لمعةً تطفو فوق رأرأة أحداقه. إنه الحنين القديم ذاته من دون شك. وقبل أن تستجيب دريّة لاستغاثة قلبها المعنى للارتماء قسرياً بحضنه. يشيح بناظريه عنها ليقفل عائداً حيث البائع فيلقّنه هامساً بضع كلماتٍ ليعود في ذات الطريق متعمّداً إقصاء نظراتها عنه. وعلى مسافةٍ تفصلها عن ظلّه بثلاث خطواتٍ يلتفت وراءه زمناً كافياً لعناق الأنفاس فقط ليخاطبها بعبارةٍ عُتّقت في حلقه تاريخ جفاف

- خذي ما جئتِ لأجله من دون نقود فلقد وفيت لك ذمّتك عنده

قالها وأكمل طريقه هادئاً متّزناً بخطواتٍ رصينةٍ منتقاة. تاركاً وراءه زوبعة تزعزع روح أخته بعد زمنٍ خرافيٍ اقتُطع من ماضٍ جميل. استجمعت لهاث أنفاسها لتعيد نبضها إلى اتّزانه لتقول والدّمعة تتدحرج ضليعة الملوحة والأسى على خدها الجاف

- لم يعاديني ما دام يذكروجهي القديم؟!
- لم يحنّ عليّ ذاك القشر اليوم؟
- ألم يُذكّره ربيع عيناي بأن للطيور المهاجرة إياباً واجباً؟

يكمل صاحب الدّكان حاجياتها، ليناولها بيده دجاجةً من دون أن تبلغه حاجتها فتأخذها وتمضي في طريقها من دون أن تنقده ثمنها.

لفّة النّقود المتعرّقة في يدها لامست أطراف أنفاسها المحتدمة، نبضها ذو النزعة الجنونيّة للحنين لم يذعن لكبته طويلاً فعاد لقرع مطارقه في أذنيها على امتداد الطّريق اللافح بشمس الصّيف الحارقة، لتصل الفناء وقد أنهكها الحنين واستولى التمنّي على ما تبقى من لواعج كامنةٍ في روحها بلقاءٍ قريب ولوكان في طابورٍ آخر. يباغتها الصبيّ معاتباً، يهرع نحوها مطرق الرأس بحزنٍ يستفسر عن تركه وحيداً، فتجلس القرفصاء بجانبه تمسد على رأسه بيدها المضمومة على لفّة النقود المبللة محدّقةً في خاله الجميل الوادع عند انتهاء حاجبه، فتتمنّى بلحظةٍ لو أن لمن نحب ثبات يشابه وفاء هذا الخال فلا تبعدهم ظروف ولا تطويهم المسافات.

يتلمّس الصغير الكيس المتأرجح من يدها الأخرى ليطلق صرخته الفرحة بعدها قبل أن يتأكّد من صدق توقّعه:

- ما هذا يا أمّي؟ .... دجاجة؟
- نعم هو ذاك .... واليوم ستأكلها على الغداء أيّها الجميل.

فيجيبها الصّبي وقد تنبّه للنّقود المتبقّية في يدها

- هل نسيت أن تدفعي ثمنها للبائع يا أمّي؟

فتجيب دريّة معجبةً بفطنته: لا ولكنّ ثمنها أقلّ من نقودي بكثير فزاد منها مبلغٌ قد أفكّر بإعطائك شيء منه لبعض الحلوى

التي تحب

استبشر الصّبي بكلام أمّه فنسي أمر الدّجاجة كلّياً ليطالب بالنقود على الفور وما إن نال مراده حتى أطلق ساقيه للرّيح وانطلق بسرعة فرحه للدّكان حيث الحلوى التي يحب، ليعود بعدها جاراً وراءه حبلاً من السّكاكر فاوضته مريم على بضع حبّاتٍ منه بقبلاتٍ متفاوتة الطول والشدّة.

ضحكاتهم تثلج قلب أمّهم المنشغلة بتحضير طعام الغداء للأولاد في يوم عطلة أحمد من عمله فتصلها مداعباتهم كمرهمٍ لحروق شمس هذا الصباح في طابور الانتظار وتفكر بأن غداءهم هذا سيكون أطيب طعامٍ تذوّقوه منذ مدّةٍ طويلةٍ.

وفي غمرة الضحكات المبعثرة بين الفناء وغرفة الجلوس يصل مسامع دريّة هدير محرك سيارةٍ غريبةٍ وقّفت أمام باب الفناء، فاستغربت بادئ الأمر إلا أنها فكرت بأحد الباعة الجائلين المنتشرين بكثرةٍ في تلك الأيّام فلم تعر اهتماماً زائداً لولا توقّف هدير السيارة فجأةً ليصلها بعده وقع أقدام حادةٍ دخلت الفناء.

الأولاد يصطفون جانب بعضهم البعض واجمين الحواس فاغرين أفواههم ذهولاً أمام القادم الجديد فتنضمّ درية لدهشتهم بوصولها إليهم، الضيف الطّارئ كان إبراهيم زوجها القادم بحلّته الجديدة كما سيّارته،حلةٌ نزعت عنه شعره الأشعث وذقنه المتناثر القميئ وثيابه الرّثة ويفوح منه عطرٍ باريسيٍ فخم.

يحييهم بلكنةٍ افرنجيّةٍ أثارت ضحك الصّغير الممسك بذيل ثوب أمّه، فاستهجن ضحكه و نظرات تعجّبهم الطّويلة بقوله:

- ما بكم تستغربون حُلّتي؟ .... عليكم الاعتياد على مظهري الجديد من الآن فصاعداً.... فلقد صرت رجلاً مرموقاً ذو عزٍ

وسلطة وسيارة. قالها مشيراً بسبابته إلى سيارته الواقفة أمام الباب ليستطرد بعدها بقليلٍ -ألن تسلّموا على أبيكم أيّها الأولاد؟

سلّم الأولاد على أبيهم من دون أن ينخفض عندهم مؤشّر الدّهشة والحيرة، فالانقلاب الحاصل في هيئة الرّث القديمة لم تبدّل لباسه فقط بل وحال لسانه، بدا الأمر غريباً جدّاً وعصيّاً على استيعابهم فانصرفوا لغرفتهم ليكملوا تساؤلاتهم بتمتماتٍ منخفضة

بقيت دريّة أمامه تسابق دهشتها في استنباط الأجوبة للألغاز الحيّة أمامها، أتراه سطا على أحدى الشّقق السكنية في البناية التي يحرسها كناطورٍ؟أم أنّ قماره لم يخذله هذه المرّة وأغدق عليه مالاً وفيراً؟ أم أنّ هناك كذبةً كبيرةً في طريقها لسماعها وقد تكون أكبر كذباته على الإطلاق؟ إلى أن جاءها جواب التّكهنات قبل استكمالها في ذهنها فاستبق الأسئلة بجوابه الساحق:

- لقد تزوّجت يا دريّة .... إنّها امرأةٌ مقتدرةٌ على علم بزواجي منك وليس لديها أي مانع بزيارتي لكم وبقائي هنا زمناً فلديها عائلةٌ أخرى وأولادٌ وأحفادٌ أيضاً

قالها بهدوءٍ غريبٍ وهو ينفض غباراً افتراضياً عن بنطاله ذو الكوي الحادّ .لم تقو المسكينة على الرّد لما قاله ، كان فوق طاقة استيعابها ، فتركته يتأمّل الفناء بنظراتٍ مفتعلة الاهتمام وانصرفت إلى مطبخها لاستكمال تحضير الغداء.

عبثاً حاولت أن تستنهض في داخلها ما خمد من غيرةٍ وما قُتل من أحاسيس، مشاعرها البليدة لم تحرّك ساكنا إزاء الضّرة الجديدة .... وأيّة ضرة؟!.

امرأةٌ تفوقه عمراً بربع قرنٍ على الأقل ولديها من المال والجاه

ما يشتري الرّجال، هذا إن كان إبراهيم يُحسب عليهم في أحسن حالاته، ذاك الزوج الرّث الذي كلّما مدّ لها الزّمن يداً لإخوتها حاول بتره،فهل سيتلهف قلب سعيد إليها في طابورٍ آخر مفترض إن سمع بزواج صهره من تلك الضفدعة؟!

«تباً لك يا إبراهيم» قالتها في سرّها وهي تكمل سكب الطعام السّاخن في صحونٍ باردةٍ كأعصابها، نادت الجميع للغداء حول طبقٍ وضعته على الأرض،تحلق الأولاد حوله فرحين بطعامٍ طال اشتهاؤهم له فلم يعتادوا اللحم في طعامهم إلا بداية الشّهر حين تستلم دريَة راتبها من المصنع.

دخل إبراهيم استجابةً لنداء زوجته من الفناء الذي بقي يذرع أمتاره جيئةً وذهاباً بكامل أبهته، فأبدى تذمّره من جلوسهم على الأرض إلا أنّهم لم يلقوا بالاً لتذمّره منشغلين بصحونهم السّاخنة الفوّاحة برائحة توابل لا تقاوم، تلك الرّائحة التي جعلته يتخلّى عن مظاهر فخامته ليتربّع في مكانه المعتاد حول الطّبق منقضّاً بشغفٍ على الطعام بشهيّةٍ أثارت انتباه أولاده فلم يتوقف فمه ولولثانيةٍ عن المضغ إلا بالتهامه لأكثر من نصف الدّجاجة لوحده، فأنهى طعامه منتفخ البطن متكئاً على مسند القش فارداً أساريره مبدياً استعداده لنوم يومٍ كامل، وقبل أن ينهض لغسل يديه يتناول علبة التّبغ خاصّته التي عادت مستوردةً كسابق عهده فأشعلها عقب انتهائه من حديثه عن نومه الذي يغالبه لتُفسد عليهم غمامة دخانه جوّ طعامهم واستمتاعهم راضين بما أبقى لهم والدهم الشّره من الدجاجة .

استمرّ نفث الدخان حتى تلبّدت وجوههم بضبابٍ رماديٍ رقيق الأمر الذي استفزّ دريّة أكثر من نبأ زواجه وكأنّ هذا الدخان نفذ

إلى عقلها فأَصاب منها موجعاً أسدل ستار النّقمة على عينيها وهي التي قبل ذاك اليوم لم تعرف نفاذاً لطاقة صبرها وفجأة من دون سابق إنذارٍ تنتفض دريّة واقفةً لتُشهر صوتها في وجه زوجها المبالغ في وقاحته وبدأت برشقه بوابل من قنابل كلاميّة حابسةٍ للأنفاس أثارت ذعر الأولاد فتوقّفوا عن متابعة طعامهم والتصقوا بالحائط الباهت الطّلاء. شظايا كلماتها أصابته في مقتل فلم يرد ببنت شفة على عباراتها الكلاميّة المتلاحقة

- لم أعد قادرةً على احتمالك فوقاحتك زادت كثيراً عن حدّها. كيف سمحت لنفسك بالقدوم بكلّ صفاقتك لتخبرني بزواجك من أخرى ولتنقضّ على طعام أولادك فتجهز عليه وأنت من لا يفكّر إن باتوا يوماً على الطّوى ولم تدخل إليهم ولو ببعضٍ من فاكهة، أو حلوى لهذا الصّغير تفرح بها روحه أو حتّى هديّةً لابنتك المتفوّقة. مثلك لا يفكّر إلا في نفسه أكلنا أم جعنا. شقينا أم فرحنا. لا يهمك لأنّك لم تكن يوماً سوى الأب العابث المهمل والذي يرضى بعيشه عائل على ضفدعةٍ عجوز بينما أسرتك تنحت الصّخر لتعيش. بالله عليك خذ قبحك وغمامة تبغك وانصرف من هنا فلم أعد قادرةً على احتمال احتقارك لمعاناتنا أكثر من هذا

رشقت عباراتها دفعةً واحدةً من دون انقطاع وكأنّ الكلام اختمر في خاطرها منذ زمنٍ حتّى أنضجته رائحة الدّخان الهازئة بوجودهم حوله فانتفضت كلماتها صارخة في وجهه لأوّل مرة منذ زواجهما نافثةً على مسامعه ما لم يتوقّع يوماً سماعه. فلملم إبراهيم بقايا كرامته المهدورة ونهض مسرعاً كملسوعٍ ليبصق عليهم قبل انصرافه

تنضمّ حادثة الغضب كما يسمّيه أبناء دريّة إلى شريط

ذكرياتهم حول طبق الطّعام مضت ثلاث سنوات على تلك الحادثة وأبيهم متغيّبٌ عن حياتهم، ذهب دونما عودةٍ داحضاً جميع توقّعاتهم أحياناً بعودته، مرّت أيامٌ وأعيادٌ ومناسباتٌ كثيرةٌ راهنوا على حضوره فيها لتبوء رهاناتهم بالخسران حتّى تيقّنوا بأنّه كانت يتحيّن فرصةً مناسبةً لغيابٍ طويلٍ فجاءته تلك الثّورة على طبقٍ من ذهب ليشرع في غيابه الذي لم يترك في نفسهم أي ندمٍ أو اشتياق ولعلّهم لم يحسّوا بغيابه أصلاً.

حسن ما زال يتذكّر تلك الحادثة كلّما طبخت لهم أمّهم ديكاً فيملأ البيت بسرديّاتٍ مختلفةٍ لتلك الحادثة تنتهي دوماً بتقليده لبصق أبيه قبل انصرافه فينضمّ الجميع لمشاطرته فرحه ضاحكين لتنتهي دوماً في حلق أحمد بغصّة.

أحمد غدا طالباً في سنته الثّانية بكلّية العلوم السياسية في جامعته المطلّة على البحر اضطر لقضاء الصّيف كلّه في معمل الحجر الأسمنتي ليؤمّن مصاريف ورسومات التّسجيل وثمن الكتب بداية عامه الدّراسي، لم تساعده دريّة إلا بالقليل من المال بعد حمولتها الإضافية بغلاء المعيشة واحتياجات البيت المتزايدة، فقرهم يزداد حدّةً بزيادة أعمارهم ولكنّهم لم يركنوا يوماً للكسل فصار يداوم في إحدى الصيدليات مساءً ليؤمّن تكاليف دراسته مقسّماً وقته بين الجامعة والعمل، كان عمل الصيدليّة مناسباً لا يعيقه عن دوام الجامعة، يليق بشابٍ جامعيٍ متفوقٍ ويوفّر له وقتاً كافياً للدّراسة سيما أن غرفته الجامعيّة التي يقطنها مع ثلاثةٍ من الشبّان لا تتيح له الوقت المناسب للدّراسة . أكثر ما كان يحبّه في هذه الغرفة أنسامها العليلة القادمة من البحر.... أحمد عاشقٌ للبحر ولسلمى أيضاً، سلمى التي اختارها قلبه بعنايةٍ فائقةٍ ولربّما

لم يخترها بإرادته فجاءت كتوصيةٍ من الأقدار. فتاةٌ جميلة فقيرةٌ وبنفس سنته الدّراسيّة، كانا مشروع حياةٍ ناجح يحتاج الإرادة والكثيرمن الصّبروالأمل.

يقيس أحمد حياته بمسطرة إمكاناته فرغم معدّله الممتازفي الثانويّة العامّة الذي يخوّله لدراسة أحد فروع الهندسة التي تستهويه إلا أنّه اختارفرعاً أدبيّاً لا يثقل كاهله بأعباء ماليّة زائدة ويتيح له العمل بعد دوامه لتأمين مصروفه الشّخصي.

حين سألته مريم عن سبب اختياره لفرعٍ جامعي حديث مثل فرعه أجابها ساخراً

- أريد أن أصبح ديبلوماسياً في يومٍ ما لأظهرعلى شاشات التلفزيون في المحافل الدّولية

قالها من دون أن يعلم حقاً بأن السّماء كانت تحوك له منذ أمنيته تلك بردته الديبلوماسيّة وللأقدارفي حياتنا قولٌ وفعلٌ.

تجيبه مريم بعقدة امتعاضٍ على حاجبيها:

- ديبلوماسي شهيرٌ دفعةً واحدةً يا أحمد؟سيتوجّب عليك شراء بدلٍ وأحذيةٍ كثيرةٍ والأهم من ذلك كلّه أن تشتري تاريخاً جديداً خالياً من سمعة أبيك وجدّ أمّك.

- فيرد أحمد متهكماً: أخشى أن اضطرّلتبديل جلدي يوماً .

لم يبدِ أحمد تذمّره من الفقرعلانيةً بل اقتصرت مظاهر استيائه كلها في نقمةٍ واضحةٍ على أبيه أوكما أسمته أمّه في حادثة الغضب الشّهيرة « رجل الضفادع» .

كان يراه بأبشع صورةٍ لأبٍ متنكّرٍ متنصّلٍ من كينونته ومسؤولياته يُضاف إليها خيانته لأمّه وكحوله ومجونه. لم يحترمه يوماً على الرغم من إصرارأمّه على مظاهرالاحترام المخادعة. هو

ذكر مثير للخزي والشّفقة في آن ولا يستحق الأبوّة أبداً.

لا خوف على أحمد كما تقول دريّة فهو الهادئ الملتزم المحجم عن أي مظهرٍ من مظاهر التّرف الرّائج بين أقرانه الشّباب فلم تعهده يوماً مدخناً أو لاهياً مع أحدهم وكانت تحمد الله لعدم انتقال جينات والده له على الرغم من شبههما الكبير قامةً وملامحاً ....

خوف دريّة الوحيد كان ولا يزال على ابنتها الوحيدة مريم المتورّدة الوجه، لقد اختفت دماملها كما كان يسميها أبوها الغائب، استلزم علاجها زمناً طويلاً استنفذ صبر الفتاة فضاقت ذرعاً بالكمّ الهائل من الأدوية والمراهم التي تزدحم بها الطّاولة اللصيقة بفراشها.

لقد بقيت تستند إلى الحائط عينه طيلة دراستها الثّانوية ولم يبارك وجهها الرخّام الذي أملت بصقله لدماملها القبيحة فبقيت تتسلّخ كقشرةٍ جافّةٍ وجهاً وقلباً.

ثلاث سنوات قضتها في رحاب آمالها المعلّقة، تتوسّل للأقدار بزوال بلائها، دماملها لم تختفِ إلا لتترك وراءها خضيباً يلوّن صفحتها بلونٍ متورّدٍ ينفّر العين ويُحزن القلب فلم يسلم طبيبها من لعنات لسانها في آخر زياراتها له حين أمطرته بوابلٍ من الكلام المستهجن لعلاجه .... ردّ عليها بابتسامة استيعاب لفتاةٍ نازفة القلب وأعطاها مرآةً لترى بعينها بأنّ الأمور بسوئها تتجه للتّحسن وأن دماملها اللعينة ضاربة الجذور عميقاً في وجهها لم يكن سهلاً عليهما التّخلص منها.

مرّةً قاطعتها أمّها وهي تقرأ بكتابٍ مقلوب فأجابتها جواباً هزّما حسبته أمّها مستقرّاً في داخلها:

- لقد كنت في بلدٍ ملوّن، سكّانه يحملون عيباً وراثيّاً فهم لا يميزون الأحمر من الألوان

يا للشّقاء إن تخضّبت روحها بلون دماملها البائدة وهي القادمة على امتحانٍ يقرر وجهة حياتها ويحدد مصيرها.

تأتي الامتحانات مع بداية الصّيف فيودّع أحمد أمّه فجراً مقبلاً وجنتيها وكفّيها منطلقاً مع أوّل حافلةٍ منطلقةٍ للمدينة ليستقلّ بعدها حافلةً أخرى ليصل جامعته المطلّة على البحر. تمام السادسة صباحاً تهرع دريّة لإيقاظ ابنتها في أوّل أيام امتحان شهادتها الثّانويّة العامّة، لتفاجأ بمريم جالسةً في طرف سريرها وقد ارتدت ملابسها وتجدّل شعرها بضفيرةٍ طويلةٍ، مستبقةً سؤال ذهولها: « ساعة عقلي أيقظتني يا أمّي»

حارت دريّة في هيئة البنت الجامدة أكثر من اللزوم في بداية يومٍ كهذا، أتراه السكون قبل العاصفة؟ أم ثقةٌ مفرطةٌ بالنّفس؟ حاولت دريّة التّوصل لإجابةٍ شافيةٍ فسألتها وهما يتناولان طعام الفطور

- هل نمت جيّداً يا مريم؟ أراك هامدةً هذا الصّباح.
- نمت نوماً زاخراً بالأحلام فلا تخافي عليّ.
- ألست خائفةً من امتحان اليوم؟
- لا .... لا أحس بشيءٍ أبداً.

كلماتٌ ذرت القلق في قلب أمّها فغياب أي حافز أو أمل لاجتهادها جعل مصير الفتاة على بساطٍ للرّيح، لو أنّ تلك السنين منّت عليها باختفاء قروح وجهها لكانت الفتاة محلّقةً في سماء لا يحدّها بصرٌ ولا يدركها القلب. فهل انحصرت كل الحياة في ذهن هذه الصّبية بوجهٍ خالٍ من نازفات الوشوم؟!

- لعلّك يوماً ستشرقين كما الصّباح بعد ليل شتاءٍ طويلٍ يرسل لك من نوره ما يضيء أقبية روحك المعتمة.

تمتمت بها دريّة في قلبها المفطور حزناً على ابنتها التي تكابد ويلاً يقضّ مضجع حلمها وروحها ويخسف الأرض بأنوثتها الظاهرة على الرغم من الدمامل.

تبتسم الصّبية في وجهها كرسالة تطمين، فلقد تعوّدت البنت الصّدق معها وابتسامتها تعني إجابة هدوءً وسكينةً، لم تتعود المجاملة في شعورها منذ طفولتها وهذا ما أحلّ السّلام حقاً في خافق والدتها وعند عتبة الباب تقبّل الفتاة كفي والدتها راجيةً منها دعاءً مستمراً يساندها لتتخطّى عقبة يومها الأول بسلام ونجاح، فينطلق لسان أمها بأدعيةٍ وابتهالاتٍ رافقت مريم حتى غابت عن مرأى ناظريها ليستمر قلبها يلهج بذكرٍ متصّل مع السّماء لترأف بحال هذه المسكينة الحزينة لتطيب جراحها فتنتج باستحقاق الحياة.

يستيقظ حسن لوحده فيدخل عليها الغرفة ضاحكاً ليحكي لأمّه قصّة حلمٍ راوده طيلة نومه، لقد كان يطير على سحابةٍ ماطرةٍ ليستقلّ ظهر حمامة كبيرة بعد نفاذها هطولاً حيث أنّ الحمامة طارت به إلى مكان بعيد من سندس ٍأخضرٍ كاملٍ

ترتسم على وجهها ابتسامةً وادعةً وهي تطوّقه قائلةً: يا لأحلامك الطّائرة يا حسن!

يخطر في ذهنها خاطرٌ حرّكه حلم الصّبي:

- أتراه رؤيةٌ واقعةٌ لما سيؤول عليه حال الصّغير حينما يغدو شاباً.... عندما يستطيل عوده ويتعملق أمله؟! ....

هذا الصّغير الذي يجد لذّةً في اكتشاف الاختلاف بين أي

شيئين مهما تقاربا تشابهاً

هل سيكون غده مختلفاً كفلسفته وهل سيلتقفه حمام النعيم بعد نفاذ غمامته الهاطلة فقراً وعوزاً؟.... وبيدٍ حانيةٍ تمسح له شعره لتخبره بوجوب ذهابه معها لمصنع السجّاد فينتفض الصّبي فرحاً قافزاً من حضنها كغزالٍ نافر.

طريقهما إلى مصنع السجّاد لم يسلم من عثراتٍ لحسن الرّاكض أمام والدته كالحجل ولم تردعه تنبيهات أمّه عن القفز والتمرجح بالأغصان المحنية القريبة من استطالة يديه الغضّتين، حديثه المتكرر عن علبة الألوان المائيّة التي تستهويه مع أحد أصدقائه جلبت له وعداً ملزماً لأمّه بشراء علبة له بداية شهرها القادم ما أجبره على السّكوت بقية الطريق كنوعٍ من العرفان.

في المصنع أثار حسن فضول العاملات لخفّة دمه وظرافته الواضحة فجعل يحدّثهن عن المدرسة والحلم والطّائرة الورقيّة وعلبة الألوان الموعودة فأعطته إحداهنّ تفاحةً أسكتته لبعض الوقت ليعاود بعد التهامها لسردياته التي لا تنتهي ليمضي نهارهن مفعماً بضحكات الصّغير وثرثرته وأصداء لقبلاتٍ جمّةٍ تطبع على وجنتيه النضرتين، سُرّت دريّة في نفسها للحبّ الذي قوبل به الصّبي وتفاءلت بأن يستمر النهار على حاله من السّعادة فقلبها اللاهج دعاءً لابنتها لن يسكُن إلا حين عودتها للمنزل. لتطمئنّ بأنّ مريم اجتازت أول أيّامها بنجاح، حديث التّفاحة وعلبة الألوان أسبغت على مشوار عودتهم نكهةً طريفةً تخفف توتر دريّة وقلقها المتزايد فما إن وصلت البيت حتّى نادت لمريم بصوتٍ يشوبه التّرجي: هل عدت يا مريم؟

فيأتيها صوتها عميقاً من الدّاخل مجيباً: أنا هنا منذ فترةٍ

والأمور حقاً بخير

حقاً بخير.... كلمات كافيةٌ لطمأنة نبضها المتسارع خوفاً من نوبة ألم نازفةٍ لدمامل ابنتها الدّاخليّة، إذاً لقد مرّ يومهم بسلامٍ حقاً.

مساءً تحت شجرة الدرّاق وعلى حصيرٍ قديمٍ، أنهت دريّة أغنيتها المألوفة الخاصّة بحسن ليغفو الصّبي في حرجها مستسلماً لأحلامه الطّائرة. صوت مريم يأتيها من الدّاخل وهي تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً، نبرتها وإن بدت واثقة إلا أنّها تختلف عن نبرتها قبل ثلاث سنين حين كان الأمل يلوح لها من بعيدٍ بوجهٍ مصقولٍ ومرآة جميلة فتعلق الحسرة في حلقها على فتاةٍ تعبّ ألم الكون في صدرها لتزفره زفرةً تلو أخرى وفي كلّ مرةٍ تزفر نشيجاً لا يخفى على أمّها، نشيجٌ دعت لأجل زواله ما تبقّى من سهرتها تلك ساهيةً متأملةً في وجه القمر الذي تحتضنه.لتعود مغنيّةً أغنيته دونما وعي:

- يا قرّة عيني يا حسن، يا نور عيني، يا وجه القمر يا حسن

لله درّ هذا الصّغير.... ما من بشارةٍ إلا وأتت معه بارقةً في محيّاه، فمنذ ولادته ودريّة تُفتح أمامها أبوابها المقفلة دوماً ، عملها في مصنع السجّاد، وزيارة أخيها إحسان لها في بيتها عقب ولادته والفرح المناط بقاؤه بوجوده بينهم فكأنّه الخيط الرفيع الذي يصلهم بوجه الحياة الآخر البعيد عن التكدر المشرق بألوانٍ حقيقيةٍ للفرح.

مرّ امتحان مريم بسلامٍ كما تمنّته أمّها ومضت أشهر الصّيف كما رغبتها مريم بعيدةً عن العيون والنّور، هو حبسٌ اضطراريٌّ أذعنت له طائعةً علّها تخفف من حدّة السّهام الموجّهة لها،

نظراتٍ تخترق جلدها وروحها فتزيد دماملها الدّاخليّة نزّاً وحرقاً. ذا مساءٍ وفي فناء البيت وبينما كانت درّية وابنتها تعصران كميّةً ضخمة من البندورة من قطاف نهاية محصولها بأرض الخرنوب، يدخل حسن من باب الفناء مسرعاً هاتفاً باسم أخته: « مريم لقد نجحت يا مريم» وعند استسفارٍ دقيقٍ من أمّه أجابها لاهثاً من شدّة حماسه:

- لقد اتصلوا من الثّانوية بمنزل المختار وأعطوه أسماء النّاجحين واسم مريم بينهم ومعدلها جيد جداً .... مباركٌ لك يا أختي ولكنّي أريد حلوى الآن ...أريدها الآن

قبلتها أمّها على جبينها مهنئةً لها بنجاحٍ باهرٍ لتترك كومة البندورة تصارع الفرح بيدي مريم ودخلت غرفتها لتعود بمبلغٍ مالي كافٍ لإرضاء الفتى بعلبةٍ كاملةٍ من الشوكولاتة، يتفحّص الفتى نقوده بإعجابٍ ممتنّاً لكرم أمّه فيتركهما مهرولاً صوب الباب قبل أن يلتفت إلى مريم التي عاتبته على قبلةٌ وجب عليه طبعها على خدّها قبل ذهابه فقفل عائداً راضخاً لطلب أخته المحق والتي قبلتّه قبلةً طويلةً أهدت خده بعضاً من تورّد وجهها.

بعد برهةٍ عاد حسن بعلبة الشّوكولاتة، دخل الفناء مهللاً بإنجازه ومروجاً لالتهامه الحتمي لعلبة الشوكولا قبل نومه، أحمد مازال جالساً بثياب العمل قرب أخته النّاجحة المحنيّة الظهر فوق كومة البندورة،استهجن الأمر قبل فتحه لعلبة الشوكولا فتقدّم من مريم طالباً منها غسل يديها لتكون أوّل من يفتحها فهي النّاجحة والتي تستحق الحلوى فعلاً فغمزته كإشارةٍ منها على الإذن له بفتحها، أحمد أراد منعه مداعباً فلم يسلم من ردّة فعل الصّبي المتلهّف للشوكولاتة فعاجله بحبةٍ من الطماطم النّاضجة

لوّنت ثيابه ووجهه بالأحمر المتورّد كمريم لينفجر أحمد ضاحكاً راكضاً وراءه في وهما يدوران دوراتٍ متتاليةٍ أتعبت الفتى فلجأ لأمه في المطبخ نهاية المطاف للاختباء ولكن من دون أن يحصل أحمد منه على قطعة شوكولاتة في تلك الأمسية حتّى رشاه بقبلةٍ طويلةٍ كقبلة مريم ليحصل على مراده.

في المفاضلة العّامة اختارت مريم فرعاً نظرياً كأخيها أحمد الذي استبشر بنجاحها والتحاقها بكليّة الحقوق في جامعته المطّلة على البحر، فرع قليل التّكاليف ولا يستلزم متابعةً دائمةً في مطلق الأحوال وعليه فقد تقضي أوقاتاً طويلةً في البيت كنوعٍ من توفير المصاريف،بداية العام الدراسي هذه السّنة مختلفٌةً عن سابقاتها فاحتياجهم للمال أكبر بكثيرٍ هذه السّنة، ثمن كتبٍ ورسوم تسجيلٍ ماعدا تكلفة سفرهم في كلّ مرةً، فاضطرّت لبيع كامل محصول الزيتون بعد عصره لتأمين احتياجات الأولاد وشراء ثيابٍ تليق بالصّبية الجامعيّة وسداد بعض الدّيون المتراكمة في الدّكان والتي صار أمر إغفالها مستحيلاً.

حسن اعتمد على نفسه في تأمين مستلزمات بداية عامه فشهور الصيف المنصرمة قضاها مع زمرةٍ من رفاقه في الحرج الكبير بقطاف الزعتر البرّي لبيعه بعد تجفيفه تحت أشعة الشمس لإحدى الشاحنات الجوّالة في ذاك الرّيف فحصّل من المال ما أذهل أمّه التي حاولت رفضه مراراً من دون جدوى، لقد آثرت أن يبقيها لنفسه بعد كدّ وعناء تلك الأشهر فكان يجيبها دائماً بالرّفض، ما جعل دموعها تحتقن غاضبةً وحزينةً في آن على طفولة الفتى التي أزهقها التعب والكدّ

وحيدين ذا مساءٍ فاجأها بسؤاله:

- أما من خبرٍعن أبي يا أمّي؟

- لا يا ولدي فبعد وفاة جدّتك أم زيدٍ رحمها الله وبقائه مرغماً طيلة أيّام العزاء لم يعد أبداً إلا أنّ أحد العائدين من البلد المتجاور رآه مع عجوزه المتصابية في إحدى الشّاليهات المطلّة على البحر، يبدو أنّه يُفضّل حياة الرّفاهية ولو كان بصحبة ضفدعة

فانفجر الفتى ضاحكاً من كلام أمّه قائلاً:

- ضفدعة ورجل الضفادع.... يا لك من ناقمة يا أمّي !

أرض الخرنوب

ذات صباحٍ.... وعقب انتهاء مريم من امتحاناتها الدّراسية الثّانية بنجاحٍ، أفاق الجميع على صوت غنائها في البيت، الصّبح ما يزال يرندح أولى زقزقاته في الخارج والشمس متكاسلةٌ تفرد نورها ببطءٍ على الهضبة المقابلة للقرية ومع ذلك التحفيز المثير للدّهشة غير المسبوق من صاحبة الوجه المتورّد نهضوا جميعاً ليتبينوا ماهيّة الأمر وما إن وصلوا غرفة الجلوس دفعةً واحدةً حتّى فوجئوا بالقمر المنير في تمام كماله يغني في غرفة جلوسهم الوحيدة، بقيّة الاحمرار في خدّيها وذقنها اختفت نهائيّاً، لقد غدا لديها صفحةٌ سماويةٌ في ماءٍ رائقٍ، فيخاطبها أحمد بفرح من رفُعت عنه مظلمةٌ سماويّة

- هل نظرتِ اليوم إلى المرآة يا بياض الثّلج؟
- لا .... لم أنظر. لتستطرد بعد قولها وكأنّ الخوف فعل فعله في قلبها: لماذا؟!
- اللهم صلِّ على كامل النّور.

قالها حسن بكلّ طاقته على الإعجاب بوجهٍ قاتلت أخته عمراً لاستحقاقه، فتتلعثم الصّبيّة وتجفل يداها وتهرع من أمام ذهولهم صوب غرفتها حيث المرآة التي تُبغض ليسمعوا من الدّاخل صوتاً لم يسمعوه من قبل في حياتهم، كان دوياً كهزيم رعدٍ حبسته السّماء دهراً ثمّ أطلقته فغصّ بشهقته الأولى ليزفر بعدها موجاتٍ ارتداديّةٍ هادرةٍ، صوت الفرح الوليد للتوّ.فرح

طال انتظاره زمن دماملٍ لعينٍ

- الدّمامل اختفت للأبد يا مريم.

قالتها دريّة لابنتها وعيناها تمطران فرحاً وشكراً لله الذي ما توقّفت يوماً عن مناجاته ليحلّ عقدة هذه الصّبية بشفاء قروحها الملتهبة وجهاً وروحاً، فعقدت العزم في طويّتها للذّهاب للمزار القريب وحرق البخور لمباركة عهد الصّبية الجديد الفارِّ من الألم.

حسن وبعد كفكفةٍ لدمعةٍ خفيّةٍ في قعر عينيه انطلق مسرعاً لدكّان القرية ليجلب لأخته بعض الرّاحة المسكّرة التي تحبها بنقوده المدّخرة لشراء علبة الكولا التي راودته كثيراً في أحلام يقظته ليعود بعد زمنٍ لم يكف مريم لتُعيد شهيقها إلى نصابه ببشارةٍ يعادل فرحها فرحهم الأوّل فيخاطب أحمد وهو يناول مريم قطع الرّاحة المسكّرة

- لقد اتّصلوا بالمختار من الجامعة ليخبروه بأنّك قُبلت في الماجستير لتقديرك الممتاز وعليك مراجعتهم في أقرب وقت.... قابلته في طريقي للدّكان، كان في طريقه إلينا لإخبارنا بذلك وأيضاً.

سكت الفتى مرغماً،ثمة كلام علق في حلقه فألحّت أمّه عليه لإكمال حديثه

- إنّه أبي .... اتّصل بالمختار ليخبره بأنّه عائدٌ بعد فترة وجيزةٍ لبيع أرض الخرنوب وطلب منه أن يبحث له عن مشترٍ لها بسعرٍ مناسب

ياالإبراهيم الذي ما جاء فرحهم مرّةً إلا وصفعه ليرديه مضرّجاً بتأوّهات خذلانه لهم عضّت دريّة على شفتها حتّى كادت تدميها واختنق صوت مريم الصّارخ فجأة، لقد جُلدت ترانيم سعادتهم

بغثاءٍ قبيح تفوح منه رائحة خمر قديمة.

لملمت دريّة ما انفرط من عقد سعادتها بغتةً متجهةً إلى ولدها لتعانقه مهنّئةً له بالنّجاح السّاحق. النجاح الذي انبثق من تحت انقاض فقر مدقع في ظل أب متنصل من واجبه الأخلاقي والإنساني تجاه عائلته حتى غدا عاراً لصيقاً بهم يخافون إعلانه على الرغم من تبصّرهم به.

لفت منديلها حول رأسها وهمّت بالخروج وقبل انصرافها طبعت قبلة على جبين مريم وأخرى على وجه انتصارها المبين في مرآة القبح خاصّتها ليبادرها أحمد بقوله

- إلى أين يا أمّي؟

- لبيت المختار، لاستيضاح الأمر منه فيما قاله ذاك التّعيس.

حاول أحمد إقناعها بمرافقتها إلا أنّها أصرّت على ذهابها لوحدها، كانت تعتبر الأمر مسألةً شخصيّةً لا علاقة لأبنائها بها، خرجت من باب الفناء باتّجاه بيت المختار ترتّب أفكارها وتنضّدها لكي تخرج بقوة كافية لعدول المختار من مساعدته لها، كانت تمشي على قلبها فهذه الأرض لا تقلّ قيمةً عن أحد أولادها.

مسرح أحلامها وتخيّلاتها وبئر أسرارها الوفية الوحيدة، لطالما شكت لهذه الأرض وهي تخدمها سقايةً وتهذيباً وحصاداً جور الأهل والزّوج وخيبة الأحلام وفقر الشّوق، الأرض كانت صنواً لهم بفقرهم فلم يكن نصيبها من الخصوبة بأفضل حالٍ منهم ولكنّها تبقى وتدهم الوحيد في واقعهم المرير ونصيب أولادها من إرث أبيهم المغرق في مستنقعه لاهياً مع ضفدعة.

المختار الجالس في غرفة الهاتف العمومي لم يخف عليه ما تحمله دريّة في أعطاف روحها، الاضطراب يمهّد خطواتها القادمة

من بعيد وشرارة الغضب رسمت خطوطا واضحة في خريطة محياها على الرغم من محاولتها لإخفائها . فوافاها عند الباب قبل وصولها مرحباً بها ترحيباً حاراً كخطوةٍ استباقيّةٍ لتفادي مواجهةً محتملةً بينهما وصبّ لها فنجاناً من القهوة احتفاءً بجارته ، جلست دريّة محاولةً ضبط لجام انفعالاتها بعد أن سلّمت عليه كما تقتضي اللياقة ليبتدئ حديثه معرباً عن استغرابه من مخابرة زوجها التي صدمه فحواها فزوجها يعيش حياة رفاهيةٍ في لبنان ولا حاجة له ببيع الأرض كما أعرب عن تضامنه معها معتبراً أنّ الأرض ميراثُ شرعيٌ لأولادها ولا يحق له بيعها مهما تأزّمت الأمور.

هزّت دريّة رأسها موافقةً لقوله لتبدأ عقب انتهائه من رشق عباراتها دفعةً واحدةً مرتّبة

- حضرة المختار، ما أرجوه ألا تلق بالاً لطلب إبراهيم وألا تساعده ببيع الأرض فهي كل ما نملك في هذه الحياة وميراث الولدين مع البيت فإن باعها لن أجد ما أورّثه لهما.... هذه الأرض لن تُباع وأنا على قيد الحياة وإن عاود مخابرتك أخبره بمقولتي هذه والتزم طرف الحياد بيننا وسأكون شاكرة لك

أنهت كلامها دفعةً واحدةً من دون انقطاعٍ لترشف بعده ما تبقّى من فنجانها دفعةً واحدةً ونهضت من كرسيها لتسلّم عليه شاكرةً لضيافته وترحيبه فودّعها مثل ما استقبلها من حفاوةٍ واعداً إياها بالتزامه الحياد في هذه القضّية.

مساء ذاك اليوم وبعد أن وأدت دريّة قهرها عمداً في أضلاعها راغبةً بالاحتفال بما حققه أبناؤها من انتصار على جور الحياة عليهم، أعدّت لهم قالباً من الحلوى ودعتهم لاحتفالٍ تحت شجرة

الدرّاق متجاهلةً ما يعتمل في رؤوسهم من أسئلةٍ عالقةٍ متكررةٍ طيلة ذاك النّهار بعد جوابها الدبلوماسي الفقير المتكرر لهم حين واجهها سؤالهم البديهي بعد عودتها من بيت المختار و اقتصرت إجابتها على عبارةٍ يتيمةٍ متكررة: « الأمور بخير»

أما أحمد فلم يخفِ عليهم وجوب استقالته القسريّة من معمل أبي صالح ليسافر صباح يومهم التّالي لجامعته لاستكمال أوراق انتقاله للعاصمة حيث دراسة الماجستير تتطلّب منه المداومة في السّفارات والمكاتب الحكوميّة الرّسميّة هناك

وحين أحسّ بالقلق يحوم حول عيني والدته أجابها مطمئناً بأنّ لديه أصدقاءً هناك سيساعدونه في تأمين سكنٍ مناسبٍ وأنّ الدّولة ستصرف له راتباً يكفي مصاريفه كلّها وهنا تحمّس حسن للذهاب بدل أخيه لمعمل أبي صالح على الرغم من حداثة عهده وصغر سنينه الثلاثة عشرة وأمام رفضٍ محكمٍ من أمّه وأخوته أذعن لهم في الظاهر بينما بقي يبيّت النيّة لمفاتحة أبي صالح بالأمر.

أطياف سلمى تتلاحق في بقعٍ للضوء على زجاج النّافذة المقابلة لسريره، سلمى التي أحب، والتي ساعدته في تأمين عملٍ له في صيدليّة قريبٍ لها، كانت دائماً إلى جانبه، مصدراً لسعادته وانعكاساً لحلمه فرغم الفقريمتلك حبّها الذي يعادل كنوز الأرض كمعادلةٍ رابحةٍ أمام فقره وأمام استحقاق غناه بها كيف سيضني قلبها بعوزٍ لرؤيته ويرسله في غياهب التّوق كل ليلةٍ قبل أن تخلد لأحلامها مع أطيافه. لعلّ الحروف في غده تواتيه بكلام يستكين له قلبها وتركن غليه روحها المحبّة.

شعرها الأسود الطّويل لم يخفِ غمام الحزن المتراكم فوق

جفنيها إيذاناً بهطلٍ قريب أطرقت برأسها تستمع إلى كلامه بهدوءٍ عاصفٍ واستجداءٍ أخرس، عيناها المتوسّلتان تلتفتان يميناً وشمالاً علّها تجد مخرجاً من طوق خناقها المحكم

جعلت تفرك يديها الباردتين طويلاً باحثةً عن دفءٍ نائمٍ تحت جلدها، وبعد مقاومةٍ وردعٍ طويلين ذرفت أولى دموعها المكابرة أمام أحمد الذي توقف عن كلامه ليمدّ يداً يكفكف بها دمع حبيبته، أمسك يديها بكلتا يديه لعلّ الدّفء يتسرّب لمسامها فيهدأ برد شرايينها ليقول لها بلهجةٍ تنضح عشقاً

- هوّني عليك يا حبيبة .... سنبقى معاً كما كنّا وسآتي إليك بزياراتٍ دوريّةٍ كلّما سنحت لي فرصةٌ للمجيء .... اهدئي يا صغيرتي فأنا لا أتحمّل رؤيتك بهذا الشّقاء

فتجيبه بكلّ طاقتها على الحبّ والصّبر:

- لا عليك أيها الحبيب، سأنتظرك حتى تكمل دراستك لنبني حياتنا القادمة على أساسٍ صلبٍ يكفينا وأولادنا شرور الفقر ولا بأس ببعض الشوق فهو يصقل الحب ويلمّعه.... لا بأس علينا يا حبيبي.

كلماتها الجزعة القويّة في آنٍ غلبت كل مفرداته فاكتفى قبل انصرافهما من مقصف الجامعة بعهد الوفاء والإخلاص والحب الذي لا يتبدّل مهما حلكت الأيام والظّروف وبيدين متشابكتين كحال قلبيهما انطلقا في طريق الجامعة المؤدّية إلى الشّارع العام ليستقلا حافلةً متّجهةً لمرآب السيّارات حيث استقلّت سلمى إحدى السيّارات المتوجّهة إلى قريةٍ ريفيةٍ محاذيةٍ، جلست بجنب النّافذة الزّجاجيّة تنظر إليه بمرارةٍ وادعةٍ قانعةً بفراق سينهش روحها شوقاً وجوىً، تمنّت وقوف الوقت حين شعرت بالضّعف

يتسرّب لحشاشتها، يدها الباردة لم تعد قادرةً على التّلويح له أما قلبها فقد بدأ يلوّح لابتعاده منذ أن أفلت يدها، هطلٌ آخر بلل قميصها عند إقلاع المحرّك فأمنيتها بوقوف الوقت نُحرت بدواره وبلحظةٍ قاسيةٍ تبدأ صورة الحبيب الواقف الملوّح لها بيده بالتّحرّك فتندفع ملتصقةً بالزّجاج محاولةً إبقاء عينيها الباكيتين في مجال رؤيته ولكنّ الصّورة انحسرت على الرغم من أنف التّمني ورغم لحاقه بالسيّارة المتحركة.

كلوحٍ من صفيحٍ عاد أدراجه للجامعة مشى في ردهاتها فاقد الحس، أكمل تواقيع أوراق انتقاله للعاصمة وسلّم عهدته الجامعيّة وانطلق نحو مرآب السّيارات تاركاً وراءه ذكرياتٍ عالقة على مشجب أملٍ وترقّب وقلباً مفتتاً بين الأماكن التي جمعته بسلمى يوماً، وحدها مريم من كانت تثير قلقه الباطن فلقد اعتادت الفتاة رفقة سفره ولكنّ وجهها الزّجاجي الجديد سيضمن لها التّوازن الذي يرغبه لها في سنينها القادمة بدونه ولعلّه فكّر ملياً طوال الطّريق بأن مشاكل فقرهم ستُحلّ بتخرّجه وأخته سويّاً فيزيحا أعباءهما عن كاهل أمّه ليبدأ دورهما في مساعدتها لتعليم أخيهم الأصغر ليحصّل درجةً تضعه على طريق مستقبلٍ بعيدٍ كليّاً عن الحاجة.

هواجسه أغفلت عنه طول سفره فلم يحسّ بطول المسافة بين المدينتين فوصل قبل انتهاء هواجسه الطنّانة فاستقلّ الحافلة المتجهة للبلدة فور وصوله متوجّهاً لبلدته ليجد أمّه في الفناء منهمكةٌ بنشر الغسيل وهي تبرطم بعباراتٍ غير مفهومةٍ وعندما حاول استيضاح الأمر منها عرف بأنّ حسن قد نفّذ ما عقد عليه العزم ليلة الأمس والتحق بالعمل بدل أخيه عند أبي صالح

قالت له أمّه بحرقةٍ بالغةٍ: «مازال يافعاً .... مازال الشّقاء مبكراً عليه»

وقبل أن تنهمر دمعتها الثّانية ألماً على صغيرها الذي لا ذنب لطفولته البريئة بمصيرٍ كهذا سوى أنّه إبنٌ لإبراهيم، يدخل الفتى قادماً من معمل أبي صالح متورّد الخدين متعرّق الجبين يلقي عليهم التّحيّة كالكبار تاركاً باب عمره مواربا ًقليلاً خلف طفولةٍ ما زالت تسترق النّظر إليه من ورائه.

شهرٌ كاملٌ من شهور الفقراء مرّ على دريّة مليءٌ بالتّعب والتّرقّب، عملٌ وكدٌّ وحساباتٌ لا تنتهي لمصاريف مشرّعة الأبواب، الأولاد تشاغلهم الحياة ولا تشغلها عنهم وحده حسن من كان يدمي قلبها حين يعود وثيابه ملطخة بالأسمنت تلوح على وجهه أمارات رجولةٍ مبكرةٍ فتلعن الفقر في سرّها من يُجبر فتىً يافعاً لم يقوَ عوده بعد على تحمّل ما لا يطيقه من في سنّه أو ربّما لم يسمعوا به بعد.

شهرٌ مضى على مخابرة إبراهيم الأخيرة ختمه قدومه المفاجئ، يطرق على باب الفناء ثلاث طرقاتٍ متتالية قبل أن يُفتح بالمفتاح، لم تأبه دريّة للأمر لظنّها بأنّ القادم هو مريم التي أرسلتها لشراء بعض الحاجيّات من دكّان القرية حتّى تناهى إلى مسمعها صوتٌ تعرفه جيّداً على الرغم من غيابه طويلاً، إنّه إبراهيم وأية ريح شؤمٍ أرسلتك إلينا يا إبراهيم !، تتوجّه دريّة صوب الفناء يستبقها فضولها أتراه قَدِمَ ذاعناً بما أخبره به المختار على لسانها ؟! أم قدم ليفرض مشيئته بالقوّة؟!

حديثهما الحتمي سيعطيها الإجابة الشّافية والتي ترغب أن تكون كما تأمل وتحب

- كيف حالكم يا دريّة؟

- بخيرٍ.... من دونك

- سأبيع الأرض، أتيت لأخبرك بهذا، ما وصلني على لسانك من المختار لم يثنيني عن رغبتي، أنا صاحبها ولي مطلق التّصرف بها وعليك احترام قراري هذا

- لن تُباع الأرض وأنا على قيد الحياة يا إبراهيم، الأرض ليست لك إنّها من نصيب ولديك اللذين رميتهما يقارعان الفقر وحدهما بينما صرفت عمرك عابثاً بعمرك وأعمارهم، الأرض لا تعنيك لأنّك لم تفلحها أو تزرعها يوماً ولم تجلس قبالتها لتحدّثها عن مرار الفقر، هي نافذة هوائنا الوحيد وعارٌ عليك خنقنا بعد كلّ ما طالنا منك ومن سيرتك العالقة في أذهان الناس سكراً وقماراً وعربدةً

افترّت شفتاه عن ابتسامةٍ ساخرةٍ قبل أن يجيب بكل برودٍ لا يُصدّق

- سأبيعها وانتهى الأمر.... وفّري كلامك كلّه فلن أعدل عن رأيي أبداً

- وقد أُشهر مخالبي بوجهك بأيّة لحظة، لست ضعيفةً للقدر الذي تتوقّعه، ومن اختار العذاب ينهيه متى شاء والخيار متروكٌ لك إمّا العودة من حيث أتيت ناسياً ما أتيت من أجله أو عليك توقّع ما لم يخطر على بالك يوماً

- يا لوقاحتك أيتّها المرأة.... غداً ستباع الأرض وهذا قرارٌ مفروغٌ منه

قال مقولته هذه واستدار نحو الباب الذي جاء منه ماشياً متمتماً بكلام لم تتبيّنه زوجته التي باغتته بقولها قبل أن يُغلق الباب وراءه: « قد أقتلك يا إبراهيم» أوقفته كلماتها قليلاً عن

مسيره ولكنّه عاد ليطلق ضحكته ساخراً قبل أن يتوارى وراء الباب المغلق

لم تخبر دريّة أولادها عن حديثها إلى والدهم الذي عاد مهدداً بعد غيابٍ طويل ليسلبهم آخر أملٍ متبقٍّ لهم من هذه الحياة. فالأرض لم تكن ميراثهم الوحيد في الحياة بل كانت عزاً وثباتاً لهم في عاصفة أيّامهم، كانت خيطاً لا مرئيّاً يربطهم بواقعٍ لا يملكون منه سوى كفافهم، شيئاً يضفي نوعاً خاصّاً من طمأنينةٍ لا تشعر بها إلا حين يحيق الخطر بفقدانٍ وشيكٍ لها

مريم التي أصّرت على معرفة ما انتاب أمّها بعد غيابها القصير عنها لم تُفلح في التكّهن بعودةٍ غير متوقّعةٍ لأبيها الغائب منذ زمنٍ بعيدٍ، فآثرت عدم الإلحاح عليها طويلاً بسؤالها وتركتها تنقي حبّات الحنطة في طبق أمامها تفردها مرّاتٍ ومرّاتٍ من دون أن تنزع منها شيئاً.

لم يصدّق أحدٌ ما حصل ذلك اليوم، بقي حديثاً استثنائيّاً غريباً يُدار على موائد سهرات أهل البلدة، أمرٌ لم يحصل قبلاً ولم يعهده أحدٌ في منطقتهم تلك، حدثٌ مثيرٌ للاستغراب والدّهشة في آن يفضي فحواه إلى أنّ القهر يجعل الإنسان قاتلاً إذا أحكم فقره الخناق عليه، وقبل أن تختنق دريّة كانت ستردي زوجها قتيلاً في الأرض التي أصر على بيعها عنوة.... فكان ما كان.

لم يصدّق إبراهيم وعيد زوجته له بعد انتهاء سجالهما الغاضب بل رأى فيه نوعاً من غرورٍ مفبركٍ لثنيه عن مراده فلم يأخذ كلامها على محمل الجد وقفل عائداً إلى بيت أمّه المتوفّاة حيث قضى ليلته تلك ليذهب صباحاً لبيت المختار ويجري اتصالاً هاتفيّاً وحيداً، اتصالٌ سيعقبه ما سيقلب عليه ظهر المجن،

سيريه ما لم يحلم برؤيته ليرُدّه على أعقابه خائباً يجرُّ أذيال أوهامه وغلوّه.

استفاقت دريّة ذاك الصّباح على حلمٍ مريبٍ، سربٌ من الغربان النّاعقة تحوم فوق أرض الخرنوب. أرعبها الحلم ما جعلها تتخلّف عن الذّهاب لعملها في المصنع وبقيت مع مريم في البيت بعد انصراف حسن لعمله عند أبي صالح وأحمد الذي استقّل ليومه الثاني الحافلة مسافراً إلى العاصمة لاستكمال إجراءات التحاقه بدراسة بالماجستير.

إبراهيم المطمئن لغياب زوجته المؤكّد عن البيت وفد إلى الأرض من نهاية الزّقاق المؤدّي إليها من الطّريق العام متأبطاً زبونه القادم لابتياعها. جالا معاً أرجاءها ليدلّه إبراهيم على حدودها مع الأراضي المحاذية لها وساقية الماء التي تحدّها من الشّمال وأشجار الزّيتون الفتيّة فهزّ الزّبون رأسه دليل رضىً عمّا رآه من جمال ٍ يحيط بها فهو كما أخبر إبراهيم لا يريدها لزراعةٍ معيّنةٍ بل يريدها لمشروعٍ محددٍ في رأسه. وافقه إبراهيم على نيّته تلك فالأرض تطلّ على مناظر طبيعيّةٍ آسرة وستجلب له مالاً وفيراً إن نجح بمشروعه السيّاحي بها. هذا ما افترضه إبراهيم بعقله وإلا فلم يغامر شخصٌ غريبٌ مثله بشراء أرضٍ في بلدةٍ كبلدته لولا جمال الطّبيعة الشهير فيها.

كانت الشمس تميل لقبّة السّماء حين انتهت جولتهما في الأرض، مريم المشغولة بتنظيف الغرفة انتبهت متأخّرةً لوجودهم فيها على الرغم من النّافذة المفتوحة فنادت أمّها من المطبخ والتي أتت تسابق ساقيها الهواء لرؤية ما تخاف. ولكنّها رأت بأمّ عينها ما تخوّفت منه فإبراهيم لم يأبه لتهديدها واستهتر للمرّة

الألف بعذابها ووجودها فصاحت أمام ابنتها الواجمة ونفسها بأنّها ستردعه ولو كلّفها الأمر حياتها. تنتفض كالمجنونة مهرولةً لغرفة الأولاد حيث تخبّئ وراء كومة الوسائد واللحف القطنيّة الزّائدة المنضدة فوق بعضها بعناية. شيئاً أخفته عن أعين أبنائها طيلة السنين الفائتة منذ وفاة جدّتهم أم زيد. بندقيّة جدهم التي أغفلتها عيون الجميع. لم تتفكّروقتها لما أحضرتها معها نهاية آخر يومٍ للعزاء لربّما أمِلت بتعلّم أحمد للرّماية يوماً ما.

تناولت من درج الطّاولة طلقةً جاهزةً ولقّمت بندقيّتها وأطلقت لساقيها العنان للحاق بهما قبل مغادرتهما. عارضتها ابنتها المذعورة أمام الفناء راجيةً منها التمهّل على ماهي مقدمةٌ عليه فأزاحتها بيديها عن طريقها وتابعت سيرها كلبوةٍ جريحةٍ تنزف قهراً وألماً وأرضاً باتت قاب قوسين أو أدنى من ضياعٍ محتّم. وأمام منظر الأم الجريحة الناقمة على عمرها البائد ظلماً وتحسّراً لم تستطع منع نفسها من اللحاق بها ولكنّها قبل انعطافها بنهاية الزّقاق وراءها طرأ خاطرٌ في فكرها بدّل طريقها لتتجه شمالاً للطريق العام.

ينتبه الزّبون لغرابة ما يراه. امرأةٌ متوسطة العمر بهيّة الطلّة على الرغم من التّعب ثائرةٌ تحمل بندقيّةً وتتجه صوبهما. فيومئ لإبراهيم الذي مازال يسهب في حديث منمق لإغراء الزبون وحماسته بالتسرع لإكمال البيع والشراء بينهما بالالتفات ليُصعق إبراهيم لفداحة ما يراه. زوجته التي استخفّ بتهديدها ووعيدها صوّبت فوهة بندقيتها صوبهما مخاطبةً إيّاهما بلهجةٍ تنضح غضباً ونقمةً:

- أرضي ليست للبيع. خذ ضيفك وانصرف قبل أُطلق النّار

تبلل وجه الزّبون بالعرق المتصبب من أعلى رأسه الأصلع وارتجفت أوداجه من الهلع ناقلةً الخوفّ لكرشه بحركاتٍ اهتزازيّةٍ متواليةٍ منتظمةٍ أجبرته على الدوران حول نفسه لإخفاء ارتيابه،فأبدى قلقه لإبراهيم إزاء مسألةٍ عائليّةٍ لا علاقة له بها وعندها أحسّ إبراهيم الذّاهل الفاغر الفاه أمام زوجته الثابتة القلب والبندقيّة، من تُشهر أمامه وبكل جسارةٍ سلاحاً لم يُخمّن يوماً أن تفكّر بحمله، أنّ صفقته ستبوء بفشلٍ حتمي، فأراد أن يقلب السحر على الساحر وانقضّ عليها ليجهز على اتّزانها بخوفٍ مباغتٍ يقوّض أركان شجاعتها وقبل إتمامه لخطوته المرتعشة الثّانية تجمّد أمام صراخٍ صفعه من اتّجاهين متقاطعين، صراخ الزّبون الذي انبطح على الأرض معفراً بذعره خائر الحس والقوى وصراخٌ منبعثٌ من نهاية الزّقاق المتّصل ببداية الأرض أمّا حواسه فقد تشظّت بين رؤيته لخيطٍ أحمر حادٍ يمر محاذاة خدّه كشهاب محترق وصوتٍ فجّر غشاء الطّبل في أذنيه وعند مطابقةٍ عقليّةٍ مفترضةٍ بين ما رآه وما قد سمعه تيقّن أنّ الضّعيفة التي راهن على كسرها يوماً أطلقت النّار عليه فعلاً وأنّه كان في مرمى نيران غضبها المتراكم، لم يبعد سوى قيد أنملةٍ عن رصاصتها النّابية، رصاصةٌ كانت ستودي به إلى الجحيم .... هو يعلم أنّه يستحقّ الجحيم فعلاً.

شيءٌ لم يكن بحسبانه أبداً، أمام وجهها المحمرّ من شدةٍ تعصف بوجدانها وسريرتها الرّاضية دوماً صار يتساءل عن زوجته التي اختفت فجأةً وراء وجهٍ هائج ثائرٍ مخضّبٍ بلون كبدها الدّامية التي أمطرتها سهام خيانته الزرقاء سنين خواء.

فجاءه الجواب بصوتٍ عرفه قديماً، لفحه الصّوت بماضٍ آتٍ

لتوّه، آت كطرفٍ يزن المعادلة الحاصلة لصالحه. سعيد .... إنّه سعيد

يقترب الصّوت مختزلاً مساحة الأرض منادياً دريّة المتشبّثة الذّراعين بسلاحٍ ما يزال مشهراً في وجه أنداده.وبلمسةٍ على كتفها أرجعت صواب حواسها فانفرطت يدها عن زناد البندقيّة كما جسدها الذي تهالك فجأةً مستنجداً بمن أتاه منقذاً ونصيراً قبل انهزامٍ وشيك. أمسكها بيدٍ باردةٍ في ذلك اليوم الحار ليمنعها من سقوطٍ مؤكّد وأمام إبراهيم عاد ليقف وقفته ذاتها قبل أكثر من عشرين عاماً منذراً ما تبقّى من رجولة إبراهيم من مغبّة إكماله بيع الأرض وأن أمامه خياراً واحداً لا شريك له أن يطلّق أخته بعد تنازله لها عن الأرض والدار لأن الخيار الثاني ليس إلا رصاصةً ثانيةً لا تُخطئ هدفها أبداً. فكان خياره الوحيد طريق إبراهيم الوحيد أيضاً للخروج من غمّته هذه. فأذعن وانصاع لحكم سعيد المبرم في قضيّتهم تلك والتي رجّحها سعيد هذه المرّة لصالحه.

اتّكأت عائدةً على كتف سعيد الذي عاد لحياتها عوداً مشرّفاً بعد قطيعةٍ اقتطعت عمرها جزأين متباينين. قبل سعيد وبعده أو قبل أرض الخرنوب وبعدها.

طلاق

قفزت مريم باتّجاه خالها لترمي في حضنه أعوام اشتياقه كلّها فيطوّقها بحنانٍ لا حدّ له فتضحك دريّة من قلبٍ حلّ به الخصب بعد جفافٍ طويل، لقد أصبحت الآن سيّدة نفسها ومالكة أمرها، حرّة للحد الذي أحسّت بأنّها قادرةٌ على التّحليق فوق ركام خيباتها المتلاحقة، طلاقها المبارك من أخوتها جميعاً وعودتها لحضن ودادهم بعد طول جفاءٍ وسعيد الذي عاد لدنياها كحمامة سلامٍ تهدل سكينةً وأماناً في روحها التّعبة، فهل كانت وليدة المصادفة أن تلاقي مريم خالها سعيد ماراً على الشّارع العام ذاك اليوم؟ أم أنّه كان استجابةً لصلوات سنين الجفوة القاسية بعودة روحها الغائبة؟ أم أنّه قدرٌ محتّم لإعادة الحق إلى نصابه في آنٍ معلوم؟

أسئلة ستبقى من دون إجابةٍ عند دريّة العائدة إلى الحياة بشغفٍ، وهي أولى النّساء في بلدتها من دقّت مسماراً في نعش العادات البالية الخانقة لامرأةٍ لها من ذنوبها في الحياة ما لا يفوق كونها امرأةً في شرق متعفّن.

عناق مريم الطويل لخالها أثار حفيظة أمّها المشتاقة زمن حنينٍ عتيق، أتراها غيرة الشّوق المؤجّل أم أنّها استعادت عافية روحها الجافّة؟

لم تفكّر طويلاً للأمر فانضمّت إليهما فاردةً ذراعين كجناحي يمامة صارخةً ملء حناياها الممزّقة من حرمانٍ طويل: « اشتقت لكم يا أخوتي .... لقد اشتقت كثيراً»

وكأنّ السماء استجابت لاشتياقها المزمن ليطرق الباب بدقّاتٍ تزامنت تواتراً مع قلبها المتعطّش للوصال .... لتضيع روحها في لجّة عناقٍ لأخوةٍ قادمين لدارها بعد سنين عجاف لتخرج من غمرة العناق كدرّة حقيقية كما كانت أيام صباها العزيز.

ومرّت سنتان بأيّامٍ وادعةٍ هانئةٍ لا تشابه أيّام الخزي المنقرض، إبراهيم حُفظ في ركن الذّاكرة المعتم وغدت المرأة الحديدية التي تتناقل الناس سيرتها بإعجابٍ منقطع النّظير فهي الشّجاعة التي قاتلت لأجل أرضها بصلابةٍ غير مسبوقةٍ ودفنت تبعيّتها لزوجٍ أرعنٍ أمام أعين النّاس مستحقةً بذلك احتراماً لم يسبق لغيرها من النّسوة.

صور الحياة عادت زاخرة اللون، أرضها الطيّبة تعصر زيتاً يسند جرّة فقرها وأولادها تكتسي أجنحتهم ريشاً استعداداً للتحليق في مستقبلٍ واعدٍ يليق بإخلاصهم

أحمد غدا مدرّساً في جامعته الأولى المطلّة على البحر بعد انتهاء مدّة الماجستير في العاصمة والذي يتأهّب للالتحاق بخدمته الإلزاميّة بعد وصول برقيّة شعبة التجنيد له بوجوب الالتحاق في وقتٍ قريب.

أما مريم التي أرجعها وجهها الرخامي لمنصّة التفوّق تخرّجت بمعدلٍ متفوّقٍ وبرصيدٍ كبير من الصّداقات عوّضها عن حرمان وحدتها جانب حائطٍ أخرسٍ وثرثرةٍ وحيدةٍ لكتابٍ مفتوحٍ قسراً في قاعةٍ فارغةٍ، وكفتاةٍ شهدت معاناة أمّها في مجتمعٍ شرقي لا ينصف المرأة حقها كاملاً كإنصافه للرّجل قررت التّسجيل في نقابة المحامين لتصبح محاميةً تُدافع عن النّساء المستضعفات في مجتمعهن

تسجيلها أودى بثمن محصول الزّيتون كاملاً في جيب محاسب النّقابة كرسمٍ للتسجيل لتصبح رسمياً محاميةٌ قيد التمرين عند أحد المكاتب المشهورة في المدينة.

حسن وحده من كان يكبر من دون انتباهةٍ من أحد، على غفلةٍ من مداركهم أصبح يافعاً يتحضّر للشهادة الإعداديّة ويواظب بكلّ رضىً على عمله عند أبي صالح فاستدارت أكتافه وتكوّرت عضلاته قبل أقرانه الشّباب، عمله ردعه عن رفاق السّوء والعادات المقيتة المتداولة بين أبناء عمره ولكنّه زاده فلسفةً باختلافاته الشّهيرة والتي ذاعت بين المقرّبين منه وميّالاً للفرح كلّما سنحت له فرصةٌ مواتيةٌ ففي عرس ابنة خاله محمود كان مثيراً لدهشة الجميع حتّى أمّه التي تفاجأت كما جميع الحاضرين بمراقصته لأخته مريم رقصاً جميلاً محترفاً فكان محطّ إعجابهم وحبورهم.

دريّة تتذكر ذاك العرس بكلّ الامتنان لأخيها إحسان الذي تكفّل بلباسها وابنتها وبالمال الذي أهدته للعروس كنقوطٍ لائقٍ، إحسان يد الإحسان الممدودة لها دوماً والتي حفظت لها ماء وجهها من تسوّلٍ مُذل، قبّلته بعد عناقٍ طويل لتخبره بأنّها مدينةٌ له بالكثير ولكنّه مدينٌ لها بعناقاتٍ لا تنتهي كلّ العمر.

أخوتها عادوا عوناً لها في مواجهة فقرٍ كفيف لا يُبصر آمالهم، إلا أن المعيشة المتزايدة الغلاء يوماً إثر يوم وظروف الأولاد المتغيّرة تضعها في دوّامة الهواجس لقادم الأيّام.

وحيدةً تحت شجرة الدرّاق جلست دريّة عصراً ترتق جيب الكنزة الصّوفيّة التي ترتديها بداية الخريف، الكنزة لها من السنين ما أبهت لونها وكشح عنه البريق لكن صاحبتها عندها من وفاء

الفقر ما يزاود على صدأ اللون وبهتان البريق فتلبسها راضيةً بوفاءٍ لعهدها القديم معها لتبقى روحها مشرئبّة العنق فوق الفقرورااياته السّود.

جعلت تفرد هواجسها واحداً تلو الآخر فابتدأت بأحمد العائد إلى قائمة حملها المالي بعد غيابه عنه طيلة دراسة الماجستير، التحاقه بالخدمة الإلزامية أوقف راتبه الشهري ليستبدل براتب عسكريٍ لا يسدّ كل احتياجاته، مبلغ النقود الذي نقدته إيّاه قبل سفره يُسكت قلقها عدّة شهورٍ فحسب ولذلك الوقت ستتدبر أمرها حتماً فأخواها سعيد وإحسان يمدّونها بالمال بين الحين والآخر ولطالما اعتادوا الظّهور في أشدّ المواقف صعوبةً ومريم التي تداوم في مكتب الأستاذ أنور اقتنعت بكمّ الثياب التي اشترتها أمّها لها مؤخراً قبل التحاقها بالمكتب وقبل أن تنتقل هواجسها إلى حسن وهو الوحيد الذي لا يحمّلها عبئاً مالياً حتّى في أيّام دراسته فو يواظب على العمل عند أبي صالح في العطلة الرسميّة إلا أنها تخشى عليه من طفولةٍ غابت عنه مبكراً.... تقاطع مريم سيل هواجسها لتسألها بعين المتبصّرة وهي جالسةٌ إلى طاولتها الصّغيرة في الدّاخل تراجع جداولاً في ورقٍ منضد بعنايةٍ:

- هل تفكرين في أحمد يا أمّي؟ تضحك أمّها بفتورٍ لتجيبها:

- وما أدراك أيتها الفتاة؟! حسبتك منكبّة في أوراق الدعوى التي بين يديك ولكنّي أرى بأن انتباهك عندي.

- أنت محور اهتمامي الأول يا دريّة وأعلم كم يشقّ عليك غياب أحمد على الرغم من تظاهرك بالصّلابة، دموعك قد وشت بحنين القادمات من الأيّام.

وهنا يتدخّل حسن المنكفئ على كتابه المفتوح ليسأل أمّه

بشغف

- هل ستشتاقين لي عندما التحق يوماً بالخدمة الإلزاميّة يا أمّي؟

فتقذفه مريم بوسادةٍ قريبةٍ منها لإسكاته كردٍ مناسبٍ لسؤاله إلا أنّ جواب أمّه أجبرهما على السّكوت طوعياً والتأمل البديهي بما وراءه من تعلّق واضح به

- أنت لا تغيب عنّي يا حسن، ولن تفارقني يوماً وإن غبت ولكنّي سأشتاق إليك في كلّ رفّة جفن

فأرخى الشّاب كتابه ليخرج حيث أمّه تضّم كنزتها الصّوفية في عناق مفترض لغائبٍ حبيب ليستبدلها بنفسه وليقول لأمّه بأنّه لن يفارقها يوماً مهما كانت الظّروف من دون أن يتكهّن أحدٌ منهما إلى ما تخبئه الأيام للفتى من سفرٍ سيضني قلبيهما اشتياقاً فمسدت يدها على شعره لتخبره بأنّها ستطهو له مساءً الأرز بالدّجاج الذي يُحب والحلوى التي ضنّت بها عليه وأخته لتعطيها لأخيهم المسافر فاستشاط قلب الشّاب فرحاً مسهباً أمامهما شرحه عن اختلاف مسائهم هذا فالمساء مع طعامه المفضّل وحلواه الموعودة يختلف كثيراً عن عشاءٍ من دون أرزٍ باللحم وبعض الحلوى.

نظرت إليه أخته طويلاً من النّافذة وهو يشرح فلسفته أمام أمّه الباسمة لتتبادل وأمّها نظراتٍ أرخت على خدي دريّة دموعاً مباغتة، تحاول إخفاء قهرها وراء ستارٍ مفتعلٍ من فرح، إذاً فلقد بدأ مشوارها مع الحنين حقاً.

لم يبدأ حنين دريّة لولدها البكر قبله، ظلّ طيفها يرتسم في قعر عينيه طوال الطّريق فلم يشغله عنه أحاديث جانبيّة وثرثراتٌ عابرةٌ أو شريط الصّور الهاربة خلف الزّجاج، أغمض جفنيه

محاولاً اختصار زمن سفره بإغفاءةٍ عارضةٍ فلم يفلح فأدرك بأن قلقه جاثمٌ خلف عينيه ولا مناص من الشرود القسري في الوجوه العابرة.

يومه العصيب ابتدأ منذ وصوله، إلى مركز التدريب، اصطفّوا في طابور طويلٍ لحلاقة شعرهم، تخيلّ أحمد وجه سلمى وهي تضحك على صلعته الجديدة وتداعب رأسه السّاخن، لم يبدِ امتعاضاً كبيراً من الأمر لمعرفته بأنّ كلّ الرؤوس الوافدة إليهم اليوم ستنام جرداء الشعر، بعض التعميم يريح النفس ولو كان قاهراً قليلاً.

انطلقوا بعدها لاستلام تجهيزاتهم العسكرية فتسلم بذلةً عسكرية وحذاء خدمة وعدداً من البطانيات وانطلق صوب المهجع الكبير. الذي يضم أكثر من ثلاثين جندياً، بادرهم بالتّحية وسلّم على الجميع بابتسامةٍ لطيفةٍ فقابله الجميع بالتّرحاب والتّأهيل، صاح به أحدهم من العمق قبل أن يكون في مجال رؤيته المباشرة

- تعال أيها الشّاب، لديّ هنا سريرٌ شاغر بانتظارك. تقدّم

فاستجاب أحمد لطلبه وتقدّم نحو مصدر الصّوت عابراً الممرّ الضّيق بين الأسرة المتموضعة فوق بعضها البعض بانتظامٍ في كلا الجهتين حتّى وصل نهايته وهناك تعرّف إلى صاحب الصّوت، شابٌ ضخم الجثّة عريض المنكبين وفي ذقنه علامةٌ لجرحٍ قديم، مدّ له الشّاب يداً مصافحةً إياه معرفاً عن نفسه:

- معك سعيد من الجنوب، أهلاً بك يا جار الرضا. مشيراً بيده إلى السرير الحديدي الشاغر فردّ أحمد عليه بتهذيبه المعتاد مستبشراً باسم جاره في السرير

- أنا أحمد من السّاحل وأنت تحمل اسم خالي الذي أحب.
فيضحك الشّاب ليردف قائلاً:

- ذلك من سعادتي وسعادتك أيضاً سنصبح صديقين إن شاء الله

خفف كلامه وطأة القلق عن قلب أحمد المتخوّف من مجهوله القادم والذي تهافتت يوماً أحاديث الشّبان في قريته عن رعونته وجلافته فألقى وساوسه وراء ظهره وارتقى سلماً بسبع درجاتٍ ليصل سريره الحديدي حيث فرش عازله السّميك وفرد البطانيات الثخينة واحدةً تلو الأخرى أمّا حقيبته ما زالت في الأسفل قرب سعيد مع بقيّة أغراضه ووجّب عليه أن يجد لها مكاناً مناسباً يضعها فيه أمّا نقوده فآثر أن تبقى في جيبه مغبّة ضياعها في زحام أشيائه.

أمام تساؤلاته الكثيرة لابدّ له من سؤال جاره الأقدم منه في المهجع فعاد أعقابه نزولاً من السلم حتّى وصل عند الشّاب ليبدأ طرح أسئلته بسؤال عن مكانٍ مناسبٍ لوضع الحقيبة المكتظّة بثيابه ومؤونةٍ حمّلته إياها أمّه زوّادة أيام قادمةٍ عصيبة فيومئ إليه بيده وهو يمجّ لفافة تبغٍ عربيٍ بين شفتيه قائلاً

- هناك خزائنٌ في الجهة الأخرى من المهجع، المفتاح الوحيد الموجود هو مفتاح خزانتك، ضع أغراضك ونقودك فيها واحتفظ بمفتاحك جيداً بعد قفلها

كلامه أنعش قلب أحمد فالأمور التي استصعب حلّها تتحلحل عقدتها أمامه دونما تفكيرٍ أو بحث فشكره أحمد واتجه صوب الخزائن لوضع أغراضه ونقوده في الخزانة الوحيدة التي ما زال مفتاحها قائما في قِفلها فرتّب أغراضه بعنايةٍ ليقفلها قبل أن

يعود ليجلس أمام الشّاب الذي ابتدأ حديثاً معه دونما سؤالٍ من أحمد

- بما أني أقدم منك أريد أن أوضح لك بعض الأمور، الاستيقاظ هنا في الخامسة صباحاً كلّ يوم وبعد تناول الفطور، يبدأ التدريب

يتوقف سعيد عن حديثه ثم يعود فجأةً ليستطرد بسؤالٍ تتوقّف عليه إجابة معينة

- ماهي دراستك أيها الشّاب؟ فيجيبه أحمد بلهجةٍ واثقةٍ

- ماجستير في العلوم السّياسيّة

فيرجّ المهجع بصدى قهقهة أحدهم، ما هز هدوء المكان بضحكته البلهاء قبل أن يردف صارخاً بفجاجة

- صار لدينا ديبلوماسي ناطقٌ باسم المهجع يا شباب

من دون أن يعي أحمدٌ سبب ضحكهم جميعاً عرف أن هنا مكانٌ تتساوى فيه الرؤوس الحليقة كلّها فالسّياسي والمهندس والمحامي والأستاذ والعاطل عن العمل كلّهم متساوون هنا

في ساحة التدريب فُرز الجنود المستجدين حسب مؤهّلاتهم العلميّة وتحصيلهم الدّراسي وبعد انتهاء فترة التدريب في مركز التدريب تم نقل أحمد وسعيد إلى لواء مدرع، وبعد أسبوع من التحاقه في اللواء المدرع، زارهم آمر اللواء في ساحة العروضات

بيد أنّ الباب الرئيس للواء فُتح فجأةً لتلج منه سيارةٌ مدججةٌ بالحراسة فأثارت ضجّة وهلعاً وبعد أسئلةٍ خجلةٍ لا ترقى لمستوى الهمس بينه وبين سعيد عرف أنها سيّارة العميد آمر اللواء المعروف بصرامته فحضوره مربكٌ لجميع الضّباط لخوفهم من ضبطه الشديد وعقابه .... وقع أحمد تحت سيطرة إعجابه

بذاك العميد المُربك الفخم في آن معاً ولعلّ قادم الأيام ستُفاجئه بإعجابٍ من نوعٍ آخر ونكهةٍ أخرى.

بعد انصرافهم إلى المهجع ظلّ شبح العميد الضّخم يلاحق مخيّلته فعاود لسؤال سعيد عنه والذي تنبّه في قرارته لاهتمام أحمد الغريب بشخصٍ مثل العميد جابر فأجابه وهو يلفّ لفافة تبغه بتركيزٍ بالغٍ

- العميد جابر له اتصالاتٌ مع القيادة العامّة وعليه فهو صاحب السّلطة المطلقة هنا ويتحرك هذا اللواء بإمرته متى شاء من دون الرّجوع إلى القيادة إن لزم الأمر...في حال هاجمنا العدو فجأةً.

قالها ليطلق بعدها ضحكةً كان من الواضح بأنّها تغمز لجملته الأخيرة المتهكّمة

- سيمرّ وقتٌ طويلٌ قبل أن تتأقلم عظامك مع سرير الحديد هذا.

يقولها سعيد محاولاً التّخفيف عن أحمد الذي بدأ سريره يصدر صريراً يشي باضطراب حواسه.

حاول أحمد مرغماً إغماض جفنيه من دون فائدة، عيناه مفتوحتان بذهولٍ محيّرٍ تتأملان بدهشةٍ علو سقف المهجع، الجو باردٌ فيه على الرغم من اعتدال الحرارة خارج المهجع، إلا أن البرد يتمدد كموجاتٍ دالحة تلسع خدّه وتطبع عليه قبلات حمر، الأغطية الثخينة تدفئ بقيّة جسمه من لسعات البرد ليبقي وجهه في مواجهتها طائعاً

ثمة غفوةٌ تزوره باستحياء قادمةً بطيفٍ لسلمى فيغمض جفنيه بكلّ التمنّي لبقاء طيفه الدّافئ حتّى انبلاج فجره المرتقب

وراء أشباح ليل بارد لعلّ روحه تحظى ببعض دفءٍ وسكينةٍ تخلع عنه ثوب الهواجس فيبدأ الحلم برعشةٍ محببةٍ تسري بجسده بلمسةٍ من طيفها المداعب لوجنته الهامس حيناً النافر طوراً ملوّحاً له بيد تفوح ياسميناً يعبق بروحه الهائمة وراء ظل الطّيف الهارب نحو باب المهجع.

رعشةٌ أخرى تنهي حلمه النّافر بجفلةٍ مباغتةٍ، من بوق زاعقٍ يستمر من دون رحمةٍ يفزع أحلامهم ويفرّقها أمامهم كفراشة شاردة، يستوي أحمد على فراشه هلعاً، الشبّان يقفزون من سرائرهم على عجالة. من دون تفكيرٍ هبط مسرعاً صوب خزانته ليحضر منشفته ويتّجه نحو الحمام الذي تفوح منه رائحة العفونة الخانقة متعجباً في لجّة انتظاره من رائحة ياسمين تزفرها أنفاسه بين الفينة والأخرى وليكتشف بعد انفضاض زحامهم وانطلاقهم لساحة التدريب أن عليه اعتبارا من يوم غد الاستيقاظ بوقتٍ مبكّر قبل البقيّة ووجب عليه شراء منبّه يضبط ساعات فجره كلّ يوم.

بدأ التدريب الصباحي بهرولة منتظمة وفجرهم مازال غشاوةً على أحداق ليلٍ أدهم، ثلاث دوراتٍ حول السّريّة بتشكيلٍ منظّم متتابع، وقع خطواتهم كانت دليلهم الوحيد في مسيرهم المنظم الأعشى لدورتين متتاليتين كفيفتين ليشعل الفجر مصابيحه الخافتة بداية الدّورة الثالثة اللاهثة بأنفاسٍ مضطربةٍ باردة فكان درسهم الأول البدني والتّعليمي بعدّ النّعم وأولها النّور.... النّور الذي يضع قدمك على طريقها القويم لا على طريق غريزتها الفطريّة، لتتوالى النّعم التي تعلّمها أحمد ورفاقه ذاك النهار بانقضاء نهارهم الأوّل، كالسرّعة في الجهوزيّة واليقظة والتّركيز في

الدّروس التعليمية والتّطبيقية، والتي أضاف إليها سعيد نعمةً لن يتعلمها وأحمد إلا بعد أوّل خفارة ليلية ألا وهي النّوم.

وانقضت فترة ودريّة تقارع الظّن والقلق فتخلق الذّرائع لتسكب على روحها بعضاً من سكينة، لن تخفى عليها مشقّات الحياة العسكريّة والتي تناقلتها أحاديث أخوتها ولكن قلب الأم لا يقنع إلا بما يلامس شغافه مباشرةً بعيداً عن التأمّل والتّرجي، صوته سيكون كافياً ليستعيد نبضها قرعه الهادئ وليعود رشدها من شروده.

لم تُفلح أحاديث مريم المفعمة بالنّشاط والأمل وثرثراتها عن العمل في المكتب، ولا مداعبات حسن لأخته والتي كانت دوماً تنتهي بمشاحناتٍ ودودة وعقوباتٍ تُفرض على الشّاب باستذكار دروسه كلّها ليشرع حسن بمدحها بادئاً باختلافاتها الجميلة قبل أن تكون محاميةً وبعدها علّه يجد مخرجاً لطّامته تلك. بقيت دريّة تشاغل حواسها بفوضى ثرثراتهم الجميلة وشرايينها تتراعش بسريان التّوق فيها.

تجلّت خطوط التّوتر على محيّاها للعيان فأثارت انتباه الجميع، زميلاتها في مصنع السّجاد وجاراتها وأولادها إلى أن جاءت نهايته ببشارة الفرح المنتظر.

نهاية الدّوام وقبل وصولها للمنزل وخلال عبورها للشّارع العام يصلها صوت المختار منادياً:

- أم أحمد.... أحمد على الخط بانتظار أن يكلّمك

كلماتٌ كانت كقميص يوسف أعادت إلى روحها بصرها وبصيرتها فاستجمعت حواسها وهرعت صوب غرفة الهاتف في بيت المختار محاولةً ضبط دقّات قلبها التي صمّت أذنيها كي لا

تنفلت منها أثناء حديثها معه ويشعر بالذّعر حيالها. أخذت شهيقاً عميقاً وردّت:

- أحمد حبيبي، كيف حاك يا ولدي، اشتقنا إليك

- أنا بخير يا أمي اطمئنّي، لم يكن بمقدوري الاتّصال في وقت مسبق ولكنّي سأتّصل دائماً في مثل هذا الوقت لأنّه يوافق وقت عودتك من العمل

- هل أنت بخير يا ولدي؟ هل تأقلمت مع خشونة المكان والحياة؟

- هوّني عليك يا أمّي فابنك رجلٌ لا يُخشى عليه وهو أيضاً لم يكن ابن عزٍ سابقاً فتعوّدت سريعاً على قساوة العيش هنا إلا أنني لم اعتد بعد على غيابك، هذا هو الاختلاف الأكثر قساوةً وحدّةً في الأمر كلّه وعلى سيرة الاختلافات كيف حسن ومريم؟

- بخيرٍ يا ولدي، مريم فرحةٌ جداً مثابرةٌ في عملها في المكتب وتساعد حسن في دروسه بعد عودته من معمل أبي صالح ودائماً تنتهي مساءاتهما بمشاحناتٍ طريفةٍ حول اختلافات حسن التي يكتشفها في مريم كلّ يوم، اتّصل دوماً لأفرح يا أحمد وانتبه لنفسك وتذّكر بأنّ روحي معك دائماً.

- بلّغي سلامي لأخوتي، سأتّصل بكم كلّما سنحت لي الفرصة، يجب عليّ الإغلاق فهنالك من يريد الاتّصال بأهله. قبلاتي لكم، بأمان الله يا أمي

- بأمان الله يا ولدي.... حماك المولى يا أحمد

تنهمر دمعةٌ بعدما وضعت سماعة الهاتف في مكانها، دمعةُ شكرٍ وامتنان لصوته العائد برداً وسلاماً لروحها المحترقة بنار اشتياقها المخفيّة.

شكرت المختار وعادت بأحمال صوته إلى منزلها لتقذفه أمام أولادها كثيباً هائلاً من الفرح وترانيم سعادةٍ في لحن صوتها «لقد اختلفت نبرة صوتك عن الأمس يا دريّة.... هنالك فرق». يلاطفها حسن وهي تسرد لهم فحوى اتّصالها الهاتفي بابنها الغائب فتغمزه مريم المنكبّة على كومة الأوراق في المذكّرة المفتوحة أمامها إلا أنّ حواسها الكاملة تتابع جريان الحديث الذي تاقوا لسماعه:

- سأعدّ لكم الغداء سريعاً لتتناول طعامك قبل ذهابك إلى المعمل يا حسن

قالتها بعد الانتهاء فوراً من حديث اللهفة ذاك وكأنها انتبهت فجأةً لعودتها لنظام حياتها الاعتياديّة. نهضت مسرعةً نحو المطبخ تاركةً حسن يقطّع وقته المتبقّي في حديث مفتعلٍ مع مريم، والتي ردّت عن أسئلته بإيجابيةٍ حول القضيّة التي بين يديها والأولى في عملها كمحاميةٍ متدرّبةٍ. لقد غدت موضع ثقة الأستاذ ياسين زميلهم الأقدم في المكتب والمسؤول المباشر عن مريم وزميلتها، ويقلّهم بسيارته إلى المحاكم في المدينة والمحافظة ما وفّر عليها تكاليف التّنقل الكثيرة وخفف عبئاً عن كتف دريّة التي تجاهد لأجل مستقبلٍ يكفيهم ما قاسته في حياتها.

أفروديت

أيام الخدمة تمضي كسلحفاةٍ عجوز، تأقلم معظم الشبّان مع واقعهم وصارت الأيّام عائلاً على أفئدتهم تلوكها أرواحهم كعلكةٍ فاقدة السّكر، لا تذيقهم الحلاوة المرجوّة ولا ينتهي مشوارها بين فكيهم إلا ببصاقها والذي مازال متأخّراً لمن التحق بخدمته مؤخّراً.

في نقطة الحراسة وأثناء الخفارة الليلية الطويلة جدّاً، وجه سلمى لا يفارق رأرأة النّجوم البعيدة ووجه أمّه وأخوته يرتطم بأضلاعه كلّما تحرّك

- في وقتٍ ما. ستدرك بأنّ كل ما تملكه هو ما تحمله في داخلك فقط

يقولها أحمد لسعيد قبل أن يغفو في نقطة حراسته ليجيبه صديقه بابتسامةٍ كسولة

- لست نائماً أيّها العزيز.... لقد جئت مبكراً اليوم

- خشيت من غفوةٍ عابرة فأتيت لأوقظ من غفل منكم

- لن ننام .... ألا ترى العدو متربّصاً بنا على التّخوم. يجيبه سعيد بلهجةٍ متهكّمة

- اصمت أيّها التّعس ستودي بنفسك إلى السّجن إن سمع أحدٌ هذا الكلام بالمصادفة

- لن يسمعني أحدٌ في هذا الليل البهيم إلا إن تنصّلت من صداقتي وأبلغت عنّي وعندها ستبقى وحيداً من دون جارٍ في المهجع يدفّئك بأحاديثه الدّافئة في ليالي البرد ويعدّ لك الشّاي

بالقرفة التي تحب. فيردّ أحمد ضاحكاً:

- يالك من وغدٍ أوليس الشّاي على حسابي؟!

- صحيح، من أين أتيت بتلك المقولة ببداية حديثك؟! اسمع لو كنت غنياً لما قلت ما قلت، وحدهم الفقراء يحملون دواخلهم أمّا الأغنياء فلديهم الكثير لحمله إلا أنّ الفقراء أخف وأرشق في حركتهم دوماً

يلسع برد ٌ قارسٌ وجه أحمد فينبئ بتساقط الثلج فينهض مخاطباً سعيد بهمهمةٍ ضاحكة

ظهيرة اليوم التّالي تأتيهم برقيّةٌ من القيادة العامّة ممهورة بتوقيع آمر اللواء بتوجيه ثناءٍ للجنود ممن حققوا امتيازاً في إطلاق الصواريخ الموجهة من نوع مالودكا في التدريب، اسم أحمد على رأس القائمة وعليه سيتم توزيع الثّناءات والهدايا الرّمزية عند قدوم آمر اللواء. تنفرج أسارير أحمد لهذا الخبر وخصوصاً أنّه المعجب الأكبر بذاك العميد الذي أمر اليوم بتكريمه مع عشرين آخرين في اللواء كلّه.

يوجّه سؤالاً لسعيد المنصرف للشاي:

- هل سأقابله شخصياً أثناء التّكريم أم أن التّكريم سيكون في السّاحة العامة؟

فيجيبه سعيد بظرافته المألوفة:

- سؤالك محرجٌ ومباغت وللشخص غير المناسب فصاحبك لم يكرّم من قبل ولدي سجلٌ غير مشرّف في العقوبات المسلكيّة، ولكنّ إعجابك من دفعك للسؤال وهو ما يدفعك للابتهاج بهذا القدر

- لا أخفيك .... تعجبني شخصيّته على الرغم من قساوتها من

دون أن أعلم حقاً سبب إعجابي به

- أنت ترى فيه ما نفقده في حياتنا كبسطاء على هامش الحياة، هو يعيش في قلب الحياة تتمحور حوله السلطة والجاه والغنى وتتقبله النفوس باحترام على الرغم من فظاظته وخشونة مظهره، وأنت يا صاحب الوجه المضيء قد ترى بما عنده اكتمالاً لجمالك فتحبّ نفسك به فتحبّه لا إرادياً، وهذا ما يسمونه الحب المكمّل ويختلف كثيراً عن حبّك لأشخاص مثلي تحبهم لظرافتهم أو لشايهم مثلاً.

يجيبه أحمد ضاحكاً:

- يالك من فيلسوف .... تذّكرني بأخي صاحب الاختلافات

- أيّة اختلافات؟! هات ما عندك وأنت تشرب الشاي الملكي وأخبرني.

فأمضيا سهرتهما بسرديّة الاختلاف التي تشابه بين سعيد وحسن وكلاهما الأقرب والأحب إلى روح أحمد وسريرته، ليأتي حلمه تلك الليلة بحلم يضمّ باقي الأحبةّ، مريم ودريّة، يعانقوه بحفاوةٍ بعد تكريمه وسلمى التي غابت بين جموع المحتفلين واختفت ملامحها في زحام الأوجه المتراصفة والأنفاس المتشابكة.... يرنّ جرس الفجر معلناً انتهاء حلمه وروحه لا تزال عالقةً في زحام الأنفاس باحثةً عن وجهها الحبيب.

لم تنته تداعيات حلمه إلا بعد اتصاله بها ساعة الاستراحة، صوتها أنهى حلمه بسلامٍ تمناه فأصغى إلى ترنيم صوتها غائباً في لذّةٍ أبى أن يخبرها بها كي لا يفتح عليهما بوّابة الحنين الشّاق، ولتكتمل راحته اضطر للانتظار ساعةً أخرى ليتّصل بدريّة ليبشّرها بالثّناء والتّكريم الذي استحقّه، ولتبشّره بتركيب الهاتف في بيتها بعد

يومين من اتصّاله بها بعدما مدّت البلديّة شبكة الهواتف لجميع بيوت القرية. تكفّل سعيد بكلّ التّكاليف اللازمة لتركيبه وعليه سيكون اتصاله هذا آخر اتصال له من غرفة المختاروتمكّن من الحديث أخيراً مع أخوته من تاقت روحه للقياهم وعناقهم.

صافرة المساعد أجبرته على إنهاء مكالمته فاعتذر من أمّه مودعاً على أمل اتصال يجمعهم جميعاً في منزلهم بأقرب وقتٍ ممكن.

حثهم الضابط المسؤول على الإسراع في صف تشكيلاتهم وطلب من أسماء المكرمين أن يكونوا على أهبة الاستعداد. يفتح باب السور الحديدي برويّة. ثمة رتل من السيارات تعقبه سيارة العقيد وسيارة أخرى فيها حمايته، تقترب السيارتان قرب ساحة العروضات، ويترجل منها العميد والذي عرف اسمه الكامل أخيراً /جابر المختار/ لم يأت لوحده بل حضر حفل التكريم ثلة من الضباط أيضاً.

خيّم صمتٌ إجباريٌ على المكان، الرهبة تملأ النفوس، لم يكن أيّاً من الجنود قادراً حتّى أن يتنفس على طبيعته، لطالما كان هذا العميد صارماً يفرض احتراماً ووقاراً على الجميع . يمسك لاقطة الصوت ويقرّبه من فمه حتى يكاد يلامس شفتيه ليطلق صوتاً أشبه بهزيم الرعد على مسامع الجنود، ارتجفت قلوبهم خشيةً، وهم متأكدون بأنّه جاء ليوزع بينهم التكريم مباركاً.

استهل حديثه ممجداً بالأبطال السّابقين الذين توافدوا على هذا اللواء وأدّوا مهمات عظيمةً للوطن فيما بعد وانتهى قصفه المدوي بمديح الضبّاط الذين أبلوا بلاءً حسنا في المشاريع الصحراويّة.

فتبعه دوي تصفيقٍ عاصف في السّاحة الواسعة كافٍ ليصل صداه إلى التّخوم القريبة. بإشارةٍ منه توقف التّصفيق واندثر كأنّه لم يكن ليحلّ سكونٌ عاجلٌ على المكان، ابتدأ من فوره باستعراض أسماء الجنود حسب الأحقيّة والامتياز الذي حققه كلٌّ واحدمنهم والأول كان أحمد فما إن تُلي اسمه حتّى تعالى التصفيق فصعد الدم إلى وجهه البارد فجأةً وفكّ طوق اليباس عن قدميه ليتقدم نحوه بخطواتٍ ثابتةٍ منظمةٍ كتقليدٍ عسكريٍ نظامي، وحيّاه بكل ما لديه من إعجابٍ مبهم، دقّات قلبه تصمّ أذنيه على الرغم من ضياع أي صوتٍ في دوي التصفيق اللاهب.

تقدّم منه العميد جابر حاملاً ورقةً ملفوفةً بشريطةٍ حمراء معقودةٍ في المنتصف وبنيشانٍ نجمي الشكل مذهّب اللون تتدلّى منها شريطتان خضراوان، ناوله الشّهادة بيده مهنّئاً بصوته الجهوري: «مبارك يا بني نحن نفاخر بكم»

تناول أحمد اللفافة من يده بامتنان بينما كان يقلده النيشان على صدره، أحسّ أحمد بأن العميد لا محالة سينتبه إلى خفقات قلبه اللاهثة وإلى نبضه الذي سيفور من أوردته إلا أن جابراً أنهى تقليده الوسام منهياً المراسم على عجل فأدى أحمد التّحية شاكراً الله بأن وقت وقوفه لم يطل أمام العميد فلقد تخوّف حقاً من توقد الخوف في قلبه وأطرافه ولكنه ظل محافظاً عيانياً على برودة مظهره أمام الحشد الكبير من الجنود، استدار للخلف بعد التحية وبنفس الخطوات المعتادة عاد إلى حيث مكانه في التشكيل ليذاع اسم جندي آخر ليتقدم باتجاه العميد لتقليده الوسام بنفس الحركات والإيماءات أمام حرارة التصفيق العارم فبدا الأمر كأنّه منسوخ تماماً عن تقليد أحمد الأول فتكرر عشرين مرةً.

التهبت أكف الجنود من حرارة تصفيقٍ طال أمده وضجّ الهواء من عبق تصفيقهم الذي كُدّرَصفوه في تلك المنطقة النائية إلى أن أعطاهم العميد إشارةً لانتهائه فاختفى الهدير مرةً واحدةً وكأنه كان نسياً منسياً.

فما إن فرغت جعبته من النّياشين والشّهادات حتّى انطلق وصحبه من الضبّاط إلى مكتب القيادة فالعميد جابر نادراً ما كان يبقى في اللواء لأكثر من ساعةٍ واحدةٍ وهذه الساعة كانت كافيةً لتصيب بعض الضبّاط بأوجاعٍ معديةٍ.

أعطاهم النّقيب المباشر إشارة الانصراف للجنود إلى مهاجعهم للاستراحة وانطلق في إثرهم ليحضر الاجتماع الذي ابتدأ بدونه.... انهال المهنئون على أحمد واحداً تلو الأخر مباركين له بالوسام وشهادة التقدير وأولهم سعيد الذي تمكّن بظرافته المعتادة تأجيل البقلاوة التي طالبه بها أحد زملائه في المهجع لحين عودته من القرية فوفر عليه إحراجاً كبيراً. أحمد الذي كان على وشك الإفلاس حقاً مازحهم قائلاً:

- لربّما كان من المصيب أن يصرفوا لنا جائزةً نقديةً بدل النّياشين لتحظوا بالبقلاوة الآن ولكن ربَّ ضارةٍ نافعةٍ فقد آتيكم من عند والدتي بأصناف كثيرة من الحلوى لم تسمعوا بها من قبل

فضحكوا معه جميعاً.... كانوا شباناً من أطيافٍ مختلفةٍ ومن محافظاتٍ عدّةٍ يجمعهم مهجعٌ كبيرٌ وفقْرٌ أكبر ووطنٌ يضيق على صدورهم شيئاً فشيئاً.

يتمتم سعيد في أذنه

- لو لم أنجدك الآن لاضطررت لبيع نيشانك هذا... لي عندك واحدة

فضحك أحمد ضحكته الهادئة المعهودة:

- لقد صرت مديناً لك بما يعادل نياشين هذا اللواء كله.

ويستطرد فجأة

- أتعلم أنّ كلّ البلاء من الطّعام الرديء هنا فمهما قهرك الفقر وكتم صراخ معدتك فأحياناً لن تستطيع أن تشعر بالإنسانية إلا عندما تذهب لتلك النّدوة الكبيرة لتشتري ما يسدّ رمقك ويعيد إليك القدرة على تحمّل الفقر نفسه.... وهنا تذهب نقودك أدراج الرّياح وكأنّ هذه النّدوة إعصارٌ جاثمٌ يلوّح لك دائماً بأنّه لن يبقي ولن يذر على ما في جيبك.

فيجيبه سعيد بلهجةٍ حادةٍ:

- سبب إفلاسك إذاً ليس أكياس الشّاي الذي تهمني به

فيرتفع ضحك أحمد وقد علم مزاحه المبطّن:

- نعم له الجانب الأكبر فلقد تعودت ألا أهضم الحصى الصّغيرة التي تمرّ في الطّعام إلا بعد أن أشرب الشاي الذي تعدّه فبعض الملامة تقع عليك يا سعيد

- أقول لك الصدق إن سبب إفلاسنا هو شفرات الحلاقة التي نبدلها كلّ أسبوعين مرّة واحدةٍ

يقولها سعيد بنفس لهجته السابقة فيجيبه أحمد:

- ولا تنس معجون الحلاقة والأسنان والصابون و...

وقبل أن يكمل أحمد سردته تلك يقاطعه المساعد

- أحمد... مطلوب في مكتب العميد جابر.

نزل كلام المساعد كالصاعقة على أحمد، سهمٌ مباغتٌ اخترق أحشاءه فجأةً، جحظت عيناه والتفت يميناً ويساراً محملقاً في وجوه زملائه الواجمين أكثر منه وكأنه يريد تصديقاً لما سمعه

للتّو.

انتهت نظراته في عيني المساعد الذي أومأ إليه بالاستعجال فنهض مرتبك النّفس والنّبض ليواكب المساعد إلى مكتب العميد وفي طريقهما استجمع جرأته وسأل المساعد عن سبب طلبه له ليجيبه المساعد ببرود: «صدّق أولا... أنا نفسي لا أعلم» وعندها عرف أنّ العميد يريده في شيءٍ استثنائيٍ لا ريب في ذلك.

وصل قبالة الباب، دقّه دقّاتٍ منتظمة، فأتاه صوت العميد من الدّاخل يأذن بالدخول فتح الباب وتقدم بخطواتٍ نظاميةٍ نحوه ليلقي عليه التحيّة العسكريّة، يومئ إليه بيده ليجلس على الأريكة المقابلة، فجلس أحمد قبالته محاولاً التقاط أنفاسه المبعثرة وكبت جماح نبضه المتزايد. الأسئلة تطرق رأسه وهو يحاول جاهداً أن يطمئن نفسه بنفسه، قبل قليلٍ كرّمه العميد فما من شيءٍ يدعو للقلق وقبل أن تستفحل حالة أحمد الغارقة في الارتباك،يبدأ العميد حديثه وهو يقلب كنيته بين يديه:

- اسمك أحمد إبراهيم درويش من السّاحل أليس كذلك؟

فيجيب أحمد بصوتٍ ناله العطب:

- نعم سيدي هو كما تفضلت

فيردف العميد:

- حدثني عنك .... وقبل أن تزدحم أسئلتك في رأسك سأقول لك بأني معجبٌ بتقدير الرّمايات، فلقد أصبت أهدافك بشكلٍ دقيقٍ جداً وهذا ما لم يحصل أبداً عند أي جندي مستجد ربما يحصل من ملازمٍ في الكلية الحربية فحسب وهذا ما دفعني لاستدعائك قلّي كيف ستعرفني إلى نفسك

- أحمد إبراهيم درويش من الساحل عمري ستة وعشرون

سنة من أسرة فقيرة درست العلوم السياسية وأكملت الماجستير في العاصمة وعينت في الكليّة التي درست فيها في منطقتنا السّاحلية قبل التحاقي بالخدمة العسكرية، مثابرٌ مجتهدٌ طموحٌ ولديّ الكثير لأعطيه لوطني ولنفسي

- جميل.... كلامك مؤثرٌ للغاية يا أحمد، أعجبني وصفك لنفسك.

ويردف العميد:

- هل أصبت جميع الأهداف لأنك أردت الصدارة أم لأنك أحببت إتقان إطلاق الصّواريخ؟

- الإتقان يا سيدي.... دائما أتقن ما أفعله أيّاً كان واعتدت على ذلك ولهذا فإن جميع الصّواريخ التي سأطلقها بعد اليوم هي في مرماها الصحيح بشكلٍ مؤكد

- تعجبني ثقتك بنفسك، اعتدادك مذهلٌ تذكّرني بنفسي عندما كنت في سنك... حقاً إنك تعجبني يا أحمد إنّي أهنئك

- ألف شكرٍيا سيدي ذلك شرفٌ كبيرٌلي أن أحظى باستحسانك وإعجابك

وهنا يضحك العميد: «سياسي بارع،أنت.... أتتقن اللغات

- نعم الانكليزية والفرنسية وببراعة وربما أجيد الروسية في وقت ما وسأجيدها حتماً

- عندي ابنة تدرس في الجامعة ولا أدري ما سرّضعفها في اللغة الانكليزية على الرغم من أن إخوتها لا يعانون مشكلةً في تعلّم أية لغةٍ ولذلك سأحتاجك لإعطائها بعض الدروس.... ما رأيك؟

- وهل لي رأي بعد رأيك يا سيدي أنت تأمرونحن ننفذ

- عظيم سأرسل لك السّائق مرتين في الأسبوع ربما الاثنين

والخميس، باستثناء إجازاتك لتقلّك إلى بيتي وهناك ستجد ابنتي منى بانتظارك مع أمها، لن أكون متواجداً في الأغلب ولكنهما ستكونان على علمٍ بقدومك.... سأخبر النقيب المسؤول الآن ليعطيك الأذن متى أردت الخروج.

- على الرحب والسّعة يا سيدي سأبذل ما بوسعي لتصبح بارعةً في اللغة الانكليزية وهذا وعد

- وأنا أعدك يا أحمد بأنك ستكون مميزاً جداً عندي وكل طلباتك مستجابةٌ وستحظى بأجرٍ ممتازٍ على عملك هذا

- أستغفر الله يا سيدي ماذا تقول أجر ماذا؟ لا أريد سوى رضاكم

- لا يا ولدي أعلم عنفوانك ولكن الأصول أصول وعليك أن تنفذ ما أقوله لأنه مصيبٌ حتماً ، تذكر هذا جيداً والآن بإمكانك الانصراف

- نعم سيدي تشرفت بالحديث والجلوس معك

هز العميد رأسه امتناناً لكلامه وودعه بإشارةٍ من يده فعاد أحمد بنفس الطّريقة النّظامية التي دخل فيها إلا أنّه ما إن أغلق الباب حتّى أحسّ باختلافٍ كبير، عرقٌ يتصبب من جبينه ونبضٌ خفت بغتة بعد طنين وشيء ما في روحه يؤوّل له بأن أحلامه ليست ببعيدةٍ وأنّ هذا العميد الذي أعجب به من دون أن يعلم كان شعوراً خفياً بحتميّة هذا الحديث.... ثمة أشياءٌ في الحياة لا تأت مصادفة أبداً حتّى بالأحاسيس.... وإحساسه هذا كان من أبرز الأحاسيس التي مرّبها يوماً في حياته المنخفضة السقف.... يا للسماء إن لامستها يداه ستقطفان نجومها نجمةً نجمة.

مترعاً بالفرح عاد أحمد إلى مهجعه، أحاط به أصدقاء المهجع

ليسألوه عن فحوى مقابلته، فطمأنهم أنّ ما حصل لم يكن بحسبانه، فاللواء معجبٌ برمايته الدّقيقة واختتم حديثه بأن ابنه يجد صعوبةً في تعلّم اللغة الانكليزية وطلب منه المساعدة فقبل صاح أحدهم «وهل بوسعك ألا تقبل يا أحمد؟» فضحكوا جميعاً.

أتاه صوت سعيد من أخر الممر: «الشاي جاهز يا أحمد تعال» وكنمرٍ متوثّبٍ قطع المسافة ليصل عنده بسرعة البرق. سعيد يصبّ قدحين من الشاي ورائحة القرفة تفوح من الشاي المسكوب، تنشق سعيد رائحة القرفة ملء أوداجه.... ملامح السّعادة باديةٌ على وجهه، وتقاسيمه مختلفة عن الهيئة التي ذهب بها عند اللواء

- ملامحك تغيّرت يا صاحب النيشان.... قل لي أتراه ابناً أم بنتاً. يقولها سعيد ببروده المحبب فيجيبه أحمد:

- يا لك من وغدٍ كبيرٍ.... كبيرٍ جداً.

ليضحك سعيد ضحكةً يهتزّ معها جسده الممدد في السرير:

- بتّ أعرفك أكثر من نفسي.... حتّى عندما تكذب

فابتسم أحمد وهو يرشف رشفته الأولى من قدح الشاي السّاخن العابق بالقرفة.

«وكأن طعم الشاي اختلف» قالها أحمد محدثاً نفسه التي استغربت تغير حاله التي لا تصدق.

الطّريق مستوية كالكف المفتوح أما المشهد فمتّشحٌ بالسّواد، لا ألوان تلوح بالأفق ولا شيء سوى حركة المقود المستسلم بين يدي السائق

محرك السّيارة الأصم يعطيها دفعاً هائلاً لدرجة أوصلتهما

المكان المقصود في غضون زمنٍ قصيرٍ، لبرهةٍ أحسّ أحمد بأنّه شخصٌ ذاهبٌ للمجهول جعله لا شعورياً مكدّر النّفس مغتاظ الشّعور، همس في نفسه:

- ربما هي احتياطاتٌ أمنيةٌ لا أكثر فلا يجدر لأيّ كان أن يعرف المكان الذي يقطن فيه العميد جابر ولذلك عليه عدم الانزعاج والهدوء

لم يعرف بوصولهما إلا عندما أخبره السّائق، أحس بالانفراج ففتح الباب كي يستكشف المكان الذي أقلّته السّيارة إليه ويا لهول ما رأى.... كان بناءً مخالفاً لكل ما رآه في العاصمة سابقاً من قصور لتجارٍ وأناسٍ مرموقين في الدولة ولكنّه هنا واقفٌ أمام صرحٍ معماريٍ مدهشٍ، أضعف الإيمان بأن يقال عنه قصر منيف.... نعم قصرٌ بكل فخامته وأبّهته المتعرّجة الهائلة والمرتدي حلّةً من الحجر المنحوت بعنايةٍ مذهلةٍ للعين، عدا الأبواب الضخمة التي تُفتح بالكهرباء، تقدم إليه من إحداها شابٌ قوي البنية وسيم الطّلة وعندما وصل قبالته ميّزه تماماً إنّه أحد الشّبان المرافقين للعميد جابر من كانوا معه في الاحتفال، سلّم عليه الشّاب بحفاوةٍ وترحيبٍ وطلب منه مرافقته إلى الداخل حيث تنتظره المدام والآنسة منى فتبعه أحمد دونما وجلٍ،فعليه الآن أن يحافظ على هدوئه ودماثته كي يحظى باحترام زوجة العميد وابنته، فالعميد سيزيد إعجابه به إن تكلموا عنه بالمديح أمامه وهو ما يصبو إليه الآن.

كوكب آخر.... داخل هذا البهو عالمٌ قائمٌ بحدّ ذاته مختلفٌ كلياً عن كلّ عوالمه التي رآها أو سمع بها يوماً، وقف مذهولاً للدّرجة التي ظنّ بها أنّه يحلم حلماً سرمديا يتمنّى ألّا ينتهي وبينما

كان ينقّل نظراته المفتونة قاطعته إحدى التحف بالقول:

- أهلاً بك أحمد أنرتنا.... أنا منى. مدّت يدها لتسلم عليه بلباقةٍ مرهفةٍ.

قبل هذه الحادثة لم يخطر ببال أحمد يوماً أنّ أفروديت تتكلم وأنّ لها يداً لتسلّم أو أنّها بتلك العربيّة النّاعمة بحاجةٍ إلى لغةٍ أخرى لتخاطب البشر فيها، تكفيها هاتين العينين اللتين جمّدتا الدّماء في عروقه وجعلته ذاهلاً عن نفسه.... كالنائم مغناطيسياً مدّ يده الباردة المرتجفة ليسلّم عليها مجيباً بصوتٍ متهدّلٍ متقطّعٍ:

- أهلا بك، شرّفتني أنا أحمد يسرني جدّاً أن أكون في خدمتك.

وسكت أحمد بعدها مجبراً، كلامه يبس في حلقه ولأن يدها الدّافئة أسرت في جسده كهرباء لاذعةً أعيت قوله ولسانه، ولأول مرةٍ يختبر أحمد كيف للجمال أن يصيب الإنسان بالعطب وكيف أنّ الجمال قادرٌ على قهر السّياسة ومضاهاتها حنكةً وجسارةً.... تقدّمت أمامه فمشى وراءها بتلقائيةٍ بحتةٍ حتّى وصلا إلى أمّها الباسمة التي سلّمت عليه بشكلٍ أنيقٍ كطلّتها الجذّابة فرحبت به وشكرته على ما سيقوم به من مساعدةٍ لابنتها منى واستأذنت بعد ذلك بدبلوماسيةٍ متقنةٍ محادثةً ابنتها أنّها تطلب لهما الشّاي لاحقاً وانصرفت تاركةً وراءها سؤالاً طرق دماغه المزدحم بالصّور والألوان

- أيعقل أن تكون هذه أسرة العميد جابر وهو الرّجل الصارم الدميم، كيف لذلك القبح أن يقترن بياسمينةٍ وينتج عسلاً مصفّى؟

الجلسة الأولى كانت للتّعرف إلى نقاط ضعفها في اللغة الإنكليزية فاستطاع من خلال حديثهما أن يحدد بدقّةٍ متناهية

ِنمط الدّروس التي تحتاجها لرتق ما لديها من ثغراتٍ، سبٌر بسيطٌ لقواعد اللغة أظهر مدى ضعف منى الحقيقي لتلك القواعد فوعدها بأن يكتب لها في أوقات فراغه في اللواء القواعد كلها ليلقنّها إيّاها بشكلٍ مبسّطٍ وسهلٍ تبسّمت منى في وجهه شاكرةً له لتقول:

- لم يفكَ أبي حقّك في المديح.... أنت متميزٌ فعلاً

كلام أربكه وبرهن له أنّه حظي بصورةٍ جميلةٍ في نظرهم وينبغي له أن يحافظ عليها جيداً فشكرها قائلاً:

- أنا في خدمتك أنستي، العميد جابر قائدي ونديـن له بالكثير.... أشكركم من قلبي لثقتكم بي.

أوصلته إلى حيث الباب وودّعته بابتسامتها التي تسبي القلب نبضه وتهدم الأضلاع لتحرقها وتنثرها رماداً مقدساً.... يا لها من فاتنةٍ ويا له من متيمٍ بسلمى ويا له من قبيحٍ ذلك المدعو أباها.

لم يلقِ بالاً لطريق العودة إلى اللواء ولم يشنّف حواسه لاستكشافٍ مستحيلٍ، كانت منى تستحوذ على عقله تماماً هي من النوعِ الذي يلغيك لتجد نفسك باحثاً عن ذاتك في تفاصيلها وتقاسيمها من دون أن تعلم هي بأنها صاحبة قرارٍ حقيقيٍ بخصوص أي شخصٍ يجلس قبالتها.... يا لسعد زملائها في الجامعة أو ربما يا لتعاستهم فكلهم وبدون أدنى شكٍ متيمون عالقون بين الخيبة والترجّي فمثلها لا يطال حتّى بالأماني فهي الأفروديت البهية ذات العزوالجمال وابنةٌ لأبٍ صارمٍ لا تُثنى له يد، أميرةٌ حقيقيةٌ في قصرٍ مهيبٍ وكلّ الكون في خدمتها.

انتبه أحمد أخيراً إلى ما آل إليه حاله فاستنكر على نفسه إعجابه الصّارخ بأفروديت واستحضر عمداً طيف سلمى الجميلة

ذات الضّحكة السّمحة موبّخاً نفسه في خيانته الرّوحانية لها فحبّها يقتضي وفاءً لا يشوبه أي إعجابٍ عابرٍ ولكن من يدري ربما لن يكون عابراً كما ظنّ أحمد.

وصل أحمد إلى اللواء فأمطره صحبه بالأسئلة ولشّدة انفعاله جاوبهم باقتضابٍ:

- الشّاب بحاجةٍ لدروسٍ كثيرةٍ أما بقيّة الأمور، فقصرٌ مهيبٌ وسطوةٌ وعزٌ وكفانا بالفقر عزوةً وجاهاً

فضحك الجميع من كلامه، بينما جالت عيناه باحثا عن سعيد والذي كان كعادته وقت الاستراحة يتمدد في السّرير يلف تبغه برويّة وحرصٍ، اقترب منه ليستشفّ من هيئته ماهيّة أسئلته وعندما ظلّ سعيد مشغولاً بلفافته بادره بالقول: «إنه السّحر يا سعيد» فجاوبه سعيد كأنّه ينتظر هذه المقولة بالضبط «وأراك حقّاً عدت مسحوراً يا صاحب النّيشان المذهّب»

وتعاقب ذهاب أحمد إلى القصر وفي كلّ مرّةٍ يعود بذهولٍ أكثر من سابقه إلا أنه كسياسي استطاع أن يخفي انبهاره عن الجميع، المكان الذي يذهب إليه متخمٌ بالجمال الصّارخ لدرجةٍ يستهجن فيها وجود ذاك العميد القاسي الملامح والهيئة كشجرة صبّار نبتت عمداً في روض من رياض الجنة.... زوجته دائماً ترسل له نقوداً في ظرف مختوم مع أحد المرافقين قبل ركوبه السّيارة متّجهاً إلى اللواء وفي كلّ مرة يجد المبلغ مطرداً وعندما حانت إجازته الموعودة بعد عناء انتظارٍ طويلٍ وجد أنه بعد ثمان زياراتٍ لذاك القصر لديه ما يكفيه ليعود محملاً بهدايا كثيرة لأمه وأخوته وليس بحاجة أبداً لأن يأخذ مالاً من أمّه عند إيابه فالدّروس لن تتوقف وستُستأنف فور عودته كما اتّفق مع العميد جابر.

حمد الله كثيراً وشكره على نعمه التي أسبغها عليه، اشتداد كربه أبقاه على يقينٍ بأنّ لله يدٌ خفيّةٌ، قادرةٌ على فصل ماء البحر عن ملحه، فقد انتُشل من ضائقةٍ ماليةٍ دونما تفكيرٍ أو تخطيطٍ لها.... السماء دبّرت ونفّذت.

اتصل بدريّة مساءً ليخبرها بأنّه عائدٌ في اليوم التّالي فبشّرت إخوته بذلك، تنهّدت مريم المنكبّة فوق كومة الأوراق القانونيّة وهي ترسم ابتسامة الرضا على محيّاها أما حسن فنهض فرحاً من فوق كتبه ليبدأ حديثاً عبثياً مع أمّه وأخته، فشرع بإعداده للشّاي على شرف المناسبة متحدّثاً عن دجاجةٍ طائرةٍ في الفضاء ستغطّ بأعلى طبقٍ شهيٍ من الأرزّ أو البطاطا. وبأن الحياة ستغدو ورديّة أكثر بعد قدوم أخيه وزاخرةً بالأطايب من الطّعام وبأنّ أسبوع إجازته هذا مختلفٌ عن بقيّة الأسابيع، طال حديث حسن حتّى انتهى من إعداد الشاي،أمّه وأخته تتبادلان نظراتٍ غامزةً ضاحكةً حول سيل الكلام الذي ابتدأ به فجأةً بجهوزية تامةٍ وغريبةٍ.

لهذا الشاب طاقةٌ كامنةٌ مدهشةٌ وإلا لما استطاع المحافظة للآن على توازنٍ نفسيٍ بهذا الشكل وهو الكادح لغياب الشمس في معمل الحجر الأسمنتي الذي يستنفد طاقته الجسدية تماماً ولكن طاقته الرّوحية الخصبة تبعث فيها العزيمة، فتتجدد جذوتها تلقائياً.... إحساس دريّة الّدائم بظلمه يقضّ مضجعها ولكنه أمرٌّلا مفر منه في حالك فقرهم هذا.

هاجسها بتأمين النّقود استبدّ بتفكيرها قبل غفوتها فجعلت تقلّب احتمالاتها كلّها، عليها التوصّل إلى حلٍ سريعٍ قبل عودة أحمد إلى قطعته العسكرية تركت كلّ الاحتمالات قائمةً ولكنها

عزمت أن تقلصّ احتمالاتها سلباً أو إيجاباً، ستطلب غداً من رئيس العمال سلفة على راتبها فلعلّ غداً يكون نهاية دوّامتها الإجباريّة تلك.

عادت دريّة من عملها باكراً في اليوم التّالي، نشدت وصولها قبل مجيء ابنها أحمد إلى البيت لتجهّز له الطّعام الشّهي وحماماً ساخناً، لاحت في مخيلتها صورةٌ قديمة لإبراهيم في ذاكرتها،فمنذ عهدها بسفر إبراهيم إلى لبنان أيّام زواجها لم تجهز ماء ساخناً لأحدٍ غاب فترةً طويلةً، غياب أحمد الطّويل رجع الماضي قسراً إلى ذكرياتها، ذكريات لسنين من الحبّ والوئام جمعتها بإبراهيم.... لأحمد ملامحٌ أبيه شكلاً، أما مضمونه فعلى نقيض ٍمنه فداخل والده عطنٌ عفنٌ تفوح منه رائحة الغي والخذلان على الرغم من بذخه أمّا ولده فلديه من الفضائل ما يزّين فقره على بشاعته.

وصلت البيت بعد أن مرّت على البقّالية الكبيرة في البلدة لتشتري ما يلزم، فابنها منذ زمن طويلٍ لم يذق طعاماً لذيذاً وحريٌّ بها أن يكون غداءها عامراً اليوم، حملت الأكياس عائدة إلى البيت وهي تفكر فيما قاله لها رئيس العمال وتمنت أن يرجع طلبها بالموافقة.... على مدير المعمل أن يوافق قبل رجوع ابنها الحبيب وإلا ستطرق باب احتمالٍ أخر من الاحتمالات الباقية.

تأملت خيراً على الأقل احتمالاتها الأخرى أقوى من الأولى بكثير ولكنّ عزة نفسها تدفعها لاختياره مع أنّه الأضعف نجاحاً، لطالما كرهت حاجة النّاس والاقتراض منهم، هو تسّولٌ مبطّن كما يدعوه ابنها أحمد، تركت أفكارها جانباً لم تشأ أن تفسد فرحتها بعودة ابنها بعد غيابٍ دام اشهرا وها هو يعود بأول إجازةٍ في بداية الرّبيع الذي طالما أحبه واستبشر فيه حسن الطّالع....وصلت إلى

البيت لتتجه من فورها إلى المطبخ بدأت بفرز أكياسها المكتظّة وملأت بعدها برميلاً كبيراً بالماء على موقدة حجرية بفناء البيت.

هكذا يعمد فقراء القرية حين اعتدال الطّقس بغية التّوفير في غاز الطبخ، الفقير تلزمه الحيلة وحسن التّدبير ولعلّ ذاك أصبح عندها من بديهيّات الفقر.

دبّرت أمور البيت بسرعةٍ، وضعت الطّعام على النّار وبعدها أخرجت فراش أحمد وأغطيته لتضعها خارجاً عرضةً للّشمس فسريره مهجورٌ منذ أمدٍ بعيدٍ ولا بدّ له من سريرٍ دافئٍ ينسيه قسوة الليالي الباردة التي قضاها يقارع البرد في صحراء خاوية، تسمع صرير باب الفناء فتهرع ملهوفة للخارج لتفاجأ بقدوم مريم وليس من تنتظره.

ابتسمت في وجهها بفتورٍ فبادرتها الصبيّة بالقول:

- لقد خيّبت ظنونك يا دريّة فالقادم مريم وليس أحمد

فتململت دريّة من حديثها وردّت:

- ليس كذلك يا بنيّة ولكنّي متشوقة لرؤيته فلقد غاب طويلاً جداً

فداعبتها مريم بعد أن طبعت على جبينها قبلةً طويلةً:

- أتراني إن تعمدت الغياب طويلاً ستشتاقين إليّ بهذا القدر؟

فتمازحها أمها وهي تضمّها بقوة إلى صدرها:

- لن أشتاق أبداً بل سألحق بك حيث تذهبين فأنتِ ابنتي الوحيدة

تنتفخ ابتسامة مريم حبوراً لتملأ وجنتاها الطّريتان الرّخاميتان لتفاجئ أمها بقنبلة كلامية

- أمي .... أحسب نفسي عاشقة

وصمتت بعد أن نفثت فوق رماد أمها الخامد ريحاً جعلت جمرها يلتهب من تحته

- عاشقةٌ يا فتاة؟

- نعم يا أمي هكذا أحس أنا لم أعهده من قبل، في مدرستي الثانوية كنت أستمع للفتيات يتهامسن ويتراشقن بعباراتٍ توحي بقصص عشقهن،ذات الدمامل المنزوية قرب الجداركانت بعيدةً عن عالم الحب الذي يخصهن،حتّى في الجامعة لم أجرؤ على الحب مع أني كنت أراه بأم العين سعيداً حيناً وشقيّاً حيناً آخر، دماملي كانت همّي الوحيد الذي منعني ليس من الحب فقط بل من الحياة عينها ولذلك حتى عندما شُفيت دماملي إبّان سنواتي النهائية لم أسمح لنفسي بأن أتورّط بأيّة علاقةٍ غراميةٍ مع أحد فكل الذين عرفوني وقتها عرفوا دماملي ولربما أردت الحب في حياتي خالياً من ذاكرتي الممتلئة بالصديد والاحمرار.

كلام مريم لم يكن مفاجئاً لأمّها، فدماملها الداخلية لم تتعافى بعد ولكن حيرتها تكمن في أن أولادها جميعاً يحاولون استبدال جلودهم وطي تاريخهم، الماضي المشين بسمعة أبيهم وفقرهم، ماضٍ مصاب بجذام الخذلان والقهر واستغربت «من قال لهذه الفتاة بأن الدّمامل تاريخٌ مشينٌ!» فتنهّدت بكلّ قدرتها طي الكتمان من دون أن تنطق ببنت شفةٍ، دخلت مسرعةً إلى المطبخ لتنهي عملها.

وقفت مريم خلفها تريد جواباً، فبقيت منتظرةً لسماع ما حبسته هذه التنهيدة الخانقة وبغصّةٍ مريرةٍ قالت:

- أحبّي يا ابنتي، فالحب سلطان ولعلّ الحياة ستهديك حباً يمحي تاريخ الألم كلّه

تذهب مريم إلى غرفتها لتبدّل ثيابها بينما تعود دريّة لمتابعة تجهيز الغداء مشغولة الفكر وقد لاح لها في فكرها احتمالان جائزان في حبّ مريم

- أتراه المحامي أنور الذي لا تنفكّ بالحديث عنه وعن جسارته ونبله أم عن المحامي ياسين الذي يرافقهما إلى المحاكم والمرافعات ؟

فجعلت تستعيد جميع أحاديث مريم وزلات لسانها فلم تجد أية إشارةٍ لاحتمالٍ ثالثٍ، ابنتها لم تعرف الكذب للآن فدماملها كانت جداراً عازلاً عن الحياة فلم تألفها جيداً وغراميات المراهقة لم تخبرها قط، الطّامةُ الكبرى الآن في عشقها الأول فإمّا أن يكون ربيعاً لا نهاية له وإما أن يأتي إعصاراً مدمراً ليطيح ما أبقت عليه الدمامل من الفتاة

خوفٌ تملّكها رويداً رويداً فلن تتحمل ابنتها بدمامل داخليةٍ نازفةٍ بعد احتفالها بحياةٍ رخاميّة، ومرّةً أخرى أبعدت الوساوس من رأسها محاولةً استحضار طيفٍ لأحمد العائد بعد غيابٍ طويل، أتراها عيل صبرها في اللحظات الأخيرة للغياب أم أنّ الترقب يزعزع أركان الجلد والتصبر؟

وفي غمرة ظنونها المتشاحنة في عقلها حانت منها التفافةٌ لباب المطبخ وراءها فإذا بحسن واقفٌ قرب الباب بثياب المدرسة.

منذ زمنٍ لم تعهد عودته من المدرسة فلطالما عادت لتجده ذاهباً إلى العمل في معمل الحجر الأسمنتي عند أبي صالح....هذا اليوم تبدّى حسن في عينيها كالقمر المنير تلفه هالةٌ من نورٍ، كم هي مجحفةٌ بحقّ هذا الفتى! فهو الأبعد عن تفكيرها والأقرب إلى قلبها في آنٍ معاً ألانه لم يكبر بعد، أم لأنه تعوّد منذ صغره أن يتحّمل

أعباءه بنفسه؟

تسلّقت نظراتها جسده الفتي باحثةً عن جوابٍ لبهائه الصّارخ، أطالت النظر فيه للحدّ الذي جعله يبتسم ملء وجنتيه لتفوح غمازتاه الجميلتان عطراً سماوياً خفق له قلب دريّة:

- ما بكِ يا أمي .... أتغيرفيَّ شيء ما؟!. فأجابته بحنوٍ صارخ:

- لا يا ولدي ولكني اشتقت إليك، فلم أرك عائداً بهذه البذلة منذ حين

وتدحرجت من عينها دمعةٌ ساخنةٌ ألهبت وجه الشاب الذي اندفع باتجاهها ليضمها وليمسح دمعها قائلاً:

- لمَ البكاء يا أمي؟

- اعذرني يا ولدي فأنت شقيٌّ بسببي ... اعذرني

فزع حسن من كلام أمه واستنكره على الفور

- لا يا أمي لستِ السبب بذلك، أنا من يحب الاعتماد بنفسه فلا تلومي نفسك، ها قد أصبحتُ شاباً وعليكِ الاتّكال عليَّ ويوماً ما سأريحك من عملك وسأجعلك ستّاً مثل خالتي تهاني

بعينين غارقتين بالدموع رمقته من قعر قلبها بنظراتٍ لم تدرِ كنهها أو ماهيتها لتقول له بأنه أعظم هبات الكون عندها وبأنها ستٌّ لأنه ولدها ويكفيها البقاء قربه لتكون ملكةً حقيقيةً، ضمّها حسن مرةً أخرى محاولاً تهدئة ثورة الشجن التي حرّكت أحزان أمهِ وعواطفها متيقّناً بأنّ أمّه مخلوقٌ نادر الحدوث فرغم كمِّ الألم الذي مرّت به ما زال قلبها يبكيه شجنٌ عابر ويزعزع قولها امتنانٌ لا تقدر على توصيفه فخاطبها ليزيح عن عينيها غمامة الحزن الماطرة.

- أتعلمين لم سمّوكِ دريّة؟!...لأنك درّة حقاً وجوهرةٌ نادرة

وتوجّه قاصداً غرفته لتبديل ثيابه فنادته دريّة:

- حسن ابق اليوم لا تذهب إلى العمل فأخوك قادم.

جاوبها بأنه سيذهب ليعتذر من أبي صالح ويعود مسرعاً لأنه بذات التشّوق لأخيه الذي طال غيابه أشهر حزينة.

وقبيل انطلاقه طبع على خد أخته قبلةً وانطلق صائحاً:

- أكثروا من الطعام فأحمد منذ ثلاثة أشهر لم يذق الطعام

وانطلق مسرعاً وهو يضحك ضحكةً تتدحرج أمامه.... ابتسمت كلتاهما من كلام الشاب فسرّت مريم لأمها بأن حسن منذ غياب أحمد بات يقبلها كثيراً ربما لأن غياب شقيقه يترك فراغاً كبيراً داخله فهما شابان ولديهما ذات الطبع فصارت الآن ملاذه الوحيد فيعمد إلى مداعبتها كنوع من التعويض اللامحسوس.

هزّت الأم رأسها موافقةً لقول ابنتها لتردف بشيء لا يمت بصلة لِما قالته مريم:

- من هو الشّاب يا مريم.... أقصد من تحبين؟

فأجابت مريم ببلادةٍ مصطنعةٍ:

- الأستاذ أنور صاحب المكتب

كلام مريم زاد مخاوف أمّها،رعشةٌ خفيفةٌ سرت من أطراف أصابعها المبللة بالماء إلى باطن روحها فماذا تردّ على الفتاة التي اختارت لحبّها الأول رجلاً بهذه الشّهرة الفارهة والحسن الأنيق، يا لقلبها الجسور الطموح ويا لهذا الحب الذي سيرفعها إلى السماء السّابعة إن أثمر ربيعه أو سيخسف بها الأرض لقعر الهاوية فتنمو في روحها دمّلةً قاسيةً تحتاج عمراً لتلين وتبصق صديدها.

أحسّت مريم بذهول وتكدر أمها الذي تبدّى بغسلها المتكرر لطبقٍ في يدها وعلمت بأن هناك أمراً ما يدور في رأسها فلم تطق

صبراً لمعرفته وخاطبت أمها بصوتٍ مستفهمٍ:

- أهناك شيء ما يا أمي !

- لا يا ابنتي ولكن هذا الحب فاجئني فالأستاذ أنور معروف جداً وغناه ذائع الصيت وأخشى عليك من حبٍ لا تكافؤ فيه.

فتجيب مريم باستهجان:

- وأنا أيضا محامية جميلةٌ وتاريخ دماملي مخفيٌ عنه بل ومحطّ إعجاب الكثيرين.

- أتمنّى ذلك حقاً يا ابنتي .... لكنّي خائفةٌ عليك فحسب وأتمنى من كلّ قلبي أن يتكلل هذا الحبّ بالنّجاح

- لي رجاءٌ عندك يا أمي ... أن لا تخبري أحداً الآن فالأمر في بداياته ولا أريد أن أفسد شيئاً بعلانيته المبكّرة.

فتجيبها أمها وكأنّ بارقةً لمعت في رأسها:

- هو قال ذلك يا مريم ؟!

- نعم يا أمي بل وطلب منّي ألا أخبرك ولكنّي فعلت. عديني يا أمي. تقولها بتوسلٍ

- أعدك يا بنيّة

«حفظك الله يا أمي الحبيبة» قالتها مريم وهي تعانقها من وراء ظهرها بأيدٍ متشابكةٍ أمام صدر أمّها المختلج بغصّةٍ خفيّةٍ وخوفٍ يرفرف في أضلاعها كطير شؤم. ابنتها اللصيقة بها كتلة إنسانية محشوة بالأمل والحب وهي الكتلة المحاذية المحشّوة قهراً وخوفاً فماذا عساه ينفع عناقٌ متفاوت الروح والحسّ إنه الاطمئنان اللحظي لثقةٍ وفيةٍ فعاهدت ابنتها خفاءً بأن تكون نبضها المرافق وسند قلبها وصلاةً لا تنقطع أبداً.

يصخب الفناء بضحكاتٍ مترادفةٍ، حسن يصيح ملء فمه:

- خمّنوا بمن أتيت لكم؟

كان صراخه كافياً ليفكّ عقدة التّشابك بين الأم وابنتها لتهرعا باتّجاه مصدر الصّوت، لا بدّ أنه أحمد... أحمد الذي تاقت له حواسهما.

كان الفناء عابقاً برائحة الربيع الممزوج بنسيمٍ قادمٍ في جيبيّ أحمد وكفيه... نسيم الجنوب المتاخم للعدو المفترض، أكسيرٌ لن يتذوّقه إلا قلب أمٍ أضناه اشتياق وأحيته رائحة من تاقت إليه. لم يبق في وجهه سوى عينان بارزتان كمحارتين تبديان درّاً، تلمّست وجهه بكلتا يديها كما لو أرادت تفحّصه وتفقده.

وجهه ذاته تعلوه أمارات السهر وآثار التعب، وجهه الأجرد أزاح ليله الجميل ليسدل ستائر من عرقٍ ناعمٍ، أما حضنه.... فيا لحضنه الذي يخرق الصدر بأنفاسه المعتّقة بالحنين. طوّقته كما تطوق البحار قرص الشمس حين غروب وبكل ما لدى الأم من ولهٍ لابن غائب أشعلته لتدفئ عظاماً مسّها الضرّ من البرد. في لجّة هذا العناق تخرس الكلمات وتصدح الآهات والعبرات وكل الكون يختصر بمشهد أقل ما يقال عنه بأنه الصدق عينه، فالغائب ضلع من أضلاعها السائبة وقد عاد مكانه. ارتمت مريم من شدة اللهفة في غمرة عناقهما الذي بدى سرمدياً فمدّت لها الشمس ذراعاً من لهفة وحنو لتضمها إلى ثلاثية من حنين .... شهد العناق المتأجج المتكوّر على نفسه ربيعاً بأكمله، حرارته طالت قلب الشّاب اليافع فتكاثفت غمائم عيناه غبطةً وحبوراً، فاستثار عنده سؤالاً قاله في غيروقته من دون قصدٍ،وضع حداً لعناق كان سيمتد أمداً طويلاً

- ما ضرّه أبي لو كان بيننا اليوم؟

بكفها الخشن المليء بأخاديد التّعب، مسحت الدّموع عن وجه أحمد وطوت رأسه على حضنها هامسةً له في أذنه:

- أنا أمّك وأبوك يا أحمد ألا يكفي

فأجابها بهزّةٍ من رأسه المطوي على صدرها والذي مازال عابقاً برائحة الحنين المعتّق.

جلست قبالة ابنها لوقتٍ طويلٍ تحضنه تارةً وتقبّله تارةً وتتلمّس كل تفاصيله، ملامحه أصبحت أكثر قساوةً وخشونةً ويداه مغلفتان بطبقةٍ جافةٍ متشققةٍ مشوبةٍ ببضع نقاطٍ نازفة، أمّا قلبه فازداد توهّجاً وحناناً.

وبعد أسئلة لا حصر لها تنتهي بإجابات مقتضبةٍ عند الشّاب المتعب، انهمر سيلٌ مؤجّلٌ من الدَموع حُبس طويلا في أحداقها فمهّد لثرثرةٍ أخرى انتهت بعناقٍ خاله ولداها الآخران لا نهائيّاً.

انهمكت مريم بتحضير الطّعام بينما دخل أحمد ليستحمّ بعد عناء سفره الطّويل، غياب حسن المفاجئ أثار استغراب أمّه وعندما وجّهت سؤالها لمريم عنه أجابها أحمد من داخل حمّامه السّاخن: «لقد أرسلته في مهمةٍ وسيعود قريباً»

نظرت الاثنتان لبعضهما متعجبتين من مهمةٍ مستعجلةٍ إبّان وصوله فوراً إلى البيت إذ لا بدّ وأن في الأمر سراً بينهما وقبل انتهاء أحمد من حمّامه وصل حسن محملاً بأكياسٍ لا حصر لها منادياً أخته لتساعده على حملها، صاحت به أمه:

- ما هذا يا حسن ومن أين أتيت بالنقود؟!هل هي من خالك سعيد؟

- لا يا أمي فأخوالي لم يعرفوا للآن أنه وصل هذا من أحمد، عناء السّفروضيق الوقت منعه من أن يشتري لكم ما يليق بعودته

فأرسلني للدّكان لأجلب لكم ما طلبه مني

الأكياس كثيرةٌ مملوءةٌ بكلّ أنواع الخضار والفاكهة وأيضاً علبتين من الحلوى الجاهزة وكيلوين من الهريسة الجاهزة والبن والمتة والسكّر وقبل أن تعاود أمه سؤاله المتوقّع بدهشتها هذه أكمل حديثه:

«النقود من أحمد يا أمي» وهنا كانت الغرابة الصّاعقة فمن المفترض أن يعود ولدها خالي الوفاض من النقود وصفر اليدين من أي شيء وهي التي تحاول بكل الوسائل أن تؤمن له مبلغاً من المال يكفيه في غيابه فما الأمر؟! كيف لأحمد أن يعود بعد هذه الأشهر من التقشّف والمعاناة بنقودٍ تشتري كلّ هذا وكأنه يوم أول الشهر.... بدا الأمر شديد الغرابة قاسي الوطأة على صدر درية التي أسرعت للدّاخل لتسأل أحمد قبل خروجه:

- أحمد من أين لك بالنقود؟!
- اصبري يا أماه لأخرج واسرد لك.... لا داع للقلق

كلامه زاد حيرتها بدلاً من طمأنتها.... من أين لمجنّدٍ غاب أشهراً أن يعود بنقودٍ كافيةٍ لكلّ هذا، لن تهدأ خواطرها ما لم يسرد لها الحكاية كلّها أما الآن فعليها انتظار خروجه لتفقأ هذه الدّملة وترتاح.... جلست على الأريكة القديمة قبالة باب المطبخ تضرب أخماساً بأسداس بينما انشغل حسن وأخته بتوضيب الأغراض المشترات كلٌ منها في مكانه وكأنما ليزيد توتر أمه خاطبها حسن قائلاً:

- لو كان عندك ثلاجة يا درية لاشتريت لك دجاجةً ولكن سنأكل هذه أولاً

وأشار بإصبعه إلى القدر المغطّى... برطمت درية بدهشةٍ

أعظم: «والنقود تكفي لدجاجة أخرى؟!» عليه أن يقنعني ذاك الشاب الحبيب فما حدث لا يقبله العقل والمنطق بأي شكل وتعود للسؤال ذاته «يفترض بهذا الشّاب أن يعود مفلساً لا امبراطوراً؟!»

أخيراً يخرج أحمد من الحمام تلفّه أطواق الرائحة الزكيّة، فتناديه أمه على الفور «تعال يا أحمد ... نعيماً يا ولدي» فيتّجه إلى أمه باسماً فأمه لن تنتظر طويلاً حتّى لبعد الطعام لتعرف مصدر النّقود ولكنه بادرها بالمزاح عند جلوسه جانبها

- انظري إليّ ألم يتغير لوني... ألم أعد أحمدك القديم ؟!. فترتسم ابتسامة رضاها المعتادة على محياها لتقول:

- أنت دائماً نظيف القلب يا ولدي ولكن قل لي بالله عليك ريثما تحضر أختك الطعام من أين لك بهذه النّقود؟!

- ألا تريدين سماع قصص الخدمة أيضاً؟

- نعم أريد سماع كل شيء ولكن المهم أولاً

فيجيبها:

- المهم الآن أنني أتضور جوعاً ولن أتكلم إلا والطّعام أمامي

على مائدة الغداء دارحديثٌ طويلٌ تمتزج فيه الشهيّة المفرطة لأحمد لطعام لم يذقه منذ سفره وأحاديث الخدمة الشّاقة.... حكى لهم عن الدروس والرياضة والخفارة الليلية والمشاريع الليلية المليئة بالعقارب وأخيراً بالوسام والعميد جابر وصواريخ المالودكا. كان حسن أكثرهم إصراراً على معرفة التفاصيل فأكثر من كيل الأسئلة على أخيه من دون أن ينسى سؤاله عن النّيشان الذي وعده أحمد بجلبه معه ليريه حسن لأصدقائه تباهياً بأخيه قبل انقطاعه لفترة ما قبل الامتحانات.

محادثة الغداء ما كانت سوى رؤوس أقلامٍ لليالٍ طويلة ٍمن البرد والخوف وشهور ٍثقيلة المروروالوطأة على قلوب من عاشوها في مهجعٍ واحدٍ، والأصح في لواء واحدٍ.... لن يحسّ بألمك إلا من شاطرك إيّاه فمهما كانت غصّاتهم واضحةً عند سماعهم الحديث لم تكن بمذاق المرارة بحلق سعيد في محرسه.... سعيد من ضمن الأحاديث التي أجّلها لما بعد الغداء كحديث النّقود أمّا منى فقد مسح اسمها من فهرس حديثه ليعدّلها بابن مفترض للعميد كما فعل في السّرية فالأفضل أن تبقى منى بعيداً عن أسئلةٍ هو في غنىً عنها ولاسيما أنّ منى لم تكن فتاةً عاديّةً وتحتاج لإسهابٍ مطوّلٍ لإيفاءها حقها.... أفروديت الحسناء.

وانتهى الغداء المزدحم بنهم الطعام والحديث أما جلسة الشاي فكانت للأحاديث السرديّة الطّويلة التي أجّلها أحمد لما بعد غدائه لأنه علم مسبقاً بأنها تحتاج لتفاصيلها أكثر من بنودها الرئيسة فابتدأ سرديته بحديثه عن النّقود التي جاء بها معه وكيف امتلأت جيوبه بطريق المصادفة ووسامٍ مستحق،حديثٌ شيقٌ غريبٌ جعلهم يشنّفون آذانهم ويصمتون باندهاشٍ لما يتشدق به أحمد من كلام لم يسمعوه من قبل تنهدت درية ملء أضلاعها لتدفعَ زفيراً طويلاً وهو يقصّ عليهم كيف حالفه الحظ حين اختاره العميد جابر لتدريس ابنه المقصّر في اللغة الانكليزية فناوله من الظّروف المختومة ما ملأ جيوبه نقوداً

وبعدها جاء دور سعيد في حكايته تلك كمرطّبٍ لجفاف حلقهم من دهشة الحديث الأوّل.... استفاض جداً في حديثه عن سعيد الذي يحب، كيف تعرّف إليه، مروراً بجميع المواقف الصعبة التي جمعتهما معاً واجتماع الشاي المعتاد كل يوم وقصص وأحلام

ليالي الخفارة الطويلة وعن التوافق الفلسفي بينه وبين حسن فسُّر حسن لسماعه بأن لفلسفته تلك معجبين كثرٌ يحللون الأمور بعينٍ خبيرة.

كانت الخلاصة والزبدة النافعة فيما قاله أحمد أنّه عاد بنقودٍ قد تفوق ما ذهب بها معضلة دريّة قد حلّت من دون أي جهد فحمدت الله في سرّها وخلدت للهدوء، بيد أنّها قررت أن تأخذ السّلفة في حال قبول طلبها من مدير المصنع لتشتري بها ملابساً لمريم وحسن قبل ذهابه للامتحان فمريم العاشقة ستتململ من ثيابها قريباً جداً.

وحسن الذي اعتاد على تأمين احتياجاته بنفسه، عليه أن يترك العمل عند أبي صالح للتّحضير لامتحانه النّهائي، خوفها يتزايد من رسوبه، فالتعب نال من قدراته الذهنيّة المتعلّقة بالعلوم ودرجاته في نهاية الفصل الدراسي الأول لم تكن مرتفعةً.

لم يلمه أيّ منهم فاللوم كما تحدث نفسها به أمّه يقع على عاتقها وعلى أبيه وعلى الفقر الأسود... همست لنفسها خفيةً عن أولادها بأن أفضل ما حصل لهم في الشهور المنصرفة على الرغم من غياب ولدها هو تدريسه لابن العميد الذي حلّ مشكلةً كانت سترهق كتفها وتشتت انتباهها عن ولدها الصّغير، حرصها على تأمين احتياجات البيت أضرّ بهذا الشاب الذي نشأ كما اعتادت أن تطلق عليه ابناً للحياة فحتّى اخوته في سنه لم يخبروا الشقاء ولم يتلمّسوا الألم بهذا القرب، بأعوامه الخمسة عشر يرفع بيده مع أمه أعمدة البيت كلّه، عسى أن تنضم إليهما مريم في الشهور القادمة ولاسيما أنّها صارت تذهب للمحاكم وحدها من دون الأستاذ ياسين إذا تطلّب الأمر ويؤخذ برأيها في عددٍ من القضايا وهنا عبرت أمامها صورةٌ للمحامي الذي تحبّه ابنتها والذي لم

تتعرف إليه بعد.

يأكلها خوفٌ مبهمٌ تحاول إزاحته فيتسمّر في بوابة شريانها معلناً ارتفاع نبضها وتسرعاً محموماً في تنفسها.... حاولت المحافظة على هدوئها أمامهم سيّما أنّها عاهدت ابنتها بعدم إفشاء سرّها لأحد ويا له من سرٍّ ثقيلٍ يرهق الصّدر ويعيي الرّوح.

يقرع الباب بدقاتٍ منتظمةٍ، يهرب خوفها فجأة أزاحه فرحٌ متوقعٌ بقدوم سعيد، هذه هي دقاته. سعيد شخصٌ مؤمنٌ فهو كما ربُّها لم يخذلها يوماً، حتى عندما قاطعها عاد ليثبت أنّه كان مصيباً في وقتٍ رفضت فيه عالمها باستثناء من رفضها من عالمه. عودة في محلّها بدقةٍ متناهيةٍ قصمت ظهر الخذلان بنصرٍ مؤزرٍ أعتقها من مقصلة جريمة وشيكة الحدوث.... تدين لسعيد بالكثير، ما يعرفه أولادها وما يزيد ما لا يعرفونه، فمنذ أن عاد سعيد لم تعد مضطرة لتدقّ باب أحد، حتى سلفتها كانت خياراً أولاً يناسب شآمتها وربما سيترك سعيد لابنها مبلغاً ليعود. فالسلفة صارت أمراً مقضياً ببطلانه على هوى من سيكون وراء الباب.

فتح حسن الباب لتتدافع الأصوات داخلةً إلى الفناء هرجٌ ومرجٌ وأصواتٌ ناعمةٌ، لقد أتى أخواها سعيد وإحسان مع عائلاتهم جميعاً ليسلّموا على ابنها العائد وأعلموهم بأن البقيّة سيأتون بالتتابع كي يتفادوا ضيق المكان، فأجابتهم دريّة وهي تعانق أخيها إحسان بشوقها المعتاد: «قلبي يسعكم كلكم يا أحبة».

شجرة دراق صغيرة

قبيل غروب الشمس، والضوء يدغدغ سماءه بمزاحٍ تحمرّله سحبها ويتمطّى له الشّفق كضحكةٍ ناعسةٍ. العصافير منتفخة الأوداج من حقل الحنطة متخمةٌ بألحان ما قبل الهجوع فأفنانها ما زالت تتراقص مع نسيمات الغروب الدافئة. الصيف مازال شاباً كحسن الجالس تحت شجرة الدّراق التي استطالت سريعاً استجابةً لصلوات من زرعها بيدين عتيقتين من تعب وصبّت عليها ماءً وحنيناً على أمّها البائدة التي نخرها الدود... يشقّ على أنفسهم أن يبقى منزلهم بدون أفيائها وحضنها الذي كان يلمّهم شهوراً طويلة أنساً ومحبة وأحلاماً.

حسن ابن الحياة التي جارت عليه بداية امتحانه في الإعداديّة العامّة فكسرت ساقه اليمنى فلُفّت بأطواق من الجبس الثّقيل، ما منعه من الذهاب لوحده للامتحان مضطراً للاتكاء على أمه وأخته اللتين كانتا ترافقانه إلى قاعة الامتحان كل يوم. تتأخران بذلك عن أعمالهما، فجاءت نتيجته ومعدّله مكسوراً لما مّربه من كدٍّ وشقاءٍ وألم. معدله لم يدخله ثانويةً عامةً بل أرسله إلى إحدى الثّانويات الصّناعية التي افتتحت مؤخراً في المدينة المتاخمة.

لم يلمه أحد وهو من يجابه الحياة بصلابةٍ وعنفوانٍ يضاهي أعتى الرّجال منذ أن كان غضاً كغصنٍ يلوى بسهولةٍ أما الآن فقد اشتدّ ذراعه وصار لغصنه الغض قشٌر قاسٍ، يعبره نسغٌ جياشُ بالحياة.

منظر الغروب يحفّز عنده ذكرياته القديمة فتصبح أرض الخرنوب ساحة عرضٍ لشريطه السينمائي الخاص وكأنّها عادةٌ موروثةٌ من أمّه دريّة.... دريّة التي ينتظرها لتعود من عند خاله جمال بعدما ذهبت مباركةً له بزواج ابنته قبل اسبوع.

مشاهد الثّانوية تعبر بفوضاها النّزق لشبابٍ حديث العهد بهذا النّوع من التّعليم والذي كان منعدم الهويّة والاتجاه آنذاك، فوضعت المناهج بغيابٍ تامٍ لتوجيه طموح أي طالبٍ عندهم ولكنّه كان موجهاً بإعجابٍ فطريٍ لخاله سعيد، الذي غدا حداداً معروفاً في المنطقة كلها وابتاع محلاً في المدينة وافتتحها مخرطاً للحديد وقصّه فاستبدل حسن معمل أبو صلاح بورشة خاله التي درّت عليه مالاً أكبر، ووجهته بديلاً عن الكتب التي لا معنى لها إلى خط حياته القادمة فلم يتابع دراسته بعدما تخرج من الثّانوية الصّناعية، فتوجّهه كان لا يحتاج كتباً إضافية يحتاج جلداً وعزيمةً كالتي في زنديه وساعديه المفتولين من شقاء سنين يفاعته.

خدمته الإلزامية لم تكن قاسيةً كخدمة أخيه، فمنصب أحمد الرّفيع في وزارة الخارجيّة قلّص خدمته لثلاثة شهورٍ في بدايتها ليعود إلى البيت شهراً كاملاً وبعدها يلتحق بقطعته اسبوعاً واحداً، ليكون في حراسة إحدى الفيلات التي يقطنها كبار القادة في الدّولة فلم يتأثر عمله بواقع خدمته بل ربما عدها أحياناً فاصلاً ترفيهياً من ثقل الحديد ووجع الظّهر، ومضت السنتان مسرعتين ليمهر في نهايتهما صك عقد عمل في إحدى الدول الخليجية والتي تعطي رواتباً باهظة لمعلمي الحرف، فسافر رغماً عن أمّه وبتشجيعٍ من أخيه الذي أمّن له فرصة العمل تلك

ومن وأخته النّاقمة على الشّرق كلّه تهاجمه كما تهاجم أي مجرمٍ في قاعات المحاكم التي أصبحت فيها محاميةً مشهورةً.

لقد تبدّل الحال كثيراً حتى قبل سفره والآن بعد أن سافر سنين عقده العشرين، وهبها لأحضان الغربة تتخللها زياراتٌ متقطعةٌ ناتجةٌ عن حمّى الشّوق التي لا تقاوم لدريّة. عقد العزم بعد مجيئه الأخير بألا يسافر ثانيةً وسيبقى لصيقاً بدرية كلّ العمر فلديه من المال ما يكفي لشراء بيتٍ في المدينة وإصلاح بيتهم القديم الذي أصبح بواقع الحال جيداً بأثاثه وإكسائه. فأحمد سبقه زمنياً في إخفاء معالم فقرهم عن حياتهم فابتدأ بالبيت الذي فرشه بأثاثٍ جديدٍ واشترى ثلاجة وغسالة وفرناً جديداً، وجهّز المطبخ بشكل حديثٍ كما يليق به من رفوفٍ وسيراميك وأعاد إكساء الجدران بالإسمنت الناعم ليدهن بدهانٍ زيتي لامعٍ يمحي ما خطّه الحزن من خربشات أقلام رصاصٍ ورسوماتٍ لطيّارات حسن الورقيّة.

أرض البيت الاسمنتية أُلبست كما أرض الفناء بمساحةٍ ناعمةٍ من البلاط الموشّى بأحجارٍ رخاميّةٍ صغيرةٍ ولم يبق من المساحات القديمة ذات الطابع الأسمنتي سوى مساكب الورد الجوري وياسمينةٍ زرعت حديثاً، ومكانٌ خاصٌ لجذع شجرة الدّراق ولكن البيت على جهوزيته المقبولة إلا أنّه مازال صغيراً ليغدو من المستحيل أن يستقرّ أحدهم فيه. فمن غير المنطقي أن يحشر شابٌ وفتاةٌ في غرفةٍ واحدةٍ وإن كان أمراً حاصلاً للآن إلا أن مريم بعد أن استأجرت بيتاً مع زميلة لها في المدينة قريباً من مكتبها الجديد، أبقت الغرفة لحسن وحده الغرفة التي هجرها زمناً طويلاً.

دموع أمّه من أرغمته على العودة في آخر اتصالٍ هاتفي دار

بينهما فمريم كانت عاقدة العزم على الاستقرار في المدينة حيث عملها، فتعب السّفر اليومي أرهقها وزاد من حدّتها المتأزّمة يوماً بعد يوم. أمّا أحمد فاستقرّ في العاصمة والتي قد عُيّن فيها بمنصبٍ مرموقٍ بوزارة الخارجية يؤثر قدومه إلا في المناسبات التي يقتضيها الواجب أو عندما تتصل به درية وهسيس الحنين في صوتها فيرغمه على القدوم فيزورها وزوجته الجميلة منى زيارةً ليومٍ واحدٍ ثم يعودان بسيّارته الفخمة مع ولديهما إلى العاصمة.

ربما لديه بعض الحق فلن تتحمل زوجه وأولاده ضيق المكان وهم من اعتادوا انشراح الأمكنة. الإنسان رهن بما ألفه وتعود عليه، أحمد الذي لم ينس ما مرّ به فعمد إلى طمسه فأصرّ على إكمال البيت قبل تعيينه في السلك الدبلوماسيّ تحسّباً لأي ظرفٍ يرغمه على استقبال النّاس في مسقط رأسه. أما منى ابنة العميد جابر فكانت وأهلها على علمٍ بحال أحمد وتاريخ فقره ولكن حظه لم يعانده فأحبّته الفتاة على الرغم من فقره، فانتشله أبوها من أديم العوز إلى جنّة النّعيم فزوّجه ابنته بعد تسريحه مباشرةً ونقله من الجامعة السّاحلية ليصير قريباً منهم في العاصمة واشترى لهم بيتاً في العاصمة وشاركه بأعماله الأخرى كتجارة الألمنيوم والعقارات. فالعميد جابر لم يأت ِغناه كما كان يُعتقَد من مخصصات العساكر أو رشاوي الضباط كما كان سائداً في وقتٍ من الأوقات، لم يكن يوماً مختلساً لقرشٍ واحدٍ وهذا ما جعله مثيراً للرّهبة والخوف في نفوس الضباط الآخرين، فهو ضابطٌ مستقيمٌ نزيهٌ، لا يغرّه الثناءات والمديح ويبجّل الوفي الشجاع وقصّة نياشينه كانت تتكرر دائماً في كل سنة. ولكنّه على الرغم من كل هذا أَجبر أحمد على تملّق بغيضٍ مقابل منصبٍ

رفيعٍ في وزراة الخارجيّة، ولا تزال كلماته ترنّ في أذن حسن ذات اتصالٍ خانق.

- حتى تفوّقك العلمي لا يكفي يا أخي لتنال استحقاقك قياساً لجدارتك في هذا البلد فلأجل استحقاقك عليك أن تتسوّل، يلزمك مبلغٌ كبيرٌ من المال وقبلاتٌ شتّى لا تدري أين تلصقها، لم أكن أتخيّل وأنا المجاز المقتدر مادياً أنّي سأضطر لأتسوّل خدمةً من أحدٍ مهما بلغ شأنه، ظننت أن شهادتي الكبيرة تؤهلني، تدعمها جيوبي المليئة وشهرة عمّي الخارقة إلا أنه هنا يبقى فوق كل كبير أكبر منه والهوة بينهما تقتضي تسوّلاً معيناً

وأمام اعتراضي عليه بأن ذلك لا يُعدّ تسوّلاً بحكم المنطق يجيب كما كان يجيب دائماً حين كانت أمّه تطرق أبواب الناس لحاجتها للنقود

- حاجة الناس أيّاً كانت بغض النظر أكانت ديناً أم حاجةً هي تسول بمطلق الأحوال فإما أن تكون مكتفياً أو متسولاً ولا حلّ آخر

ليصل في نهاية حديثه بأنّه يأمل أن يصير رأساً كبيراً يوماً لكيلا يتسوّل أحداً وليكفي الناس إحراج تسولهم مهما بلغت حاجتهم، وبالفعل فقد ساعد أحمد الكثير من أبناء قريته بوظائف حكومية لم تكلّفهم قرشاً واحداً كما كان دارجاً آنذاك فكأنّ تسوّله ذاك كان نذراً يستحق إيفاءه بحفظ ماء وجه الكثيرين ممن يعرفهم من أبناء فقره القديم.

أما مريم فلم يستطع أحد من إخوتها معرفة أي شيء عنها إلا بما تود هي أن تخبرهم إياه، الفتاة أشبه بصندوق مقفل، حياتها مليئة بالتناقضات وجهها الرّخامي لم يعد نعمتها السابغة لحياةٍ

ملؤها الرضا. أمه تقول إنه نزٌّ لدمامل قديمة في روحها ولكن الفتاة ناجحة في عملها بشكل يثير الشكّ في ضياع داخل روحها ودائماً كان صوتها يشي بحالها، كان يطرق سمعه من بعيدٍ في غربته عبر سلك الهاتف فحيناً يأتي هادئاً مليئاً بشغفٍ يتوق لحياةٍ ملوّنةٍ بفراشات قلبها، وأحياناً يأتي هادراً صاخباً ممتطياً صهوة نقمةٍ لا يدرك مصدرها. بيد أنه كان يشعر بأسىً شديد حين كان إيقاع صوتها يعزف على لحنٍ حزينٍ معتّق بشجنٍ لجرحٍ قديمٍ وأيامٍ خلت فيعلم أنّ جرحها القديم قد نُكئ للتّو.... يا لجرحها اللعين الذي يحجب عنها للآن محاسن الحب ولهفةً لطفلٍ تحمله بين ذراعيها.

لم تخبره مريم يوماً عن جرحها ولكنّ درية اتّصلت به ذات يومٍ باكيةً لدّكان خاله سعيد في المدينة لتخبره أنّ أخته هامدةٌ لا تتحرك أبداً وبجانبها علبة دواءٍ فارغة مرميّةً على الأرض تشرح مافاتها قبل وصولها إليها.

كل ذلك قبل التحاق حسن بخدمته الإلزامية بشهورٍ قليلةٍ لتكون الحادثة مفتاحاً لتساؤلاتٍ جمّةٍ، فما الدّافع الخفّي الذي يجبر محاميَة نالت شهادة الأستذة قبل بضعة أشهرٍ أن تقدم على فعلٍ أحمقٍ كهذا لتخبره أمّه بأنّها عاشقةٌ منذ ثلاث سنوات وتحفّظت على بقية القصة من دون ذكر الحبيب المفترض، وقتها لم يلق بالاً لأسمه ما كان يهمّهم وخالهم سعيد الذي دفع فاتورة المستشفى بعد غسيل المعدة الذي أجري لمريم إسعافياً، أن تخرج من المستشفى من دون أية شائعاتٍ وتقوّلاتٍ تسيء لسمعة الفتاة وانقضى الأمر فعلاً بتسممٍ غذائي أودى بها للمستشفى وجعل أهل البلدة يأتون للاطمئنان عليها.

يشهق حسن ملء رئتيه، فيملأ صدره هواءً مخموراً بعطر الجوري ليزفر ما ملأه على مهل ويسأل نفسه سؤالاً فلسفياً بطابعٍ دينيٍ مخالفٍ تماماً لأفكاره النّمطية، هل يعقل أن يكون فشل حب أخته مع الأستاذ أنور والذي كُشف عن اسمه الغطاء فيما بعد جزاءً لأحمد لخذلانه سلمى التي اتّصلت بدريّة يوماً وهي تهذي من بكاءٍ مريرٍ عصف داخلها فقلع منها أضلاعها وروحها وتركها تشبه الركام المتحرك؟ أيعقل حقاً أن الله يعاقب أحداً بدلاً عن آخر حتى لو كان في ذلك حكمةً؟

سلمى هي اللغز المحيّر الوحيد في حياة أحمد الواضحة، وجومه أمام والدته لم يكن كافياً لتفسير كلّ ما جرى وقتها آنذاك، هل حُكم على حب سلمى بالموت خنقاً بحكمٍ من ابنة العميد جابر أو ربما من العميد جابر نفسه؟ أحمد الفقير، من وقعت أفروديت في حبّه من دون علمه وكان لها من الجرأة أن تصارحه بما في نفسها من مشاعر حبٍّ له وأن تصارح أباها بقرار قلبها الذي مهره أبوها بصكّ الموافقة.

خياران وحيدان إما الموت أو الموت ويبدو أنه اختار الموت الذي يوصله لما هو عليه الآن.... سطوة وعزٌ وجاهٌ وتاريخٌ ناصعٌ جديدٌ وهنا تثبت فلسفته القديمة استمراريتها في جعبة أفكاره، هناك فرق بين موتٍ وموت، وبين حياةٍ وأخرى.

أبوه إبراهيم وحده من لم يختلف عنده في حياته أي شيءٍ عداه ففي نظره يمثّل وجوده مركزاً لثقل الكون فلا عاقل يبرر نبذه للحمه ودمه سوى نرجسيةٍ قاتلةٍ، لم تعنه يوماً المواثيق والرّوابط الأسرية وهو الحانث بمثياق حبّه مع فتيات الليل وضفدعة تنقّ متخمة بالنقود.

منذ طلاق أمه وأبيه لم يعد للبلدة مطلقاً. خاله سعيد أحياناً يجلب بعض الأخبار لأخته من لبنان إلا أنّ الأخبار انقطعت بانقطاع سعيد عن السفر وآخر خبر وصلهم من أحد الأشخاص العاملين في المنطقة الشمالية في لبنان برؤيته في أحد المقاهي مع صبّية في مقتبل العمر بدون ضفدعته السّابقة.

أطفأ المساء شريطه السّينمائي الطّويل واتّشحت أرض الخرنوب بالسّواد. مضى الوقت مسرعاً فالساعات تختلف باختلافنا نحن والزمن مناط ٌ بالنور فقط. نحن من نكيّف السّاعات حسب رغبتنا وحالنا فنلوّن ساعاتنا حزناً وشقاءً أو فرحاً وأملاً... إلا أن السّاعة الكونية الكبيرة دائمة الدّوران إلى ما لانهاية لا ينالها التّعب ولا يصيبها العطب ولا يدركها خيال الإنسان مهما حاول رفع سقف مداركه. فيوماً ما سيطويه الزمان والمكان ولا يبقى من وجوده إلا أثرٌ طيبٌ وتأشيرات عبوره المكتوبة على شاهدة القبر.

تحسس حسن ساعة يده فوجدها قد تخطّت الثّامنة مساءً وأمّه لم تعد بعد. دخل البيت فأضاءه بالكهرباء وترك الفناء لضوءٍ خافتٍ قادم من داخل الغرفة. منذ أن عاد من سفره أحب الانفراد كثيراً لوحده والانزواء في ظل نورٍ خافتٍ. لقد ضاق ذرعاً بمدينة صاخبة الأضواء والأصوات على مدار اليوم. أراد أن يعيد لنفسه قسطاً من راحتها القديمة وعاداتها البسيطة المغدقة سكينةً وراحةً على نفسه. سنين غربته جلدته برياح حنينٍ لا تهدأ. بغصّة صوت أمه المعلق في ذهنه كناقوسٍ وباعتذارٍ لأخته بعدما تركها تنازع دمّلتها الملتهبة النازفة حباً.

صورة مريم لم تفارق أبداً درب سفره. صورتها الذابلة وهي

جالسة في طرف سريرها كوردة هجرها ربيعها مبكراً وعصفت بها ريح الخماسين فعفّرت وجهها رمداً ودموعاً وغباراً، فرافقته صورتها المهزومة في حقيبة ذاكرته حين سافر. حادثة مريم كانت سبباً في استقالة درّية من المصنع الذي تعمل فيه، ألقت الملامة على نفسها لغيابٍ طال ساعاتٍ عدةٍ ولكنه كان كافياً لتحاول مريم إنهاء حياتها في لحظة جزعٍ وتشتت، كفكفة الدموع ولملمة أشلاء الروح وشتات النفس ومداراة النحيب بصلاة وابتهالات وتصبر، ظلّ ثمداً بخساً أمام هول الوجع وقبح الخديعة وتشظي الرخام.

ثمة أوجاع لا تشفى ببلسمة الكلام أو عناقٍ يضيّق خناقها، هي بحاجةٍ لزمنٍ وذاكرة مثقوبة أما النحيب فهو دواء وقته، كل الأوجاع لا تهدأ إلا إن استفاضت لقمتّها ليبدأ عدّها العكسي كحال الذاكرة تماماً.

حسن لم يخفق قلبه للآن منادياً لأحد، فقر حاله كان رادعاً لأي جمالٍ يحاكيه باستثناء وحيد، فتاةٌ في الثانوية كان يتمنى رؤيتها دوماً، يتنظرها لتخرج من الثانوية الفنّية المتاخمة لثانويته، ويلاحقها بنظراتٍ خجلة. إعجابه كان أخرساً أبكماً واجتهد بأن يخفي اهتمامه لكيلا تبدو عليه أي علامة من علامات الإفتتان، لطالما أحس أن الحب يزعزع النفس إذا حل في غير أوانه، وأوان الحب لا يحل في جدب الفقر.... فلسفته الخاصّة المبكرة أنقذته من حروبٍ كثيرةٍ مع روحه اليانعة المرهفة وحمتها من تصدّعاتٍ مبكرةٍ، أما الآن فيجب عليه أن يتقدّم بنفسه ليطرق باباً للحب مخالفاً بذلك فلسفته التي تقتضي مجيء الحب لوحده من دون تكلف بالذهاب إليه.

قلّب في رأسه كلام أمّه درّية عن ابنة خاله الصغرى لإحسان،

فتاةٌ على قدر من الجمال تضاهي أبهى المذيعات، تذكرها بأيّام صباها السّالف، وافقها لسببٍ أبقاه خفيّاً عن أمّه، هو يريد استمراراً لأمّه طوال العمر زوجةٌ، فمهما تكاثرت النسوة وفقدت درية جمالاً تبقى درتهم وما من انثى لتضاهي معدنها النبيل قالها بامتنان تجاه أمٍّ نالت السنون منها تعباً وسقتها سّماً زعافاً فحوّلتها كنحلة مثابرةٍ لشهدٍ صرفٍ. وكسنبلة قمح مضيئة تلبس إزاراً قمرياً، تلج أمه من الباب بثوبها الطّويل المذهّب ومنديلها النّاعم المطرّز الحواف المتدلّي على كتفيها كحمامتين وقبل أن تصل قبالته تماماً نطق إعجاباً ومحبةً وبرّاً بوالدته

- اللهم صلّ على كامل النّور.... الله يا درية يا ست الكل... ربي يعزك ياغالية

فتفتح درية له ذراعان من تفاحٍ وحضناً من عبير لتطّوقه بحضن الربيع المستقر في صدرها أبداً وتطبع في جبينه قبلةً لتهمس له بهدوء كعادتها باحتضانه وهو صغير

- يا قرّة قلبي يا حسن... يا فرحة عمري يا حسن... يا وجه القمريا حسن

حسن هو قدرها وقمرها وابنها الذي أهدته للحياة بقرارها وحدها متحدّيةً أنف الفقر وربما التسّول، درية تليق بعظيم، ضنت عليها أقدارها بزوجٍ يعزّ قدْرها فأعّزته بأولادها وها هو عظيمها ماثلٌ أمامها فما أعظمها الآن من أم.

- تأخّرت يا درية... اشتقت لك. فرسمت ابتسامة وهي تجيبه
- اشتياقك قديمٌ يا حسن... فأنا لم أتأخر

فيحرك رأسه إعجاباً بجوابها ليضيف:

- إني لست فيلسوفاً بالمصادفة أبداً فهي صفة موروثةٌ لا

مكتسبةٌ كما ظننت

مشيراً إلى فلسفتها التي تجلّت قبل قليل فتردف أمه:

- أما فلسفتي جاءت من معاناتي الطّويلة المضنية أما فلسفتك جاءت من حلمك الأول حين كنت طائراً على سحابةٍ، ومن زقزقة عصفورك عينه المزعجة بعد الظهر المنعشة صباحاً وهناك فرق أليس كذلك يا صاحب الفروقات والاختلافات.

يهمهم حسن بضحكةٍ ممزوجةٍ بإعجابٍ أكبر من سابقه ليسأل:

- أتذكرين أحلامي يا أمي؟

- طبعاً لقد كنت جزءاً منها فكيف سأنساكما معاً

وهنا أقرّ بفلسفتها الخارقة التي فاقته قولاً وتفسيراً وكامتنانٍ وتقديرٍ لما أفاضت به من قول قرر أن يعدّ لها شاياً بالنّعناع كما كان يعدّه في غربته الطويلة فهزّت رأسها موافقةً فيما عكفت على جمع الغسيل وترتيبه في سلةٍ كبيرةٍ.

حول قدحين ساخنين من الشاي تدغدغ رائحة النعناع المنبعثة منهما لهاثاً متصاعداً أنف الهواء فتنعشه. دارت أحاديثٌ طويلةٌ بين حسن وأمه تجاذبا أطرافها كما لو كانا على موعد مع سهرٍ سيطول مداه ليتّسع لأحاديثهم كلها التي افتتحتها درية بتفاصيلٍ عن زيارتها لمنزل أخيها. لتبارك للعروس بعد عودتها لبيت أهلها بعد زفافها قبل أسبوع وأكملته بإشاراتٍ وغمزاتٍ لولدها بمقابلتها هناك ابنة إحسان مصادفةً. لمى. التي أخبرته عنها مستفيضة بالشّرح. عذوبة حديثها ودماثتها ورقي ثقافتها وتفوّقها الدّراسي أيضاً. فأكمل حسن الحديث بأنه سيزور بيت خاله قريباً ليتعرّف إليها عن كثب وبأنّه سلفاً سيحبّها لسببٍ وحيدٍ. لأنّه يريد

نسخة من أمه في حياته فمثلها قليلٌ بل نادر الوجود.

وانتهت الأحاديث بالغائبة الحاضرة مريم، والتي ازداد قلق أمّها عليها بسبب فشلها في علاقاتٍ أخرى ممن تقدموا لخطبتها مؤخراً، لم تحبّذ مريم خطبةً تقليديةً أوزواجاً يقاس بذراع العقل والمنطق تريد حباً أولاً وآخراً فإما أن يأتي أو لن تقدم على قرار الزّواج أبداً.... تتلبّد ملامح درية بالحزن حين تتكلم عن ابنتها الجميلة المتفوّقة والتي لم تتقبل يوماً من أمها درساً مفاده أن الحبّ ليس مقياساً ناجحاً للزواج ودرية نفسها أكبر مثل عليه.

الفتاة تريد حباً يحترم وجهها الرخامي وإلا فستبقى بنظر روحها ذات الدمامل.... هي تبحث عن الحب لتراضي ذات الدمامل القديمة المهمّشة المحطّمة الملسوعة بيعاسيب القبح فغدت محمرّة نصف شبابها كقرص شمس ملتهبٍ ذا هجير.

وعد حسن أمه قبل أن يختم النعاس سهرتهما تلك بأنه سيزور أخته في المدينة عندما يقصدها للإجراءات الأخيرة لشراء البيت والدّكان عند كاتب العدل، وبأنه سيحاول مساعدتها نفسياً قدر الإمكان فلم تعد مريم المحامية المشهورة في المحافظة بحاجةٍ لمعونةٍ ماديةٍ فالمكتب الذي تديره مع محاميةٍ صديقةٍ لها من أشهر مكاتب المحاماة في المحافظة، وتنهال عليها أصعب القضايا وأعقدها لنزاهة عملهن وإتقانه فيدرّ عليهن مالاً وفيراً مما دفع مريم للتفكير في شراء بيت عما قريب، هذا ما صرّحت به لأمها عندما خابرتها هاتفياً لآخر مرة.

جرس الهاتف يرن صباحاً

تستقيظ درية من فراشها مسرعةً لتردّ عليه، الوقت مازال مبكراً حتى لاستيقاظ درية ومن الرّقم الطويل الظّاهر على

الشّاشة عرفت قبل أن تقرأه أنه أحمد من العاصمة، ردّت عليه بصوتٍ مختمرٍ بالنّعاس ليخبرها بأنه قادمٌ إليهم نهاية الأسبوع مع زوجته وبنيه وأنّه اتّصل مبكراً قبل سفره إلى لبنان لأغراضٍ ديبلوماسيةٍ، وانتهت المخابرة بوداعٍ ملفوفٍ بالدّعاء هيّج لواعج الشّوق عند دريّة لابنها الغائب منذ زمن.... وحدها القهوة كانت قادرةً على إسكات حرائق الوجد التي احتدمت في ضلوعها فجأة.... باتجاه المطبخ خطت خطواتها المتأنّية لتلقي من شقّ الباب الموارب لغرفة حسن نظرةً على ابنها النّائم كالملاك في فراشه. خاله يبدو كنجم تحت قوس حاجبه المرسوم بعنايةٍ في وجهٍ بلوري وغمّازتاه الرّائعتان تغّطان معه في نومٍ هانئ قالت في سرّها وهي تضع الركوة على النار

- هذا الفتى لن يشيخ فهو مباركٌ حتماً

وجه حسن هدّأ من احتدام دقّات التّوق في صدرها لتطبق رائحة القهوة على ما تبقى منه.

هي ثرّية الآن بأولادها لم يبق من ذاكرتها للقهر سوى هوامش مخفيةً وارتها حياةٌ ميسورةٌ في وقتها الحاضر، تماماً كما حصل مع جدّها الأول زعيم المتسّولين فأرضه وأمواله ألغت ماضيه تماماً إلا أنّ درية تستحق الثّناء أكثر منه فهي ستلغي تاريخها في المكان نفسه الذي ابتدأ فيه، عكس جدها الذي قنّع تاريخه فقط فهو ابتدأه في مكان ليلغيه في مكانٍ آخر بعيدٍ تماماً عن بدايته.

التّاريخ يعج بالأكاذيب ولاسيما هنا في الشّرق فيما يتعلّق بالانتصارات والبطولات أو ما كانوا يسمونها قديماً الفتوحات، طالها التّحريف والتّزوير أو الاقتضاب. فهل سيتنبّه التّاريخ لتشويهٍ بسيطٍ في تاريخ شخصٍ عابرٍ هنا في الشرق. الوقائع الكبيرة

لديها من يصون تزييفها من كبار الرؤوس ويحشدون لها آلافاً من المصفقين فيصير الأمر ممهوراً بتوثيق الجماهير الغفيرة أما عند العّامة البسطاء الملتهبة أيديهم من التصفيق سيجدون في اقتفاء سير بعضهم البعض الذاتية كنوع من التعويض والتبريد لأكفّهم الملتهبة، فتباً لهذا الكف الذي يؤرّخ عيب قرينه على وضاعته ويطمس تاريخاً آخر على قباحته.

رائحة قهوة درية، سحابة استوى بطنها على الهواء تسري الهوينى داخلةً من شقّ الباب إلى غرفة حسن فتنقر أنفه وتمطره انتعاشاً، يعلو حاجباه وينخفضا برتابة ٍ فيصيح بأمّه مغمض العينين

- أقهوتك جاهزةٌ يا أم أحمد؟!
- نعم وهي بانتظارك

غسل وجهه والتحق بأمّه ليحتسيا القهوة جانب مساكب الورد الجوري المتفتّحة كؤوسه عن عطرٍ ينعش القلب ويغدقه بحبٍ من طعمٍ خاصٍ لبداية نهارٍ مميزٍ.... وجه درية المضرّج بحمرةٍ عادت أخيراً إلى خدّيها بعد أن تجاوزت الخمسين من العمر دليلٌ قويٌ على أنّ الملامح الأصليّة لبعض الأشخاص لا تختفي بالتّقادم، الأخاديد والأثلام التي كانت في وجهها ويديها قد تلاشت وتبدد معظمها بعد استخدامها لمراهم جلبتها لها مريم وحسن من سفره.

يداها كورقتين من لجينٍ تصّبان القهوة بأناةٍ وكأنها تسكب معها شيئاً من روحها، قهوة درية مميزةٌ وكلّ القهوة التي ذاقها في سفره كانت بنّاً محروقاً ليس إلا.

- أحمد مسافر اليوم إلى لبنان لأعمال تتعلّق بالسّفارة

وسيأتينا نهاية الأسبوع مع زوجته وبنيه، اتصّل ليخبرني قبل ذهابه.... حماه الله ورعاه

- حماك الله يا أحمد وردك سالماً غانماً

يقولها حسن بصوت هذبته القهوة وأخفت عُربه النّاعسة ويستطرد بعدها

- سأذهب قبل نهاية الأسبوع لزيارة مريم ونأتي معا إلى هنا ونجتمع كلنا ما رأيك يا أمي؟

- تفكيرٌ سليمٌ يا بني

- لا بأس عليك ستنام مريم في حضنك أخيراً وأنا اشتقت للفيلم الهندي الذي أحضره قبل نومي في غرفة الجلوس

يضحكان معاً، البيت صغيرٌ ولكنّه دافئ، أخبرها حسن بما يفكّر به للمستقبل، بناء وإكساء مساحة السّطح لتصبح بناءً آخر ملحقاً بالبيت، فهو بيت العائلة أولاً وآخيراً وأحمد لن يبني بيتاً هنا في الوقت القريب لانشغاله بأعماله وتجارته الضخمة، سيكون البناء الثّاني حلاً مناسباً لتفادي ضيق المكان في حال اجتماعهم جميعاً.

رحبت أمّه بالفكرة سيما أنّها تريد لابنها السّعة في منزله فضيقه إشارةٌ مخفيةٌ للماضي الضّيق بكلّ وجوهه.

وفعلاً قبل نهاية الأسبوع في اليوم المفترض فيه قدوم أحمد إلى البيت يقصد حسن المدينة لإنهاء أوراقه الرسميّة في بعض الدّوائر الحكومية، مريم محاميته فقصد بيتها صباحاً وانطلقا معاً إلى المحكمة حيث وافاهما المالك الأصلي للعقارات وبعد سلسلةٍ من الأختام والتّواقيع والمكاتب يصبح حسن مالكاً لبيت ودكانٍ في المدينة المتاخمة لبلدتهم، هنّأته أخته بعناقٍ دافئٍ وهي

تخاطبه

- كنت أعلم منذ كسرتك الحياة في شهادتك الأولى أنّك ستكسرها يوماً ولا تقل لي كيف تكهنت.... ربما حدس مثل أمي درية

فيضحكان وينطلقان إلى خارج المحكمة حيث افترقا ليشتري بعض الأغراض التي يحتاجها في دكّانه القادم ثم يعود ليمرّ عليها في منزلها بعد انتهاء يومها في المحكمة ليعودا معاً إلى البيت وهناك سيكون أحمد ودريّة بالانتظار.

بقي لديه بعض الوقت خمّن قليلاً ولكنّ بوصلته اتّجهت تلقائياً صوب البحر.... جلس قبالته فامتلأت رئتيه عن آخرها برائحته الخاصّة اللزجة، نسماتٌ رطبةٌ تلاطف خدّيه وشعره بيدٍ من حنانٍ غريبٍ.... للبحر روحٌ وليست مساحةً مكتظّةً بماءٍ مالحٍ فقط وليست أمواجه استجابةً لخلجات الرّيح ونزواتها، هي ببساطة حكاياته التي يودّ أن يقولها هادئاً حيناً وحزيناً أو غاضباً حيناً آخر، وليست حكاياته سوى حكاياتٍ بشريةٍ ملقاةٌ في عبّه فيخفيها متى أراد ويحكيها متى شاء ويعيدها إلينا بسرديته الخاصّة، همهمات أمواجٍ ونعيق نوارسٍ وسفنٌ راحلة.

يا للبحر الكريم الهادئ الخائف الوفي مثلنا تماماً ولذلك نحبّه

تحدث حسن للبحر قصصاً جديدةً يزجي بها دمدمات أمواجه وباح له بأسراره التي لم تتعد كونها سكينة قلبه المنشودة، منظره الهادئ لا يوحي بأن لديه سراً من هذا القبيل.... هو غياب الحب.... ربما اعتمد حسن أن يقنّع أمنيته.

وفجأةً تجفل نسيمات البحر المخدّرةِ للمكان بعبقه، صوتٌ قويٌ لكوابح سيارةٍ توقظ سكرة المكان، ينتبه حسن ويفز من

مقعده مسرعاً باتّجاه الصّوت فمن الواضح أنه محاولةٌ لمنع اصطدام السّيارة بشيءٍ ما وتلقائياً يلتمّ النّاس قرب المكان، يقترب حسن أكثر من المشهد المؤطّر بالنّاس ليقع ناظره على سيارةٍ واقفةٍ بجانبها سائقٌ ذاهلٌ وفتاةٌ ممدة على الأرض، وحده حسن من خرق ذهول السائق والناس صارخاً بهم:

- مابالكم علينا إنقاذها فوراً

فينهر السّائق المرتبك ليفتح له الباب الخلفي للسيارة، يلتقف حسن الفتاة بين ذراعيه ليضعها على المقعد الخلفي وينطلق بصحبة السّائق الشّاحب مخترقاً الجمع الغفير الواجم إلى المستشفى القريب. السّائق يتصبب عرقاً، لوهلةٍ خشي حسن من استحالة وصولهم فقد يُغشى على السّائق المصدوم بأيّة لحظةٍ وعندما سأله حسن عمّا جرى قال له مقسماً بإيمانه الحق بأنّها من قطعت الشّارع أمامه فجأة وبغير وقت العبور ولسوء حظه كانت أمامه ورغم محاولته إيقاف السيارة إلا أنه لم يستطع كبح جماح الحظ العاثر فحصل ما حصل.

فيشرد حسن قليلاً بوجه السّائق وبوجه الفتاة المصفر ذات الأنفاس الخافتة، لم يتيقن من بقائها حيّة إلا عندما جسّ نبضها فوجده يلفظ نفسه الأخير فأمره بالإسراع علّهم ينقذون حياة التّعسة المسكينة. اللحظات تمرّ سريعةً ثقيلةً، سريعةٌ بتوقيت نبض الفتاة ثقيلةٌ بتوقيت قلب الشّاب الملهوف البارد، قبيل مشارف المستشفى، يلتفت الشّاب لحسن راجياً بألا يبلغ الشرطة بأنه من صدم الفتاة وتعهد لحسن في حال كتمان الأمر أن يدفع تكاليف العلاج كلها فما ذنبه في حظٍ عاثرٍ لا يد له فيه. فطمأن الشّاب بأنه سيتصل بأخته فور وصوله لتوافيهم سريعاً ونصحه

بالتزام الصّمت لحين حضورها، الشرطة يلزمها وقت للقدوم بعد التبليغ وهو يأمل مجيء أخته المحامية قبل وصولهم. المهم أن تبقى الفتاة على قيد الحياة، جسّ نبضها لآخر مرةٍ فوجده مستغيثاً بندائه الأخير فتوجّه للسماء بدعاءٍ لفتاة غريبةٍ

- اللهمّ ساعدها وزدها بقيّة في العمر وساعدنا أن نكسب حسنة بقائها يا أرحم الرحمين

فُتح باب الإسعاف بسرعةٍ، نقّالةٌ جاهزةٌ لنقل الفتاة للدّاخل، صوت صافرة للسّيارة استنفر عاملي الإسعاف الذين هرعوا استجابةً للصّوت القوّي القادم. حمل حسن الفتاة بين ذراعيه، جسدها غدا أكثر برودةً مندىً بعرقٍ متطايرٍ، وكخرقةٍ مبللةٍ وضعها على نقّالة يجرّها ممرضان وطبيبٌ ببطاقةٍ وسمّاعة قلبٍ تتدلى حول رقبته، جرّها حسن معهم حتى وصلوا غرفةً من غرفٍ كثيرةٍ بجانب بعضها البعض مفصولةٍ عن بعضها وعن البهو المحاذي لباب الإسعاف بستائر بيضاء سميكة.

يمنع حسن من الدّخول بوصول الفتاة لداخل الغرفة، يبعده أحد الممرضين جانباً محاولاً أن يستفهم منه صيرورة الواقعة فأخبره بأنّهم وجدوها في الشّارع بعدما دعستها سيارةٌ هاربة فأسعفها مع شابٍ شهمٍ مارٍ بسيّارته بالمصادفة وهنا تركه الممرض ودخل وراء زملائه شارحاً لهم الأمر برمّته.

تذكّر حسن أن الشاب لم يدخل معه ولوهلةٍ ساورته الشكوك بهرب الشّاب الفزع الغارق بنكبته فقفل مسرعاً ليتفقّد وجوده خارجاً. خيّب الشاب ظنونه وجده مازال واقفاً قرب سيّارته بهيئته المضطربة ذاهلاً عن نفسه وعن النّاس عندما وقعت عيناه على حسن رفّت عيناه بعد تيبّسٍ طويلٍ وأطرق برأسه كالمترجي أملاً

مستحيلاً

«إنه صادقٌ» قالها حسن في نفسه، تقدّم نحوه بخطواتٍ قليلةٍ ليكسر الجليد الزّاحف نحوه ببضع كلماتٍ دافئةٍ تكاثفت برداً وسلاماً على قلب الشّاب أخبره بفحوى الحديث مع الممرض وأن الأمر انقضى بسلام، عليهما الدّعاء للفتاة التي تنازع الموت وتحاول الاحتفاظ بأنفاسها الأخيرة فإن نجت لن يشعر أيٌّ منهما بعذاب الضمير. انتبه حسن إلى وجوب الاتصال بأخته لتوافيهم قبل وصول الشّرطة فأجابته وهي في طريق عودتها للمكتب ليخبرها تماماً ما حدث وما قاله للممرض وقت الدخول فطلبت منه عدم البوح بأي شيء مخالفٍ لما قاله لوقت وصولها.

أنهى حسن اتصاله وعاد متّجهاً صوب الغرفة التي تشهد نزاع الفتاة مع الموت، جلبةٌ كبيرةٌ وكلماتٍ غير مفهومةٍ، كلمات تستخدم كما ظنّ كأسماء لعقاقير طبيّة وصوت لجهاز إنذارٍ يصدر ذبذباتٍ متقطعةٍ متوازية، اعتراه شعورٌ بنجاتها وتخيل له أنه يسمع أنفاسها الواهية وفكرّ للحظةٍ أيعقل أننا من شدةٍ تعلقنا بأمر نحاول إثباته روحياً ولو لم يكن موجوداً حقيقة. أهي النفس تصطنع ما يناسب حواسها لتثبت ما تريد قوله في لحظات الترجّي الشاقة؟

وجه الفتاة الشّاحب لا يفارق مخيلته

- ما زالت في ربيع العمر بنفس العمر الذي كانت فيه مريم وقت سكرتها الفظيعة، نفس البرود واللون ونفس الاستسلام، فتاة غريبة بوجهٍ غريبٍ يا ترى ما الذي يدفع فتاةً مثلها لتقطع الشّارع ذاهلة عن كونها فيعانقها الموت على غفلةٍ أتراه الموت كان حقاً غافلاً أم كان مدبراً والفتاة لم تقطع الشارع إلا لتوافيه أهو انتحارٌ

آخرٌأم هروبٌ أم ماذا؟
يا للهول أن كان انتحاراً فما هي هذه الحياة التي تنتحر زنابقها في عزّ الربيع وعلام كلّ هذه القسوة التي تودي بالضعفاء للانتحار، أما من سبيلٍ للتّوسط بين البشر أو من تساهلٍ بأحكام القدر؟ تساؤلاتٌ سيحاول إجابتها عندما يطمئن قلبه لما يحدث وراء الستارة البيضاء وبلحظةٍ قرر الدّخول عنوة لربما ظفر أن يرى شيئاً يهدّئ روعه. فانزاح الستار وخرج الممرض ذاته الذي كلّمه ليبشّره بابتسامة انتصارٍ تُريق دماء خوف حسن أرضاً
- الفتاة بخير الآن قدمها مكسورةٌ نتيجة الحادث سنجري لها صوراً وأشعةً مقطعيةً مغناطيسية وبعض التحاليل ولكن مبدئياً هي بخير
فيبادره حسن بسؤالٍ ملهوفٍ:
- ولكن لماذا احتجتم كلّ هذا الوقت .... هل كان ثمة خطرٌما؟!
أجابه الممرض بهدوء:
- الفتاة كانت في حالة الصّدمة حاولنا إعادة علاماتها الحيوية للاستقرار ببعض المصول والأدوية إضافةً للفحص العياني من الطبيب المقيم، الشّكر لله أنها لم تتأذى كثيراً وشكراً لكما على إنقاذها باركّكم الله
شكره حسن بلباقةٍ وامتنانٍ ولكن الممرض يستطرد فجأة ليسأله إن كان يعرف الفتاة قبلاً فأجابه حسن بالنّفي فتابع الممرض حديثه قائلاً:
- سيحتّم عليكم نقلها إلى مستشفىً حكومي بعد هذا فكل الإجراءات هنا مكلفةٌ يا أخي، المشافي الاستثمارية لا تدخل في حساباتها الحالات الإنسانية المستعصية قد يسامحكم مدير

المستشفى برسم الدخول إلا أن الأشعة والتحاليل مكلفةٌ والإقامة باهظةٌ وليس ذنبكما أن تدفعا مالاً جرّاء عملٍ إنسانيٍ رائع

فأجابه حسن من فوره:

- لا عليك يا أخي سنتكفل بالموضوع فالمعروف يجب ألا يكون ناقصاً

نظر إليه الممرض بإعجابٍ كبيرٍ تفحّص هيئته الجميلة وهندامه المرتّب وساعته المتموضعة على ساعده وجوّاله الفخم فعلم يقيناً أنه مقتدرٌوأن الإحسان الكامل مناطٌ بالاقتدار الكامل فالفقير سيكون إحسانه ناقصاً لا لعلّةٍ فيه بل لعلّةٍ في حظه فابتسم له قائلاً: «باركك الله»

شكره حسن ثانيةً وسأله سؤاله الأكثر إلحاحاً في عقله، الشّرطة وميعاد وصولها فأخبره بأنّ أخته محاميةٌ وستصل قريباً، فنصحه الممرض بوجوب بقائهم لحين وصول الشرطة وإغلاق الحادثة وإلا سيعتبرون بأنّ في الأمر لغزاً، فعاجله حسن بالنّفي القاطع ليضيف بأن له أخاً في السلك الديبلوماسي وأنهم من محبي العدالة والقانون. تُقاطع حديثهم النقالة الحديدية بصوتها النّزق يحفّها الممرضون من جانبيها، الصّبية ممددةٌ يسترها غطاءٌ أبيضٌ رقيق،أما غلالة جلدها الأبيض فقد اكتسى لوناً وردياً خفيفاً. تنفّس حسن الصعداء وعبّ من الهواء شهيقاً عميقاً، لقد نجت الفتاة فعاد لصلواته المتخمة بالشكر والامتنان لله، يتذكر حسن الشّاب الذي نسيه خارجاً فهرول إليه ببطاقة الفرح التي ستعيد له صوابه ولون الحياة فوجده على حاله السابقة يزرع الممر جيئة وذهاباً مسلوب الفكر فاقد الملامح والحسّ، تقع

نظراته على حسن فتسري في جسده قشعريرة، باغتته ابتسامة حسن حين قال:

- لقد نجت أيها الشّاب مجرّد كسرٍ بسيطٍ في السّاق، صدمها الألم فاصفّرت وشحبت الآن هي بخيرٍ في مركز التصوير الشعاعي لإجراء الصّور اللازمة وبعض التحاليل و...

لم يكمل حسن مقولته وإذ باللوح الماثل أمامه يهبط أرضاً ليشهد أمامه حالة أخرى للصدمة.... أهو الفرح من صدم هذا الشاب؟! يبدو أن أي صدام مفاجئٍ بين أي شيئين في هذه الحياة يولد صدمةً تودي بأحدهما أرضاً وعلى الأغلب من يسقط هو صاحب القلب الأضعف.

يسرع حسن مع أحد الممرضين لحمله ووضعه على نقالة أخرى ليكرر نفس المشهد السابق ولكن بجلبة أهدأ وأقل ازدحاماً فحسن أخبرهم أن الشاب سقط جراء فرحٍ ثقيل الوطأة على قلبه.

اضطر عناصر الشرطة وحسن والمحامية مريم للانتظار ريثما يفيق الشاب من صدمته التي طالت قليلاً ولانتهاء الفتاة مما يلزمها من إسعافاتٍ فوريةٍ، أخذت الشرطة إفادة حسن المبدئية فسرد لهم القصّة ذاتها التي حكاها للممرض وللشّاب البائس قبل صدمته ولمريم التي رأتها منطقيةً وإنسانيّةً وعادلةً لكلّ منهما فالفتاة في مطلق الأحوال نجت بأقل قدرٍ من المصيبة والشّاب المسكين لا يستحق عقاباً أكثر من حالته المزرية هذه.

جاء أحد عناصر الشرطة بحقيبة يدٍ للفتاة فهمهم حسن بغرابةٍ لنفسه، كيف لم يفطن في خضم الهول ذاك ببديهةٍ افتراضية بأن يفتشّ في حقيبة الفتاة التي ظلت عالقةً بكتفها

عندما حملها؟ ولمَ لم يتصل بأخته أثناء ذهابهم للمستشفى؟ لماذا لم يتحرّى عن أبسط الأشياء وهو المتفلسف بأعقد الأشياء؟ لربّما هي رهجة المفاجأة من تودي بالعقل في متاهات البلاهة والبلادة معاً وتماماً عندما يتعثّر الدّم بألف نبضةِ مرتجفةٍ في أزقّة القلب.

اسم الفتاة راما محمد حسين، في الثانية والعشرين من عمرها وأكمل الشرطي المعلومات الباقية فتمكنوا من الحصول على رقم الهاتف المدوّن على البطاقة الشخصيّة للاتصال بأهلها.

اتصل رئيس المفرزة بأهلها ليخبرهم بالواقعة ومن كلامه استشفّ الجميع هول صدمةٍ أخرى بعيدة ولكنه جاهد ليطمئنهم على حال الفتاة مستفهماً على ما ينقصه من معلوماتٍ ليحدد ما إذا كانت الفتاة ذاهلةٌ عن عمدٍ أومصادفةً فهناك فرقٌ كبيرُ. يغلق المساعد الهاتف فتنتابه الغرابة من حسن وأخته الباسمين بشكل ٍمريبٍ فابتسم لهما من دون أن يدري أن اختلافه هذا داعب عندهما موهبة حسن الفطرية فابتسما كعلامة معرفة كل منهما بحدس الآخر.

ليكمل المساعد:

- الفتاة قصدت المدينة اليوم لصدور نتائج مسابقةٍ في إحدى المديريات ولعلنا إذا تفحّصنا بقيّة محتويات الحقيبة سنصل إلى نتيجةٍ ما

قلب الحقيبة رأساً على عقب ليجد أوراقاً كثيرةً مطويةً وزجاجة عطرٍ توشك على النفاذ وعقداً مفروطاً بحباتٍ ذهبيةٍ وساعةً متوقفةً وهاتف نقال قديم صامت تظهر شاشته اتصالاتٍ فائتةٍ كثيرةٍ، ربّما هم أهلها من اتصلوا قلقاً عليها وقد أصابت

هواجسهم فيما قلقوا عليه

فرد المساعد الأوراق ليتبين أنها الأسئلة الشّفوية للمسابقة عينها، ورقةٌ بيضاء كبيرة يتوسطها كلمة واحدة «رسبت» أما بقيّة الأوراق فكانت عبارةً عن خواطر مبعثرةً لعواطف افتراضيّة وربما غير افتراضية.

في سحّابٍ صغيرٍ وجد المساعد بضعة مئاتٍ من النّقود، أحصى عددهم بتأنٍ ألفاً ينقصها مئةٌ واحدةٌ لتكتمل ربما كانت أجرة الطريق لوصولها إلى المديرية المنشودة حيث أتت صباحاً.

وبعد أن أزيح اللثام عن هويّة الفتاة بقي عليهم معرفة هويّة الشّاب، عليهم انتظاره ليفيق من إغمائه فجاءتهم البشارة أخيراً من أحد الممرضين باستعادته لوعيه ومطالبته لشابٍ معه، عرف حسن أنّه المقصود بذاك الحديث فهرع مع البقية صوب الشاب الذي مدّ لحسن يده العائدة للحياة وما إن اقترب منه حتّى عاود سؤاله عن الفتاة فأجابه حسن بإيماءة ٍمن رأسه مقترباً منه هامساً في أذنيه ليعيد إلى مسمعه ما يجب عليه قوله أمام المساعد وعرّفه على أخته مريم من حيّته بابتسامة ٍدافئةٍ.

استفسر المساعد من الممرض المرافق للشّاب عن إمكانيّة استجوابه، فجاء جوابه موجباً، على كرسيٍ قريبٍ من الشّاب الواهن جلس المساعد ليفتتح أسئلته عن الحادث فجاءت أجوبة الشّاب مطابقةٌ تقريباً لإفادة حسن وهذا ما دعم حكايتهم أمام الشرطة فتولّت مريم بالباقي، أسهبت بشرحٍ قانونيٍ حول وقائع الحادث ونظرتها القانونيّة للواقعة فلا يحتم على الشّابين البقاء في المستشفى ومن حقّهما في المغادرة الفوريّة، أبدى الشّرطي موافقته المبدئيّة ولكن بعد إفادة الفتاة فاضطرّت مريم لمخالفته

بالرأي لأن الفتاة الذاهلة لن تعلم أصلاً من ضربها بالسّيارة سواء قطعت الشارع قاصدةً أم لا ومع ذلك فسينتظرون لأن حالة الشاب المتعب لن تسمح بخروجهم قريباً. كلام مريم يقع موقعاً حسناً في نفس المساعد الذي طلب منها بديبلوماسيةٍ أن ترافقه للخارج للتحدث في ملابسات الحادث. رحبت مريم بالفكرة وخصوصا بعد أن تيقّنت أنّه صار بالإمكان التّفاوض معه الآن في حال أتى حديث البنت بما يخالف قول الشّابين. عليها محادثة الفتاة قبل المساعد ولكن لا ضير في قولها في مطلق الأحوال فمن المؤكد أن الفتاة لن تذكر الشاب الذي دعسها بحال سكرها ذاك وهذا يضعف حجّتها أمام القانون وكما أنّ الشّاب قام بإنقاذها وهذه نقطةٌ تحسب له أيضاً... في ميزان القانون حتّى فتات الكلام محسوبٌ ومريم قادرةٌ على تجميعه بشكل ينجيهم جميعاً من هذه المضرّة العبثية.

وبعد انتظارٍ دام قرابة السّاعة من الوقت قضوها جميعاً في غرفة ٍمجاورةٍ لبهو الإسعاف أخبرهم أحد الممرضين أن الفتاة جاهزةٌ للاستجواب فانطلق حسن لمساعدة الشاب الذي صار له اسم أخيراً عرفه خلال إفادته وهو طارق يوسف. نهض طارق متأبطاً ذراع حسن فطمأنه الأخير بأنّ الأمور على ما يرام وانطلقوا جميعاً بعد موافاة مريم والشرطة إلى غرفة الفتاة في الطّابق الأول.

استأذنتهم مريم قبل دخولهم غرفة الفتاة بحجّة تحسين مظهرها أمامهم فلم يحاججها المساعد على طلبها هذا واعتبره ذوقاً وبادرةً لطيفةً منها. دخلت مريم الغرفة مهنئةً الفتاة بسلامتها معرّفةً عن نفسها وبأقل من خمسين كلمةً حكت لها الموضوع

برمّته وكيف وصلت إلى هنا. مسحت وجه الفتاة بمنديل ٍ مبللٍ بالماء ومشّطت بيديها شعر الفتاة لتلقيه محاذاة كتفها الأيمن وقبل أن يطول الوقت لأكثر من تجهيزٍ عادي سألتها مريم سؤالاً واحداً:

- هل تعرفين من الذي دعسك...شكله أو هيئته؟

فجاوبتها الفتاة بإشارةٍ نافية ٍمن رأسها فخرجت مريم بعدها لتعلم الجميع أن الفتاة جاهزةٌ لاستجواب المساعد فطلب منهم جميعاً الدخول. وأمامهم حكت الفتاة حقيقة ما جرى وأنها قطعت الشارع من دون انتباه وعندما طُلب منها التعرّف على الشّابين أبدت عدم معرفتها بهما على الإطلاق وأنها لا تتذكر كيف جرى الحادث

- كان صوتاً قوياً وصدمة فحسب ولم أسمع بعده سوى صوت جهازٍ هنا في المستشفى وأصوات الطبيب والممرضات.... كلّ شيءٍ تم بسرعةٍ

فأجابها المساعد:

- الحمد لله على سلامتك والخير أنّ الحادث اكتفى بهذا القدر من

فنطقت الفتاة كلاماً أعجب حسن فور نطقه

- الألم يا سيدي من حاول سلبي الحياة وهو أيضاً من ردّني إليها. مشيرةً إلى قدمها الملفوفة بالجبس الأزرق والمرفوعة فوق وسائد مرنة.

وجهها الآن متورّدٌ على الرغم من الألم عاد مرتدياً حلّة جماله قبل الحادث. لأول مرة يمعن حسن في تفاصيل وجهها الدّقيقة. عينان سوداوان كليلٍ أدهم وجبينٍ رفيعٍ تكسوه غرّةٌ رقيقةٌ. وأنف

يكاد يشمّ الهواء في وجهٍ مستديرٍ كبدرٍ تحتّله زنبقةٌ تتحرك وتفوح عطراً كلما تبّسمت أو تكلمت وهناك بعض الأجراس التي سقطت في تعاريج صوتها فتدّق في أذن من يسمعه بلحنٍ سماوي.... ياللدّهشة التي تخفي ما نحن به وياللصّدمة التي تخفي ما نحن عليه.

راما محمد حسين اسم سيحفظه حسن عن ظهر قلبٍ ليحُفر في قلبه من دون أن يحس. غادر حسن ومريم المستشفى بصحبة الشّاب الذي أصرّ على إيصالهما بعد أن انفضّ الحادث المؤلم بسلامٍ نِسبيٍ.

الأهل البسطاء المتلهفون للإطمئنان على ابنتهم لم يبدُ عليهم أي قلقٍ تجاه سردتهم تلك وصدّقوا الحكاية كما قيلت لهم من المساعد وحسن. تحلّق الأخوة حول أختهم الكبرى، خمسة صبيةٍ تكبرهم راما، التي طوّقتها أمّها بين ذراعيها كالمتمنّي هلاكه عناقاً. أمّا أبوها فعانقها وقبّلها على جبينها شاكراً الله على بقائها حيّة ترزق. أناسٌ تفوح منهم رائحة الفقر الحبيبة اللعينة في ذات الوقت، رأى حسن بهم انعكاساً لصورتهم قبل عشرين عاماً. ذات سماتهم ووجوههم وربّما أحلامهم المؤجّلة.

انفرد حسن وطارق بوالد الفتاة قبل ذهابهما وأخبراه بالفاتورة التي دُفعت من قبلهم وبأنّه ما من داعٍ لأخذها لمستشفىً آخر تجنباً لإحراج النّقود.... تمنّع الرّجل بتعفف الفقر الجميل خجلاً من دماثة الشّابين فقاطعه حسن شارحاً بأنّه نذرٌ نذراه لله حين همّا بإنقاذ الفتاة وهم بذلك يوفونه ووفاؤه دينٌ مستحقٌ في الأرض وعندما عجز الرجل من مجاراة حديثهم الباذخ الكرم والمعروف اغرورقت عيناه بدموعٍ خجلى فربت حسن على كتفه ليهوّن عليه

كسرته المخبّأة

- لا عليك يا عم غداً سنأتي للاطمئنان عليها وإن أذن الطبيب بخروجها سنوصلها للبيت وسنشرب قهوتنا معاً

فمنع الرجل دموعه من التّساقط بأطراف أصابعه بينما تكفلت أحداقه بابتلاع الباقي

- على الرحب والسعة يا أبنائي جزاكما الله الخيركله وعساني أرد لكما المعروف يوماً

احتضنه الشابان بألفةٍ ودخلوا الغرفة، ودعوا الجميع ونادوا مريم التي همست في أذن أخيها بشيءٍ جعله يبتسم ملء وجهه ويضمّها إلى صدره طويلاً.

في السيارة تنبّه الشاب أنه لم يترك مبلغاً نقدياً مع الرجل ليكون عوناً له بحاجاتٍ طارئةٍ فابتسم حسن مجيباً باقتضابٍ: «مريم تكفّلت بذلك»

تلعثم الشّاب أمام إنسانيّة وكرم الأخ وأخته، فتمنّى بقراراته أن يبقيا جزءاً من حياته فأناسٌ مثلهم نادرو الوجود بل وأوشكوا على الانقراض فخاطبهما بأصدق ما قاله في حياته

- قبل اليوم كنت أجزم بأنّ الشرّ هو السلطان الأقوى في الدّنيا ولكن بعد اليوم سأغيّر تفكيري هذا فطالما أمثالك ما زالوا في الوجود فتمام الثقة عندي أنكما وأمثالكما من أسباب بقائه وثباته أمام صفعات الزّمن، معروفكم معي ومع الفتاة أكبر من أن يرد لعله الإحسان والتقوى أو لنقل الصّلاح عينه فبارك الله من أنجبكما ورفعكما إلى أعلى درجات العز يا إخوتي فأنا مصرٌّ منذ الآن أن نكون أخوةٌ وأفاخر بهذا

أجابه حسن بنفسٍ راضيةٍ مطمئنةٍ «ونعم الأخ يا طارق»

وكذلك قالت مريم ترافق كلماتها ابتسامة.

قصّ الشّاب سيرة حياته لحسن وأخته فهو الابن الوحيد المدلل لعائلةٍ ميسورةٍ من قريةٍ على مقربةٍ من البحر وبسبب دلاله ذاك لم يحصّل دراسياً سوى معهداً متوسطاً للموسيقى وعيّن مدرساً لها في إحدى مدارس المدينة بالإضافة إلى افتتاحه لمعهدٍ موسيقي يؤمّه عددٌ كبيرٌ من الرّاغبين في تعلّم العزف والغناء ويديره نخبةٌ من الأساتذة المرموقين يدرّسون العزف على آلاتٍ عدةٍ بمهارةٍ فائقةٍ.

أعجبت مريم بالفكرة فاقترح عليها أن تأتي لزيارة المعهد فلربّما تشجّعت على تعلّم عزف إحدى الآلات فوعدته بزيارةٍ قريبةٍ فيما حسن بقي مصرّاً على آلته التي يعزفها منذ يفاعته وتعوّد على سماع نغمها المحبب، صوت صاروخ الحديد وآلة التّلحيم وهنا تطرّق حسن لنفسه فعرفّ عن نفسه وأخوته وبأنه سيتعرّف على الجميع لأن أخاه الأكبر الديبلوماسي المرموق في الخارجية آتٍ لزيارتهم اليوم.

يرنّ هاتف حسن مقاطعاً سرديته تلك «تلفون البيت الأرضي» مخاطباً مريم «إنها درية»

يجيب حسن بمحبةٍ:

- لا تخافي يا أمّي نحن قادمون ومعنا ضيفٌ هل وصل أحمد؟

- حسناً قليل من الوقت ونصل انتظرونا فلن نتأخّر

ومحدّثاً مريم

- كيف نسينا ألا نتّصل بأمّنا لطمأنتها.... أحمد سبقنا إلى البيت

فتجيب مريم مازحةً:

- وهل سألت نفسك لمَ لم تتصل بي قبل ذهابك إلى المستشفى...هي الأمور في ساعة الغفلة تصبح هكذا متداخلةٌ فلا يأتي المهم دائماً في المقدمة

فيبتسم طارق معجباً بنباهتها

- يا لك من حاذقةٍ فعلاً

لم ترضَ درية بقهوة أهلاً وسهلاً كما تدعى في ذاك الريف فألحّت على بقائه للغداء، الشّاب محرجٌ ومرتبكٌ فما مرّبه اليوم ليس بالأمر السّهل نفسياً أو حتّى جسدياً، قصّة تعارفهم اليوم أثارت فضول من لم يسمعها كأحمد وزوجته وأمّه

كان سرور طارق كبيراً بتعرّفه على أحمد الديبلوماسي المرموق، فبقي للغداء مستمتعاً بمذاق لم يتذوّقه من قبل، طعام دريّة الشّهيرودفء العائلة الذي يفتقده في منزله فنادراً ما يجتمع ووالداه على سفرةٍ واحدةٍ وبعد انتهاء طقوس الطّعام العابقة بالدفء استأذنهم بالانصراف بعد أن اتّفق مع حسن على عيادة الفتاة غداً وتبادلوا أرقام هواتفهم وطلب من أحمد رقمه فرحّب به وأعطاه كرته الخاص ولم ينسَ شكر مريم لموقفها النّبيل وسماحة نفسها الكريمة.

وُدّع الشاب بمثل ما اسُتقبل من حفاوةٍ، لوّح لهم بيديه مودعاً وعاد الجميع إلى الدّاخل ليجلس كلّ واحد منهم بجانب أحمد برهةً من الوقت فهو الغائب الحاضر في القلب فكان التقرّب بالجلوس جانبه مثابة إشباعٍ لنظراتهم وعيونهم ليكون أحمد مسك الختام لهول ما رأوه اليوم.

منى ابنة العزّ لحقت بحماتها في المطبخ العائم بالأطباق والقدور المتّسخة لتساعدها على ترتيبه، ولم تلقِ بالاً لرفض

دريّة، بل أصرّت على الانخراط معها في جلي الصحون وأعمال المطبخ الأخرى، لطالما أرادت أن تكون جزءاً منهم ولم تتكبّر يوماً عن وضعهم الأول وحتى عن ماضيهم أوليست هي من كانت سبب زواجها الوحيد بابنها أحمد..... من واجهت أباها ذا يومٍ بحبّها لذاك الجندي وبرغبتها بالزّواج به، فكانت أولّ فتاةٍ تطلب يد من تحب، تعترف منى بذلك دونما خجل بل تعتبره نوعاً من المباهاة بحبٍّ عظيمٍ جديرٍ بالتّقدير، لا كما يفسرها البعض بأنها الفتاة التي لا يرد لها طلب. لاحقتها درية بنظراتها وهي تتفتّل وراءها في المطبخ بخفةٍ ورشاقةٍ.... ياللكنّة الرّائعة.... تجزم دريّة بأنّ تضحية ابنها لم تذهب سدىً وأنّه الآن يعيش بهناءةٍ مع منى وبأنّ شوكة سلمى لم تعد عالقةً في حلقه، تستحقّ هذه الحسناء حباً مخلصاً، وآثرت لنفسها يا ليت مريم سلكت طريقاً مثل أخيها واعتزلت الماضي ولم تتخطى عقدها الثالث دونما شريكٍ أو ولدٍ.

يوسف وكرم قمران يدوران في فناء البيت فياليت لمريم قمراً مشابهاً، يدور في فلكها ينير روحها المظلمة.

رضى ابنتها عن حياتها المنفردة مثير للقلق، نجاحها ليس ستاراً كافياً لنقمتها على الرّجال، لم تعد تكره رجلاً واحداً تعدّت نقمتها لتطال الرّجال جميعهم وهنا مربط الفرس الفتاة ستصير عانساً إن لم يعصف بها حبٌ آخر، عصفٌ خلاقٌ يعيد تكوين الفتاة، هيكلتها تشكيلها، مسح دمالها الداخلية، صبّ ذاكرةٍ جديدةٍ في دماغها في الأقل إعطاءها فرصةً للتعافي من وجع خذلان قديمٍ، حلقة مفقودة أدت لانفراط عقد حياتها وأودت بجميع محاولاتها اللاحقة للارتباط للفشل

الحياة تقسو على هذه الفتاة، ستُعطب الفتاة بعد الأربعين

سيجفّ نبعها ويذبل عرقها، تمنّت من قلبها وهي تلاحق منى بنظراتها أن تصل ابنتها يوماً لقرار منى الخطير، وتحب رجلاً وتتزوجه بقرارها الحر ولكن ابنتها لم تكن تريد رجالاً وهذه هي طاقتها الكبرى.

انقضى يوم أحمد الأول سريعاً مزدحماً فلم يستطع إكمال قيلولته بعد الظّهر، توافد الأقارب والأصدقاء لزيارته من البلدة.... أخواله أتوه تباعاً، سعيد وإحسان في المقدمة دائماً. كان البيت أشبه بخليّةٍ مزدحمةٍ تطنّ حبوراً وسعادةً، دريّة تشعر برضىً لا حد له فالفقيرة الرثّة الثّياب الشحيحة النّقود، يضجّ بيتها بالزّائرين لرؤية ابنها المرقوق الذّائع الصّيت واحتياجهم إليه اليوم ألغى ماضي احتياجهم كلّه.

أحسّت دريّة بالغبطة العارمة وودت لو أنها تقابل إبراهيم ولو لمرةٍ واحدةٍ، ليرى بعينه ما صارت إليه وأولادها لربّما شعر ببعض الخزي والعار، ولكنها للآن ليست متأكدةً من أيّ شعورٍ إنسانيٍ سينتابه، لقد أسقطت عنه صكّ الإنسانيّة منذ زمنٍ بعيدٍ.... بعيدٍ جداً.

يوم أحمد الثاني في القرية لم يكن أفضل حالاً من سابقه، ولم يتسنّ لهم الإختلاء مع بعضهم إلا لمرة ٍواحدةٍ مقتضبةٍ على الغداء، الولدان كانا أكثر الفرحين بازدحام النّاس فحياة المدينة تعزلهم عن الانخراط في تجمّعات الكبار، بسبب وضع أبيهم الدّقيق حتّى أصدقاءهم الصغار قلائلٌ ومنتقون بعناية، أحمد حريصٌ على أولاده يحبهما حباً لا قياس له وكأن النسغ الذي في عروقه ليس من صلب إبراهيم العاق أبداً فلم يرث عن أبيه سوى طلّته الجميلة وقامته الباسقة الطويلة.

اتّصل حسن بطارق صباحاً ليوافيه للمستشفى وفعلاً وصلا معا إلى المستشفى ليجدوا أهل راما بانتظارهم، قابلهم والد الصّبية بامتنانٍ، وأمطرهم بوابلٍ من الدّعاء جزاءً لجميل صنيعهم ونبل معروفهم.

تحلقّ الأطفال حولهم بتهذيبٍ وألقوا عليهم التّحيّة فأعادوا لذاكرة حسن صوراً قديمةً من طفولته. لحسن نسخٌ كثيرةٌ في الحياة، أعطاهم بعض الحلوى والشكولاتة التي جلبها لهم وأعطاهم طارق كيساً كبيراً من الفاكهة ما أسعد الأطفال الذين زقزقت ضحكاتهم فرحاً. أُحرج الأب أمام كرمهم، ضاعت كلماته أمامهم بينما ضاع الشّابين أمام راما.

الفتاة مشرقةٌ كبدرٍ خالف ظهوره، فكيف لبدرٍ في ليلته الرابعة عشر أن يظهر في صباحٍ أبيضٍ كهذا...يا للصّباح السّارق اللطيف كيف سرق من وجهها سحره وبهاءه، وكيف لهاتين العينين أن تتكحلا من سوادها، وكيف للتّفاح أن ينضدد في خدّين بلوريين يعاندان كرزةً باغتها النّضوج على فمها وتحاذر السقوط.... لقد خفّ وجعها لا محالة، الوجع يذيب الملامح ويقشّر الجمال ويظهر لنا مظهر الضعف الشاحب، وحدها السّكينة والراحة من تبدي وجوهنا الحقيقية وللحقيقة هنا وجه لا يضاهيه وجهٌ آخر. شيء ما طرق قلب حسن فاختلج لوهلةٍ ثم خفق بسرعةٍ

أتراه ما يسمّونه حباً أهو الحبّ حقاً.... أيّاً كان الطّارق سألبيه ففي حضرة هذه الفتاة ترفل الدّنيا بجمالٍ خالصٍ يطرق القلوب والآذان والحياة برمّتها.

أنهى طارق إجراءات دفع الحساب، لحقه حسن ليساهم معه في دفع الفاتورة الكبيرة فرفض طارق شاكراً حسن على معروفه

الذي لا يقاس بالمال ولكن حسن أصرّ على المساهمة ولو بجزءٍ بسيط ٍمن التّكاليف، فمازحه طارق بأن يأخذ لهم غداءً معتبراً حين عودته، فكّر حسن بالأمر لبرهةٍ وطرق خاطره فكرٌ موجهٌ باتجاه القلب

- أتعلم يا طارق سأؤمن لأبيها عملاً في دكّاني فحالهم تشي بفقرهم المضني، سأكمل المعروف لنهايته

فيمد طارق ذراعيه ليشدّ بهما بقوةٍ على ذراعي حسن ليضيف بأنه لن يتخلى عنهم أبداً وسيساعدهم قدر استطاعته، وسيؤمن للفتاة عملاً في معهد الموسيقا خاصته...هذا الشاب أنيق داخله كطلته لا يشابه الأغنياء في منطقتهم أبداً، فالخير قد لا يتعدى كونه طينةً بشريةً من بداية الخلق وقد تتشكل الطّينة غنياً ام فقيراً، أمّا حسن فسيبقى ممنوناً للبحر وللشّاب وللمصادفة التي ألقته في طريق فتاة ٍكراما.... أتراها قدره؟ أتراها الأقدار خططت لكل هذا؟ لمعت عيناه حين عاودا دخول الغرفة، وقتها تيقّن بأنّ دعاءه للسّماء أمام بحرٍ هادئٍ نال حظوةً ملائكيّةً، وعاد متجسّداً بفتاةٍ أهدته حياته في لجّة نزاعها مع الموت، وأمام وجهها البسّام المشرق أقسم لها أمام قلبه بأنه سيبقى جابر خاطرها أبد العمر.

في طريق العودة أصر طارق للمرة الثانية على إيصاله للمنزل وأخذ عليه عهوداً و مواثيق بأن يبقيا على تواصل دائم، فوعده حسن بذلك دعاه مجدداً لضيافة أهله، ولكنه اعتذر واعداً إياه بتكرارها مراتٍ اخر، ودّعه حسن ودخل البيت المكتظ بالمحبين كما تقول دريّة، سلّم حسن بلباقته المعهودة على الضّيوف الوافدين لالقاء التّحيّة على أحمد الذي اشتهرت قريته به مؤخّراً، هذه القرية البعيدة الخامدة الذّكر إلا من متسوّلٍ شهيرٍ في أميركا،

ليرفو أحمد ثقب الذاكرة البغيض في عائلتهم بسمعةٍ محت تلك السمعة البغيضة، ليصبح واجهةً وطنيةً بامتيازٍ تستحق الإعجاب والتقدير، أحمد نموذج لمن يعري عيوبه ويصلحها بتؤدةٍ وتفكّرٍ فمؤشر حياته البياني لم ينكسر يوماً وإنّما لارتفاعٍ مطّردٍ

لم يتذمّر أحمد يوماً من أبناء منطقته ولاسيما فقراءها، أبناء جلدتهم القديمة ولم يتردد يوماً أو يبخل بأي مساعدة كانت لأحدهم، كانت دريّة كالملكة تجلس بين جمع الناس في الغرفة العابقة بالحديث والامتنان. دريّة التي راهنت الحياة وزوجها وأهلها على انكسارها فلم تُكسر وراهنت الحياة بأولادها وكسبت رهانها بهم.

اعتذر حسن منهم لبعض شأنه، دخل الغرفة التي جمعت طفولتهم وصباهم لينفرد بالصورة المتطفّلة على كلّ الأحياء حوله، كانت في الغرفة جالسةً باسمةً بين المتحدثين تنظر إليه بسحرٍ قديمٍ لا يبطل مفعوله.

قلب واحد

يقال إن تمائم السّحر تُكتب لجلب الحبيب وردّ الغائب، أتراها أيّ تميمةٍ كتبت لحسن ليجلب طيفها معه أينما حلّ ومن كتبها؟ أتراها كانت غائبة عنه حتى أتت في موعدها؟ أسئلةٌ فلسفيةٌ يجدر به الإجابة عنها قبل انفجارٍ محتملٍ في بوابة شريانه التّاجي، عيناها كافيتان لصهر كلامه، صار خائفاً من افتضاح أمره فالعيون العاشقة لا يُخفى لمعان حروفها مهما حاولت التستّر والاختباء.

تدخل مريم بغتةً للغرفة فتقطع عليه خلوته من دون قصد ليرتبك ما إن رأها، اعتذرت منه بينما بقي حسن يجاهد في مداراة اضطرابه من دون جدوى، جلست قبالته وهي تبتسم لتخاطبه: «أهو الحب يا حسن؟!» حملق فيها حسن وازداد توتره واستغرابه أيعقل أن حبّه الوليد للتّو ظاهر لهذه الدّرجة؟ وقبل أن تتملّكه الحيرة بأسئلةٍ لا نهائيّةٍ تكمل مريم

- لعلّه الحب، الحب أكبر المجازفات التي نرتبكها راضيين بها على علمٍ بنتيجتها التي تقتل إن لم تُصب، مجازفةٌ لا تصغ لنصيحةٍ ولا تنصاع لكبحٍ ولا ترضخ للواعج النفس، فمهما كنت هادئاً سيصيبك الجنون، وتزدريك الفطنة وتحابيك لذّة التّهور، المخاطرة في الحب تزيده شغفاً، وربما آلماً، وأنت ما زلت في الجانب الشغوف، ولكن احذر أن تجد نفسك يوماً في الجانب المؤلم لا نريد مريم أخرى في هذا البيت.

تقفل كلامها بعد مقولتها هذه لتهمّ بالنّهوض فسألها حسن

- وكيف عرفت؟!

فترمقه بتلك النّظرة الغريبة الغائبة عنها منذ زمنٍ

- أوتسأل عاشقةً قديمة عن عوارض الحب؟!

وقبل أن تترك الغرفة لتلحق بالباقيين استطردت بعبارة واحدة

- تيقّن ممن تحب يا أخي قبل فوات الأوان ولا تجرح نفسك بنفسك.... كن فقط كالطير المحلق، ولكن تأكد من جناحيك قبل طيرانك كي تأمن الوقوع إن هبّت رياحٌ مغايرة

يتساءل حسن أمام عصفورٍ وقف يزقزق قبالته على غصنٍ قريبٍ

- أتراه الحب إن غادرنا نصاب بالخواء وإن ازدحمت الصور والأماكن؟

سؤالٌ بقي قيد إجابة حين نادته دريّة لشرب الشّاي مع إخوته.

اجتماع الشاي ضجّ بأحاديثهم المؤجّلة منذ وصول أحمد اليوم الفائت، تقبّله درية على رأسه بامتنانٍ

- لقد رفعت رأسي يا أحمد لقد أخذتُ حقّي بكم من الحياة كاملاً

يقبّلها أحمد على جبينها ويدها، متباركاً بمن ربّته وقاست لوصولهم إلى ما هم عليه، ليخبرها وسط ذهولهم جميعاً بأنه الأسبوع الفائت ساعد ابن خالته تهاني التي طردت أمه يوماً ما من قصرها في أمرٍ حكوميٍ عالقٍ، قصده شخصياً للمساعدة فلم يردّه خائباً صفر اليدين، كان في طوّيته يريد الانتقام لأمه فمدّ له يد العون في مساءلته إكراماً لعينيّ أمه الغالية وقال له حرفياً:

- سأساعدك لا لأنك ابن خالتي الثّرية، فأنا لم أرها يوماً في

بيتنا حتى بعد وفاقنا مع أخوالي، سأقضي حاجتك إكراماً لأمّي درية التي كانت أمك سبباً في قطع رزقها يوماً ما وطردتها من منزلها، وأرجو منك أن تنقل هذا الحديث تماماً لأمك. أمّا إن احتجتني مرةً ثانيةً فعليك اصطحاب السّت تهاني معك

أنهى كلامه وسط استفهام الجميع وتعجّبهم، عُقد لسان أمّه فيما وضعت يدها أمام فمها لتكتم دهشتها.... سألته مريم لتبيان أمرٍ شقّ عليها معرفته، ماذا يختبئ وراء طلبه هذا من ابن خالته؟ يجيبها الأخ بلهجة المنتقم لوجعٍ قديمٍ:

- هذه المرّة قضيت حاجته من باب الشّهامة المفترضة وجودها في الأحوال العادية، فما بالك في حال القرابة وإكراماً لأم أحمد التي علمتني هذا. أمّا في مرّته القادمة فعلى تهاني أن تتعلم انكسار النّفس عند الحاجة فواجبي الإنساني انقضى بانقضاء الأول، أما الثاني فسيكون محض انتقامٍ لإذلالها أمي يوماً واعتقد أنّ في ذلك عدلٌ وإنصافٌ

صفّقت له مريم فخورةً بأخيها الذي بدأ القصاص لماضيه، أمّا حسن فأنهى الكلام بفلسفته المختلفة دوماً

- حتّى عندك يا أحمد زيارةٌ عن زيارةٍ تختلف

ضحك الجميع من كلام حسن وظرافته وفلسفته التي أثنى ويثني عليها أحمد باستمرار، وهنا عادت به الذاكرة لسعيد صديق الخدمة الإلزامية ذو الفلسفة المشابهة، الذي بقي على اتصال معه للآن يخابره ويطمئن عليه ويمرّ لزيارته كلما قصد العاصمة، همهم حسن في نفسه:

- أحمد من الذين لا يضيّعون أشيائهم القديمة التي أحبّوها يوماً.... أفتراه حقاً استثنى سلمى من كل هذا ؟!... أم لأن عُرف

الحياة أقوى من عُرف القلب. فهما الآن متزوجان والالتزام نحو الشريك واجبٌ وحقٌ، ولكن أحقاً لم يفتّش عنها حتّى في ألبوم ذاكرته القديم ولو لحنينٍ عابرٍ؟!

ويكبر الحب كنبتةٍ زرعها الله وسقاها نبضاً في قلبه. أحسّ حسن بأنّ الحبّ يملكه للدّرجة التي ينفصل فيها عن واقعه، فهو دائم الأحلام حتّى في دكانه وورشته المكتظة بالحديد والعمال دائماً. تأتيه نفحةٌ من ريحها بإطلاله أبيها كلّما رآه في الورشة، في زياراته السّابقة مع طارق لمنزل الفتاة. حفظ عطرها ونغمة صوتها بل وتفاصيلها كلّها. نظراته إليها كانت تتغلغل بمساماتها لتذوب فيها لترتد إليه حاملة إليه ماءها وطينها وروحها وتبعث فيه سكينةً لا تُنال إلا في الجنان، نعم في الجنان وحدها نعرف سكينتنا الكاملة. فسكينته هذه تراق إن خُدش جلد الفتاة بوردةٍ دنت منها لتشمّها. فضحك حسن في سرّه وهو يقصّ حديدٍ سميكٍ يعانده هامساً لنفسه:

- يا ليتنا نحب الإله على هذه الشّاكلة من الحب

راما التي يحب.... تعافت تماماً واستلمت وظيفةً في معهد الموسيقى الذي يديره طارق. تلجلج سؤالٌ مؤجل على شفتيه قبل أن ينطقه سائلاً أباها السمح الهيئة عن سبب ذهول ابنته في ذاك النهار، أتراها خيبتها الأولى مع الحكومة أم خيبة سبقتها خيباتٌ متسلسلةٌ.

لم يتعرض بسؤاله لأيّ تلميحٍ لما يخصّ القلب وإرهاصاته. فليس من اللائق لغريبٍ أن يسأل عن أمورٍ خاصة كهذه. ولأنه لم يشعر بذلك مطلقاً. براءة الفتاة أخبرته بعذريّة قلبها البهي، فقصّ الرّجل للشاب قصّة فقرهم. قصةٌ تشابه حكاية حسن

وعائلته سابقاً مع الفقر إلا أن فقرهم ما زال في أوجّه، وربيعهم لم ينضج بعد ليزيد النسغ في عروقه لتلبس قشور فقرهم اليابسة لحاءً أخضر.

خيبة الفتاة لم تكن أول الخيبات بل كانت أملاً تلاشى في زحمة الوساطات والرشى المتفشية في هذا البلد، وحسب الفقير نظيف الجيب بأمله وربّه الذي لا يتدخل في أمور الدولة التوظيفية، الوسائط والمال أقصر الطرق هنا لنيل المقاصد والأمنيات ،ولأن المال له قول الفصل في هذا الواقع المتردّي الذي نعيشه فتفصل تماماً بين طبقتين متمايزتين غنىً وفقراً، وبينهما تسبح في أحلامها طبقةٌ تسمي نفسها «المستورة»، لديها من القناعة ما يغنيها إن دنت حال الفقراء، ولديها من الأحلام ما يذكيها لتلامس مالا تطاله في حال الأغنياء. ليبقى السؤال المحير دوماً هل تتعمد الحكومات التغافل عن رداءة الواقع بحنكة السياسة والعدو القريب ؟!

يا للضيق الذي يلازم هذا البلد كظلّه، أعباؤنا القومية تحجب عنا نصف كوة النور والهواء فنبقى عالقين أمامها نفكر في النصف المغطى، نتنفس الصعداء منذ الولادة، ما أتعسنا حين تخلق أحلامنا لترفرف فوق أرضٍ غريبةٍ. ألا يجدر بنا أن نحلم هنا من دون هوسٍ جماعيٍ بمقعد في طائرةٍ وتذكرةٍ يكدّ البعض في تحصيل ثمنها سنيناً طوال.

مرة في بلاد الغربة سأله أحد الأجانب في ذاك البلد حين أفاض في كلامه عن وطنه الحبيب

- ما دمت تحب وطنك لهذه الدرجة ما الذي دفعك للخروج منه؟

فأجابه حسن جواباً صائباً:

- أحببته فلبسته جلداً فضاق عليّ

أعجب والد الفتاة بجواب حسن وضحك طويلاً ورفع له إبهامه كإشارةٍ لجوابٍ مصيبٍ تماماً. نعم لا تعدو الغربة أكثر من الخروج من الجلد برضانا أو بدونه.

في البيت تعود دريّة لإلحاحها القديم الجديد، ابنة أخيها الزهرة المتفتحة هي أكثر أمانيها التي تطالب حسن بتحقيقها سريعاً، ذعن حسن مرةً لرغبة أمه و ارتأى الصواب في زيارة أخواله جميعاً بعد قدومه من السفر، وابتدأ زياراته بخاله إحسان الذي أصبح مديراً للمدرسة منذ سفر حسن إلى الخارج، ويدين له أكثر من جيل في بلدتهم بالجميل والعرفان، من خلال زيارته لبيت خاله تأكّد حسن من أمرٍ كان يخيفه، فالبنت لا تبدو عليها أي بادرةٍ للإعجاب به. معتدّة ومزهّوةٌ بنفسها تحظى باحترام أي شخص تقابله يوماً، حتى بدا له أنها لم تنتبه لوجوده أصلاً.... هذا ما يخفف وطأة الأمر المزمع البتُّ فيه سلباً، فكيف للأمر أن يتم بدون قلبٍ؟ وقلبه ليس معه بل مع فتاةٍ أقسم لها ألا تُكسر ثانيةً وماهو بالحانث ليمينٍ أقسمه.

عرفت أمه بقرار ابنها بعد عودته من الزّيارة، شقّ على حسن إخبارها بالأمر وهو من كان متحمساً لإتمامه إرضاء أمه، ليبدو الاعتذار أشدّ هيبةً وصدقاً. اعترف لأمّه بحبه لراما وبأنّ الحب أتاه كمطر، هطل بفتاةٍ على ربيعٍ يحبو فأينع وغدا شاباً.

تقبّلت دريّة قرار ولدها برحابة صدر، على الرغم من الدّهشة والمفاجأة التي منيت بها توقعاتها وتخمينها بأن ذهول حسن وشروده في شهوره الأخيرة مرده لابنة أخيها، فهبطت أحلامها على مدرج واقع ابنها بسلامٍ، فلن تعترض على حبّه الأوّل أيّاً كان، ولعل

ولداً من أولادها الثّلاثة يحظى بنصيبه وقسمته من الحب في حياته، بعد أن جارت على ولديها الآخرين وسلبتهم حقّهم في عيشٍ متوافقٍ قلباً وعقلاً.

استغرق الأمر شهوراً...مرّت شهورٌ وحسن يخيط ثوب أحلامه بمخرز الرّجاء والتمنّي، منهك الليل بشوقٍ أطول منه ومدنف النهار لطيفٍ يُثقل مجيئه قلبه شغفاً وحنيناً....خجله كما في السّابق منعه من الاقتراب، زياراتٌ مقتضبةٌ لبيتهم المتواضع مع العم ربيع، والد راما، لم تمنحه القوّة والأذن باعتراف للصبيّة أو لأهلها، في وجهها تلوح بيارق الحب وعينيها غارقةٌ باللمعان، في كل مرّة يزورهم يقنع نفسه بأنّ ما يراه في وجه الفتاة المشرق يخصّه وحده من دون سواه، ولكن لا مناص من مكاشفة لعشقه، شهوره الطّويلة أثقلت كاهل أضلاعه وقوّست شريانه وملّكت حواسه للشّرود وللخيال، من شدة اشتياقه شعر مرّة وهو عائد إلى البيت بأنّه يجرّ رجليه جراً، مع أن المسافة لا تتعد أمتاراً بين موقف سيّارته خارج الفناء وباب منزله، ليواري ضعفه عندما سألته أمّه عن سبب وهنه الظّاهر جليّاً لها متحججاً بعمله

- إنه الحديد يا أمي
- ما أتعسك أيها الشّاب وما أبهاك...كيف استطعت النّوم بهذه السرعة؟!

وكما وقع النّدى فوق خدّ زهور الصباح الغافلة مسحت على وجهه محاولةً إيقاظه من سهوته، ففتح عينيه من دون أن يجفل لقد كان أقرب للصحو من النوم. أتراه كان يحاول اقتناص نومه ليهزم أرق قلبه المليء بالأطياف والتّوق؟

مدّت دريّة له ذراعها فاستوى على الأريكة وجلس معتدلاً، يده

لا تزال دافئةً في يدها وقبل أن يكلمها عانقها طويلاً وقبل أن تكلمه خاطبها:

- رائحة طعامك شهية للحد الذي لا يقاوم

وتركها تلملم ضحكتها وذهب ليغسل يديه قبل أن ينضم إليها لمائدة المحّبة العابقة برائحة زكيةٍ من طعام وكلام.

أمسية الأربعاء كانت من أشدّ الأماسي إبهاماً وغموضاً، ليل تسلقَ الهوينى على جذوع الأشجار البعيدة، ليرتقي بسماءٍ لا قمر فيها، فارداً جلبابه الواسع ليرتاح على جنح النّسيم الصيفي الدافئ. ما أقسى أمسيات الصّيف اليتيمة النّور، النّائمةُ الثّكلى، يدبُ على وشوشاتها نقيق ضفدع متخم الصوت أو أزيز جراد حقول الحنطة التي استحصدت بداية الصّيف، عبق الياسمين يهدّئ من وطأة تخمة الحواس، هذا الأفيون النّاصع البياض.

الفلسفة اليوم لن تجدي نفعاً مع قلب هذا العاشق المتأجج نبضه لحدّ الوثوب من ضلوعه، فقصد سريره ليلقي رأسه على الوسادة، علّه يتخفف من ثقل هواجسه وظنونه. موقناً أنّه في اللحظة التي سيغفو فيها ستصحو أحلامه القلقة في ليلة لا قمر فيها، مشحونةً بالتّوق والياسمين وطيف راما الحبيبة، هذا إن استطاع إلى نومه سبيلا.

غفواتٌ متقطّعةٌ تشوبها أطياف راما مضيئةً كنجم أضاع بوصلة السماء فسقط بين جنبيه، وكم بلغه العجب حين أشرع الصبح أبوابه من ضحكتها السافرة طول الليل، لله درها من نجم؟!

نهض حسن كعادته كل صباح رشق وجهه بالماء ولبس ثيابه دونما وعي، ثمة انفصال بين حسّه وحركات جسده، أمّا قلبه من

منعه عويله من النوم ليلاً هدأ واستكان على حين غرة، تعجّب حسن من رزان قلبه وتساءل:

- الخوف يؤلم القلب فيصيب النّبض بالهلع فما باله وقد خشع؟

أم أن الخوف في أقصى درجاته يصيب الأشياء بالجمود فتكفّ عن الحركة، لربما كانت إجابته محقّة فمنذ أحب لم يعهد قلبه رزنا وانفصال وعيه اليوم يوحي بحدثٍ روحي جللٍ أصابه. نظر حسن في ساعته فوجد الوقت مازال مبكراً للذهاب إلى المحافظة، فلا ضير من المرور إلى الدكان ليسأل العمال إن كانوا بحاجة لأمر ما. أخبرهم في النّهار الفائت بنيّته التوجّه للمحافظة ولكن تعديلاً بسيطاً لن يغير شيئاً، فمروره قد يعطيه دفعاً معنوياً أكبر لمواجهة حربه الضّروس تلك، ووقتاً كي يستجمع شتاته وقواه. أحقاً يحتاج الحب لاستحضار هذه الطّاقة الهائلة للبوح؟

لن يحتاج الأمر إلا لكلمةٍ واحدة ولكنّه ارتأى تنضيد أفكاره وكلماته قبل وصوله للمعهد، استغرق التنضيد الفترة الزمنية بين انطلاقه من منزلهم ومروره بدكّانه حتى وصوله لباب المعهد، علم من والدها بحيلةٍ ما بتواجدها في المعهد حين سأله إن كان يريد شيئاً من ابنته لأنه سيزور طارق في المعهد، فأجابه جواباً كان يعرفه سلفاً... لم يقوَ حسن على الاتصال براما ليخبرها بقدومه، رقمها كان يراوده مراتٍ عدّة دون أن ينصاع لمراودته أيّاً من تلك المرات، فحسن حذرٌ على الرغم من اشتعال الحب في جوارحه ورغم تهوّر نبضه الذي لا يهدأ أمّا اليوم فهادئ على غير عادته

وصل المدينة، ثلاثُ إشاراتٍ مروريةٍ تفصله عن المعهد.... تنفّس الصعداء، الهواء مبتلٌّ برائحة البحر الطازجة، أجبرته

إحدى النسمات عند وقوفه عند إحدى الإشارات أن يعطس فجأة فضحك للمرآة قائلاً لها:

- أحسب أن سمكةً طائرةً علقت في أنفي

فمسح أنفه بمنديلٍ هامساً يا لرائحة السمك !.... وصل أخيراً لمقصده الذي يرجوه، بحث عن مكان يركن فيه سيارته فشاءت الأقدار أن يركنها وراء سيارة طارق التي يعرفها جيداً.... فكّر في خلده أنه من المستحسن أن يركنها بعيداً تحاشياً لأية سيارةٍ تركن وراءه فتسدّ عليه منفذ خروجه في حال عودته لقيادتها، لكنه عدل عن رأيه لأن وقته في الداخل لن يطول، فخطته تنطوي على استئذان طارق بأخذها معه لعند مريم، التي لمّح لها عند اتصاله بها ليخبرها بقدومه بأنّه من الممكن أن تأتي ضيفةٌ معه، لم تسأله مريم عن ضيفته تلك ولم يتعمد إخبارها، مريم كأمها حدسها يتكفل بالبقية.

دفع الباب الزجاجي الكبير بيده، هي المرَة الأولى التي يزور المعهد، وما إن دخل حتّى اجتاحه العطروعصف به الجمال، وراء طاولةٍ سوداء لامعةٍ وجهازحاسوب ومزهرية تضج حبوراً بزهرات قرنفلٍ متمايزة الألوان تجلس راما البهية، بكامل الحسن والبهاء الذي يعرف و يحب، فتنةٌ أودت بكلماته المنضدة في قعر الهاوية ليملأ رأسه الفراغ إلا من سلام ٍألقاه بديهياً، وثبت الصبيّة من مكانها لتسلّم عليه، بادلته التّحية مدّت يدها البلورية لتصافحه فناولها يده المشتعلة، آملاً أن تنتقل إليها ما يعتمل داخل شرايينه من اضطرابٍ يخفيه عمداً في محياه، أطبق بأصابعه على كفّها برويةٍ كمن يحاذرأن يخدش عاجاً ناعماً، توردٌ خفيفٌ كسا وجهه بعد مصافحته تلك فحاول الالتفات يميناً ويساراً متعللاً برؤيته

للمكان لأول مرةٍ، لتعرض عليه الفتاة أن تصطحبه في جولةٍ بأقسامه قبل رؤيته لطارق التي كانت سبباً بديهياً لزيارته تلك، فأجابها بجوابٍ متلجلجٍ على شفتيه:

- مؤكد سأرى طارق ولكني أريد التّحدّث إليك بأمرٍ مهمٍ ، ولذلك سأستأذن من طارق أن نخرج معا لساعةٍ واحدةٍ نزور فيها مريم معاً

تجحظ عينا الفتاة من غرابة الأمر فهي المرة الأولى التي يأتي حسن فيها لمكان عملها، فيطلب منها طلباً بدا بالغ الغرابة ولاسيما أنّ مريم لم تتصل بها مسبقاً، فاجهز حسن على سكوتها وقد استطاع بفطنته التّكهن بما يدور في خلدها، فبرر لها إغفال مريم لمخابرتها، بأنّ الأمر لم يتقرر لليل أمس فتجشّمت عناء اتصالها في وقتٍ متأخرٍ. وأمام ارتباك الفتاة الواضح رفع هاتفه الجوال ليتصل بأخته ليجتث قلق الفتاة واضطرابها، وقبل أن يتمم اتصاله بمريم ظهر طارق من نهاية الرواق متفاجئاً فرحاً بصديقه القادم، هرول نحوه فاتحاً ذراعيه صافحه بحرارةٍ بالغةٍ، ورحّب به بزيارته الأولى في المعهد عاتباً عليه لانقطاعه عنه لفترةٍ طويلةٍ إلا من زياراتٍ متفرقةٍ خصّهم بها طارق بمنزلهم في البلدة، حيث أنه أدمن طهي دريّة الشهي، تجاذبا حديثاً عابقاً بلومٍ محبٍ، وحين همّ بجر حسن من يده لاصطحابه للداخل طالعه حسن بسبب مجيئه واستأذنه بأخذ راما معه لعند مريم في المكتب، فلم يمانع طارق بذهاب راما معه بشرط احتساء قهوة أهلاً وسهلاً معه بادئ الأمر، ومن ثم ينصرفان لوجهتهما المبتغاة.... طارق شابٌ طيبُ القلب لا تنقصه الدّماثة ويعتبر حسن اخاً لم تلده له أمه، ورغم صحبتهما القصيرة والتي لم تتعد شهوراً ستاً أحسّها طارق كافيةً لينصهر

كلياً في عالمهم الذي يروق له، وحدة طارق تؤرقه ليلاً وتتعبه نهاراً وانشغال أمه وأبيه عنه يزيد من فراغه، على الرغم من حياته الباذخة بالأصدقاء والنقود، ثمة دفء عائلي لا يعوضه أحد وهذا ما وجده طارق عند حسن وعائلته، فهم يجتمعون على الرغم من أشغالهم ودائماً بينهم اتصالات حرص وشوق، فلو أن السماء حبت أبويه ولداً آخر لربما اعتدل حاله، ولما أحسّ بما يكابد من جفاف أسري وروحي. ولكن طارق عوّض نقصه بصحبة حسن الذي كُشف معدنه منذ يومه الأول، يوم الحادثة التي لا تنسى، لقد جمعتهما الحياة بموقف غريب كانا قبله في مسارات متباينةٍ، فوحّدتهما باتجاهاتٍ متوازيةٍ متقاربةٍ، هم أصدقاء وأخوة وبينهما راما، الفتاة التي سلبت قلب حسن من نظرتها الأولى وجمّلت عالم طارق منذ دخلت معهده الموسيقي وتعوّد على إشراقة وجهها كل صباح، أمرٌ لم يكن بحسبان حسن أبداً ولم يفطن له على الرغم من حذاقته بالفلسفة والتحليل... الاثنان مفتونان بها ولا علم لأحدهما بالآخر. أما راما فعندها الجواب الفصل في كل ما حصل وسيحصل، هي الأفروديت الثانية التي يحق لها أن تختار بين قلبين ولهين حدّ الثمالة، إلا أنّ الكفّة ما تزال متساويةً بينهما ولم ترجح لصالح أي منهما على الرغم من اعتراف طارق لراما بإعجابه بها. لقد سبق حسن بأسبوع واحد، فطلبت راما ما يعادله زمنياً لتفكر فيه لوحدها، فرضى طارق وأذعن لرغبتها عسى أن يكون ذاك الوقت لصالحه، وخصوصاً أنه أعلن جهوزيته للزّواج الفوري منها دونما إبطاء، وهذا ما يسهل عليه طرح الموضوع عند أهلها إن أحبّت تحديد شكل مستقبلي لعلاقتهما الجديدة، أراد أن يكون جاداً معها منذ البداية كي لا تشعر بالابتزاز لعملها عنده في المعهد،

ولأنه وجد فيها ما كان ينقص حياته، فتاةٌ بسيطة جميلة لا تشابه غيرها من فتيات هذا الزمن اللاهث وراء الماديات البحتة، صنف من الفتيات المهدد بالانقراض في زمنٍ جار عليهنّ فصرن ما هنّ عليه.

فرغت فناجين القهوة قبل أن تفرغ ثرثرتهما نهض حسن عن كرسيه كالمتحيّن لحظة انتهاء فنجانه للانصراف، على صدره حملٌ ثقيل يريد أن يلقي به بعرض البحر فالبحر كان سبباً في معرفته بالصبّية وأمامه سيبوح لها بحبه، هكذا قرر وهو يقود سيارته في الازدحام المروري الخانق حين صافح أزرق البحر لون عينيه وحادثه بتموجات خفيفة تبدّت على الرغم من ابتعادها، ما من منظر يريح النفس كالبحر بكل حالاته.

رافقه طارق للخارج وودعه بحفاوة كما استقبله حيث اصطحب راما معه، التي التفتت قبل أن تركب معه في السيارة ملوحةً له بيدها وهي تبتسم فرد لها ملوحاً بيده كما فعلت، ولم يدخل للمعهد إلا بعدما دار محرك السيارة وانطلقت باتجاه الرصيف البحري الواسع، فتح حسن نافذة الباب المحاذية له ليخفف من احمرارٍ مفترض في وجنتيه، حرارة جسده عالقةٌ في رأسه أما نبضه الغافل منذ صباحه هذا قد عاود نشاطه ليؤجج فيه انفعالاً مربكاً، لم يستطع النظر في عينيها بادئ الأمر، إلا أنّه من المعيب عدم الالتفات إليها ومحادثتها في مسألةٍ غامضةٍ في رأس الفتاة، ومعها كل الحق فبالرغم من اتصالها المستمر مع مريم إلا أنه كان يُستحسن أن يخبر أخته بالموضوع، لتمهّد له من طرفها كي لا يبدو الأمر مفاجئاً لراما. إلا أنه أنهى صراعه مع شتات أفكاره بأنه ليس أول أو أخر المعترفين بالحب، المحتاجين

لكذبةٍ بيضاء تهيئ لهم الظرف المناسب لذلك الاعتراف.... عطرها المنداح مع هبوب النسيم والمتطاير من خصلات شعرها الهائجة، ورطب الحروف في جوف حلقه، نظر إليها باسماً ليبدأ حديثه بسؤالها عن عملها الجديد فجاء جوابها بالرّضى والسرور بعملٍ يليق بها ويساعدهم على الحياة، ولم تغفل عن شكره لعمل أبيها عنده والذي حسّن دخلهم ووضعهم بشكلٍ عام، فقاطعها حسن محتجاً على كلام ليس في مكانه فالفضل لله أولاً وأخراً والعم ربيع يعمل بكدّه وتعبه ولا فضل لأحدٍ عليه وأنّهم صاروا أهلاً أقارباً، وهذا الكلام مرفوض قولاً وتفصيلاً فيما بينهم.

ركن سيارته قبالة الرصيف البحري الفسيح الممتد امتداد شاطئ المدينة المشبعة برطوبة الهواء، بدد استغرابها حين أومأ لها برأسه مخاطباً بأنهما سيتمشيان قليلاً على الرصيف البحري قبل ذهابهما لزيارة مريم، ليمنحا لها فرصة إنهاء أعمالها وليكسبا نزهةً جميلةً في بداية نهارٍ صيفي مميزٍ. هزّت راما رأسها موافقةً ونزلت من السيّارة لتمشي محاذاته لبضعة أمتارٍ، ثم انعطفا يميناً ليتحاشا نظرات الشمس إليهما، ابتدءا مسيرهما بصمتٍ يخرقه هبوب الهواء الرّطب فيثقل الصمت من دون عمد، كان لا بد من حديثٍ ممهد ٍقبل اعتراف حسن لراما وما عساه يقول وقد هربت منه أفكاره المنضدة وحروف لغته كلها، يا لها من ورطةٍ حين تعجز عن الإفصاح عمّا تريد البوح به، تمنى لو أن قلبه يفتح ككتاب لترى ما سطّرلها فيه من حكايات لياليه الطويلة منذ رآها، وكيف كتب لها الشوق شعراً نزارياً لا يجار، ولكن الحال حتّم عليه أن يفتح فمه لا قلبه، فهل خانته حروفه حين أحتاجها ؟! لقد هربت أمام عيونٍ تبلع الكون باتساعه من دون رحمة.... يا

لعينيك القاتلة يا راما!

رشقها بنظرةٍ خاطفةٍ قبل أن يسألها سؤالاً ما أعدّه من قبل

- هل تثقين بي يا راما؟
- نعم أثق بك. جاوبت بصوتٍ متقطّعٍ ودونما تفكير

هو شعورها الأصلي إذاً وهذا جليٌّ له تبعاً لفلسفته ولتصرفاته، التي لم تتعد نطاق الأدب والاحترام يوماً مذ ان عرفها وأهلها، عدا عن أنّهم يبدون دوماً الاعتراف بفضله في إنقاذ ابنتهم، جوابها السريع المقتضب زاد في ثقة بقيّة أسئلته التي وجدها كفيلةً بإضاعة الوقت من دون أن يصل لرجائه، فحانت منه التفاتة نحو البحر الهادر بأقاصيص العشاق منذ بدء الخليقة، ليختصر أسئلته الباقيات بكلمةٍ تفرغ حمولة قلبه كلّها على مسمعها:

- أنا أحبك

قالها بحال الصدمة التي وقع فيها طارق مغشياً عليه بباب المستشفى حين كان يقظاً واعياً، فأنجده من براثن الشحوب وها هو الآن لا منجد له ولا مغيث.... نبضه اللجوج خرس كلياً وخمد لهاثه المتسارع، بعض قطراتٍ من العرق المختبئ خلف شعيراتٍ قليلةٍ على تخوم جبهته تساقطت متباكيةً لتلفحها هبّات الهواء فأزهقتها بسرعةٍ، أما راما فما زالت تبلعه بعينيها الواسعتين، هذا الثقب الأسود المترامي الذي يضج بألوانٍ غارقةٍ تمنّى ألا يصيبه الدوار قبل أن تنطق الفتاة التي بدت متماسكة أكثر منه.

ربما فلسفته التي خذلته الآن لم تصرح له بأن راما الواجمة عند الاعتراف بالحب ما هي إلا واجهة لقلبها، إلا أن الفلسفة وأذنيه والبحر كانوا جميعاً بانتظار الفتاة على أحر من الشمس التي أجلت لهم وجهها اللاهب.... وبالسرعة ذاتها التي امتلكتها

بجوابها الأسبق وبذات الثقة:

- حسن معروفك لا أنساه ما عشت فأنت سبب وجودي على قيد الحياة ولكن قلبي لآخر منذ زمن ولا أريدك أن تغضب مني أرجوك

لوهلةٍ شعر بأن من تحدّثه ليست راما. فتلك البريئة التي ما ظنّ أن الحب طرق على قلبها يوماً عاشقةٌ منذ مدة!

منذ متى أيها الفيلسوف تعتبر الحب ذنباً فالفتاة البريئة ذاتها عاشقةٌ منذ زمن.

في هذه اللحظة عرف حسن سبب هروب فلسفته منه. إنها فلسفةٌ كاذبةٌ مخادعةٌ أوصلته لقعر البئر وعندما دنى من الماء قطعت به الحبل. وما قاعه الآن سوى قلبه وما هزيمته إلا كاتساع هذا البحر. فكيف ستركّب هذه على هذا. معضلة ستستغرق زمناً لا يعرف أمده لحلّها. لقد أُسقطت من يده كل تأويلات شهوره الماضية المعشّقة بالحب. أحلامه القرمزية انتهت بالجملة. لم تترك له الحياة الآن بصيص نور واحد لم يخبو. أُطفئت الأنوار دفعةً واحدةً ليعلم حقاً أنه في قعر تلك العينين السوداوين.... أشاح بوجهه ليصافح نور الشمس فأجبرته على انكماشٍ طفيفٍ لعينيه. أراد بعض الدفء لما تجمّد منه ونجاة من ثقبٍ أدهم.... أحسّت الفتاة بارتباكٍ لوجوم حسن الطّويل فهمّت بتكرار عبارتها أو ربّما تعديلها. فعاجلها برفع يده بأن تصمت فأغلقت فمها بعد أن فغرته قليلاً وببرودٍ جليدي خاطبها:

- لا عليك أنا متفّهم لكلامك وأشكرك لصدقك وسأكون فرحاً لفرحك ولا تقلقي فأنا بجانبك دوماً مهما حصل

ضحكت راما فارتسم النهار المفقود في داخله بمحياها....

- لو تعرفين يا فتاتي كم يجتاحني الظلام؟

قالها بمرارةٍ تعادل فقره طيلة عمره.... لقد ظلّ فقير القلب على الرغم من غناه، جنّته الوارفة أغلقت بشمعٍ أحمر للتّو، برقت صورة مريم في خاطره سريعاً فتنهّد من أعماقه «أوّاه يا أختي.... لقد غدا لديك قرين» شعرت الفتاة بارتباك حسن ولإنقاذ الموقف المحرج تحايلت بانشغالها بمكالمةٍ على هاتفها الجوال، لتعطيه فرصةً للملمة كلماته الضائعة، وبعد أن أنهت مكالمتها وجدت حسن يومئ لها ليعودا أدراجهما إلى السيارة، فتتبعه بفارق خطوتين وراءه، نادته بصوتٍ فيه بحّة ترجّي مبطّنة:

- هلا عدنا إلى المعهد لقد أخبرتني إحدى المدرسات بوجوب العودة، فهناك ازدحام للطلاب اليوم وسنؤجل زيارتنا لمريم إلى يوم آخر

فهز رأسه موافقاً على يقينه التام بأنّه اسلوبٌ متفهّمٌ وراق من راما لإنهاء عذاب وجودها أمامه.

شكرها في سرّه وهو يقود السيارة عائدين إلى المعهد وقبل أن تلقي عليه التحية إبّان نزولها رجاها بطلبٍ يتيمٍ

- راما.... ابقِ الأمر سراً بيننا.

أجابته بصوتٍ متألمٍ: نعم يا أخي.

ترجلّت راما من السيارة لتترك سكين أخوّتها في صدره تنزف قهراً، قلبه المفطور تلاشى من بين أضلاعه، وطار مع هبوب النسيم الذي يلطم وجهه من نافذة السيارة هباءً منثوراً، أتراه كان حلماً لا يستحقه؟! أم أنّه تأخّر عن موعده فحسب؟ كيف يتأخر من ساعدها للرّجوع إلى حضن الحياة أتراها عادت حباً لشخصٍ آخر انتشلها حبّه من لجّة الموت؟ الفتاةُ واقفةٌ أمام الباب ترمقه

بنظرةٍ غريبةٍ وادعةٍ، لوّحت له بيدها قبل دخولها وهي تعلم وربما تسمع انتحابه ونشيج حزنه.... أدار مفتاح السيارة لينطلق بسرعةٍ جنونيةٍ، لا يلوي على شيء سوى على استفراغ كل ما في جوفه من قهر.... أوقفته إشارةٌ مروريةٌ عنوةً فكانت حداً لجنون سرعةٍ وجنون هيامه، فصرخ دونما وعي لحدٍّ سمعه سائقو السيارات المحاذية له في صف الوقوف:

- ألم يكتف منا الفقر.... ألم يكتف منا الفقر بعد

لم يأبه لدهشة من رآه فتألم مثله، لم يأبه لرشق نظرات الاستغراب، ألمه كافياً لفصمه عن واقعه بما فيه، بادلهم نظرات الاستغراب نفسها كسائلٍ لهم، هل شعروا بألمه يوماً؟

الجمر يكوى موضعه فقط وجرحه الحديث العهد المتفتق عن خيبة قلبه الأولى يئن تحت وطأة الاحتراق .... لا ذنب للفتاة في هوىً لم يدغدغ روحها لم تعده عيناها بعهدٍ يوماً ولم تعطه ميثاقاً فأخلفت، كان قلباً واحداً، حباً يعنيه لوحده، ذنبه أنّه عاشق والمعشوق في غنى عن غرامه لانشغاله بعشقٍ آخر، وتساءل في نفسه لم انزلق عميقاً من دون طوق نجاة؟ لم استنزف قوته وصبره طول شهورٍ خلت على أمل لقاءٍ يعلن حبه أبدياً يرمم ويعوض ما استنزف منه ؟ لم يستطع البحر الذي فرّ حسن إليه شاكياً، الإجابة عن أسئلة حسن كلها فاكتفى بدمدمة هادئةٍ مواسيةٍ، فلا وقت للنصائح أمام من ينازع القهر دمعته التي همت عنوةً عنه مالحةً كموجة.

بحرٌّ رزن يواسي بحراً غضوباً، وعند اشتداد الهاجرة ذاك النهار وقبل أن يكفكف حسن دمعته الأخيرة ليسدل الستارة على مشهد الحزن الأخير، ابتسم للبحر ابتسامة صفراء تشكره على

سماع نشيجه ليلفظ فيه آخر ما بقي لراما داخله:

- أسعدك الله يا راما.... عسى أن تبلغي السعادة التي لن أعيشها يوماً.

نهض حسن عن صخرته يدفع أنفاسه أمامه، جاراً وراءه ظلّ انتكاسته الأولى، فتثاقلت خطاه بين دفعٍ وجرٍ فمشي في غير استقامة بهوادةٍ قسريةٍ حتّى وصل سيارته، ولم يع وقتها ما انتابه، اعتراه قهرٌ قديم عمره عمر الفقر منذ بدء التاريخ فانفجر باكياً فوق مقود السيارة ولم يقاطعه أحده أثناء عويله الذي وئد باتصال من أخته مريم.... المكالمة سُجّلت فائتةً، نفض عن وجهه نثارة الملح اللصيقة بخدّيه محاولاً ابتلاع ما تبقى من أنينٍ، ليوافي أخته المنتظرة لزيارته في مكتبها.

غبَّ في رئتيه نصف هواء المدينة الرطب، حركات شهيق وزفير قسريّةٍ علّه يضغط بركانه الثّائر داخله شاكراً الإله على فطنة راما فانسحبت في الوقت المناسب، راما على رهافتها وبراءتها خبيرةٌ بالألم ولقد عرفت تماماً أنّ لقاء مريم المفترض إطارٌ مزخرفٌ للقاء اليوم. صعد السلالم مترنحاً فأمسك بقضبان الحديد على طرفه ليتوازن فتذكّر صنعته، دفّأه الحديد على برودته، تمنّى لو كان مثله صلبٌ باردُ لا تلويه أثقل المطارق ولا ينكمش متصاغراً أمام عيون تبلع الكون.

«لله در الحديد.... ليس لديه قلب» قالها بألم طفربين أسنانه فصبغ ريقه بالمرار ليبلعه رغماً عنه.

رنّ الجرس ففُتح الباب بسرعةٍ، كانت مريم بمحاذاة الباب تعدّ في مطبخٍ صغيرٍ فنجان قهوتها.... ابتسم وهو يلقي التّحية عليها وقبّلها بحنانٍ مفرطٍ، قبالتها وقف صامتاً لم ينطق ببنت

شفةٍ، عيون مريم الثّاقبة كصقر سبرت جوفه، قلبٌ ممزقٌ وكبدٌ متورمٌ وأضلاعٌ محطمة، روح تنازع الألم. طوت رأسه بين جنبيها وطوّقته كدرع حماية من الألم المتوافد موجاتٍ بطيئة لروحه

- ألا أفرغ حمولتك بهذا الصدر يا حبيبي فهذا الصدر لم ولن يخذلك يوماً.

بكى حسن كبكائه صغيراً حين يفيق فلا يجد أمه جانبه، سمعت نحيبه لانتهائه وتعجبت وهي تذرف دموعها بالتتابع، أما زال في الشرق رجال يبكون فقدان حبيباتهم؟! إذاً مازال هناك رجال يا أخي؟!

جلسا على الأريكة مقابل المكتب تمسح دموعه بمنديلٍ جافٍ، لم تتبين إن كان حسن يبكي الخيبة أم الرفض. وبنظرتها القانونية في مسألة هكذا كان الرّفض الجواب الأدق في حالة أخيها، هذه فمن مكالمته الأخيرة يظهر جليّاً أنّها زيارته الأولى لراما فلو كانا عاشقان منذ مدة لاستشفّت ذلك من كلامهما وهي القريبة من الاثنين سوياً

لم يظهر حسن ضعفه سابقاً فكأنّ الحب يقض القوة في أدهى ارتكازٍ لها فيطيح بها، فمن لا يتأثر بخيبات الحبّ لا قلب له أمّا النزوات لا تجلب الوجع تجلب النّدم فقط... تذكّرت حالتها قبل سنينٍ خلت حين ملأ صراخها آفاق الروح، وشرد في الزواريب العتيقة للأماكن، وغفا على قارعة الطريق. هي ذي علبة الدواء الفارغة أمامها قبل غيابها في نومٍ ثقيلٍ أفاقت بعده على لكماتٍ وصفعاتٍ وأنبوبٍ يتموسق خارج انفها، وذهانٍ استغرق شهوراً قبل أن تعيدها عادتها الشهرية التي غابت بغيابها عن الوعي، لخيار الحياة الوحيد أمامها.

- لقد عرفت أخيراً من أحببت حين اتصلت اتصالك الغريب البارحة، لن تجدي النصائح اليوم، كان عليك البوح منذ البداية فالكتمان قرين العناء المؤجّل يا أخي. سأعدّ لك القهوة فمن المؤكد أنك اشتقت لقهوة أختك الحبيبة.

شربا قهوتهما سريعاً أنهت بعدها مريم عدّة اتصالاتٍ مع زميلتها في المكتب والتي تداوم اليوم في المحكمة ومع بعض الموكّلين، لم ترد إطالة الوقت على أخيها حسن المتألم، فالمسكين بحاجةٍ للرّاحة وللوحدة، هي أخبر وأكثر الناس معرفةً بحالته، فذات الرخام فاقت ذات الدمامل بأوجاعها. نهض حسن متثاقلاً من صخرة الحزن القابعة على صدره، تأبّطت مريم ذراعه وانطلقا إلى منزلها لتأخذ مريم حقيبتها الموضّبة سلفاً وبعدها فوراً تابعا طريقهما إلى بيت الكبير، المكان الأنسب ليفنّد حسن تداعيات حزنه، لن تفيد اليوم مقولة بأنّ الرجال لا تبك، وبأن النّسيان دواءٌ لكلّ المواجع فاليوم هو يوم الخيبة.

عليك إيفاء الحزن حقّه أن تعيشه للحد الذي ينفر به منك، فمتى بدأت الألوان بإغرائك من جديد اعرف أن حدادك قد انتهى، وما دمت ترى الأشياء بتمايز اللونين القديمين فحزنك لم يعلن نعوته ولو استغرق الأمر عمراً كاملاً.... الحزن وحده من يقرر الرحيل لا نحن، فليأخذ أمده كاملاً لعلّه يُبقي من أيام الحياة ما نعيشه ملوناً زاهياً.

لم تخفَ على درية بوادر توعّكه فذات الدّمامل أرهقتها طويلاً، حزنه يطفو على وجهه وعيناه تحكيان الكثير، عانقت مريم التي اشتاقت لدبيب عطرها في البيت، ليرتمي حسن بعدها في حضنها متوسلاً غطاءً يدفئ ثلجه القطبي الذي يعصب أطرافه وقلبه....

دام عناقهما لحظاتٍ كفيلةٍ باسترجاع جزءٍ من الشّاب المفقود في عينين تبلعان الكون. لقد أعادته دريّة بعد أن ربطته بحبلها السري الخفي.

- هيّا لندخل فالغداء الشّهي بانتظاركما

دخلا البيت كما في السابق امرأة صلبة وصبي يمسك بطرف ثوب أمه التي تركته، فبكى لغيابها، فبقي ممسكاً بطرف ثوبها مخافة غيابٍ آخر.

لم يبكِ حسن بعد ذلك، اتشح حزنه بصمتٍ ثقيلٍ يخلق حول عزلته جواً من الريبة، حسن الفيلسوف مستلقٍ على طرف سريره صافنٌ في عصفورٍ مغردٍ على الغصن يطيل الزقزقة. لم تستطع درية ومريم سبر ما في رأس الشاب على معرفتهما المطلقة بما في روحه، ربما كانت جملة أسئلته لا تعدو أكثر من استنكارٍ أو استفهامٍ لفرح هذا العصفور، والجواب سيأتي بأنه له حبيبةً تحبه مثلما يحبها، في ردّات فعل الروح الآنية على تداعيات القلب ولاسيما الحزينة منها تأتي كل الإجابات متشابهةً، فالعقل فيها محدد التّفكير بشيءٍ بعينه فيراه محور الكون ومركز ثقل الوجود.

صورته الواضحة أمامه لا تلبث أن تتلبّد بمرور الزّمن حين يرجع العقل لسويّته، وتقفل الروح عائدةً لمداراتها، لتبزغ من بين تكوين الصّورة القديمة ملامح جديدةٍ لصورةٍ أدق، ولكن ليس على الحزين من حرج فلندعه يقارع صمته ويغب من حزنه حد الامتلاء ويستجدي الأطياف للذهاب.... وحده من سيلملم شتات نفسه ليفتح بابه ويعود.

استغرق الأمر ثلاثة أيامٍ لعودته إلى دكّانه، قضى فيها وقتاً طويلاً في عزلته الطّوعية، أعماله المستعجلة أنهى بعضها على الهاتف

وأجلّ ما يمكن تأجيله ولكن لا مناص من العودة للعمل. وحده الحديد القاسي سيلهيه عن أوجاعه فلن يذعن لأوجاعٍ متراكمةٍ تصيبه بالصدأ، وهو من فلّ فقره كما الحديد الذي يطوعه بيديه الصلبتين. فاتخذ قراره بالعودة وشحذ معنوياته النّازفة منذ أيام ثِلاثٍ، فاجأ أمه وهي تشرب القهوة بجانب الوردة الجورية الكبيرة تحت فيء شجرة الدراق، انضم إليها وقطف وردةً جوريةً أهداها لأمه، ابتسمت بكامل وجهها الدرّي فابنها عاد إلى رشده واستجمع قواه الذّابلة، كان رضاً روحياً لحبٍ أولٍ يتيمٍ خائب.

احتسيا قهوتهما بتأنٍّ على وقع طنين نحلةٍ دؤوبةٍ تنتقل بين الزهرات، أعادت ذاكرته للطّفولة حين قرر اصطياد نحلة في صغره ليشرّحها لاكتشاف كيفيّة صنعها للعسل فلسعته، فاضطرت أمه لأخذه للطبيب وإنفاق آخر النّقود المتبقيّة معها قبل نهاية الشهر.... كلامه أسعد دريّة وآلمها في حين، فطفلها يسترجع ما يسره من ماضيه فحاضره يؤلمه عميقاً بروحه وقلبه.

نهض من مكانه ليهمّ بالانصراف تستوقفه أمّه لتمسح على وجهه بكفّها العابق بالحب

- انتبه لنفسك يا ولدي.... الأيام تتكفل بكل شيء

ابتسم في وجهها وانحنى فوق كفّها وقبّله وأجابها مازحاً

- لا تنسي أنني حدّاد والحدّاد لا يُلوى زنده، انظري إلى زنديّ المفتولين.

وصار يتحسس عضلاته أمامها من باب الدعابة، فعاجلت عناقه لتضفي دفئاً إضافياً على ذاك الحديد المتوجع من طرقات حبٍ أصمٍ.... تركها ومضى في سبيله، ترقبه نظراتها بحنوٍ لا حدّ له وبألف دعاءٍ تستصرخه من السماء لزوال غمّته.

في دكانه الصّاخب بأصوات مكنات اللحام والمطارق وآلات القص، صبّ جام حزنه في حديدٍ بلا قلب. ورشةٌ جديدةٌ تستلزم جهداً إضافياً وجد فيها مبتغاه ليفرّغ طاقته الإضافية الثقيلة، لم يضنيه إلا والدها الطّيب الذي يحبّه كابنه والذي أحبه حسن كوالده، رائحتها أحياناً تهفو عليه من قميص والدها حين يمر فيعلم أنّها عانقته صباحاً قبل ذهابها للعمل، وأحياناً يتراءى له في وجهه براءتها المشرقة فتغصّ روحه بألمٍ مبهمٍ، لا يخرج الأحبّة من أرواحنا بسهولةٍ، يستهلكون زمناً ونبضاً وذكرياتٍ. وتستغرق لملمة أشياءهم المتناثرة في الروح ربّما عمراً، فالبعض يترك أثراً وإن رحل فيعود وقت الحاجة. وما الحاجة وقتها إلا استحضارنا لذكرياتنا المؤلمة حيال كل نزيفٍ نمرّ به ولعله مع الأيام سيستحضرها كثيراً إن باء بالفشل مرّة أخرى، لم يفقد أمله يوماً ولكن خيبته الطّازجة لم تذعن للهدوء بعد، ما زالت كطيرٍ تنقر أفكاره وروحه. أمّه قالت له اليوم أنّ الأيام رفيقة النسيان وحسن يثق بأمه ثقته بالسّماء، فلولم تكن أمّه امرأة سماوية لما تحمّلت ما مرّبها من مطبّاتِ وهوانٍ، لقد صمدت في زمنٍ يعاب فيه المرء لفقره ولنسبه ولعمله، صمدت فقيرةً سليلةً لمتسولٍ، وزوجةً لسكيرٍ عربيدٍ، وخادمةً حيناً في قصر أحد الباشاوات.

كثيراً ما تمنّى حسن وهو يُصلي الحديد طرقاً في نارٍ حاميةٍ عندما يستذكر أبيه مصادفة، أن يطرقه بمطرقةٍ تهلكه وعندما يبتعد عن حرارة الفرن يتسلل النّدم خفيةً إلى وجدانه، فيخفف وطأة طرقته علّها توقظ ذلك الغافل من دون أن تودي بحياته البائسة. الحرارة تزيد الانفعال والغضب فكيف سيتقرب منها ونيران عشقه تستعر داخله؟! ربّما لن يتماثل لشفائه قبل الشّتاء،

حين يقترب يوماً من فرن الإحماء فلا يجد إلا ناره لتدفئه وأعضاؤه قد تجمّدت.... وقتها سيعيد ترتيب أوراقه بهدوءٍ وقد ودع هذيانه هذا.

مريم

في المدينة النّائمة قرب البحر تلازم مريم أسلوب حياتها المعتاد، عملٌ متواصلٌ من دون توقف عدا بعض نزهاتٍ تخرج فيها مع إحدى صويحباتها أوشريكتها في حياتها، وما أجمل أن يكون من يقاسمك العمل يقاسمك حياتك، مريم تداعبها أحياناً حين تناديها لتوافيها إلى مائدة الطعام «هيا يا زوجي العزيز...الغداء جاهز» فتضحك الاثنتان سخريةً من قدرٍ شرقي أجبرهما على العيش وحيدتين، دونما غطاءٍ ذكوريٍ كما تسميه مريم، وما نفع دثارٍ لا يقي من قرٍّ أو حرٍّ، لا ينفع سوى غلالة لرغبةٍ جنونيةٍ لا تتعد عشر دقائق. عادةً تثرثر الفتاتان على مائدة الطعام بقضاياهن العالقة في المحكمة، وأحياناً بحديثٍ مقتضبٍ عن أحد المعجبين المتوددين لهما في دوائر الدولة أو قاعات المحكمة حيث تقضيان أغلب أوقاتهما، فرغم تجاوزهما منتصف الثلاثين من العمر ما تزال لهما رهجة الصّبا، ولمعة النّجاح تزيد إشراقهما، ورغبة بعض الرجال في الاقتران بهما أو حتّى لعلاقة ٍعابرةٍ من بعض الذكور المتظاهرين بالوفاء لزوجاتهم علناً، الباحثين عن ملذّاتهم خفاءً، وكم هم كثرٌ في هذا الشرق.

الحب شيءٌ مستهلكٌ هنا، قليل الحدوث في زمنٍ تحكمه المادّيات وتعبث بصدقه العولمة والفضائيات. ذاك الحب الذي تغنّى به الشّعراء ولىّ منقرضاً ولم يبق منه سوى قلّةٌ من الناس، من يبكون ويُجلدون ويحزنون عن الحياة إن خذلهم الحبّ

الحقيقي ولو مرّةً واحدةٍ، قلّةٌ تعزف عن شراكة الحياة لتحيا أيامها بديناميكية عملٍ مضنيةٍ. بينما البقيّة يغمضون أعينهم ويخرسون قلوبهم وينخرطون في القطيع المزدحم ويتناسلون دونما قصد ودونما حب.

مريم النّاقمة على الرجال بسبب خذلانٍ قديمٍ، تتناثر حججها فراشاتٍ حمقاء أمام نار الذّكرى، لتتحوّل فحماً أصّماً يفوع برائحة التحسّر. لطالما فكّرت مريم في ماهيّة حبّها القديم للأستاذ أنور هل كان انقياداً أم تنويماً مغناطيسيّاً، أم تعويضاً عن كل السنين التي التحفت فيها ذات الدمامل بوحدتها، حتى جاء على هذه الشاكلة من العنف، وعلى هذا القدر من الخراب. وتسأل نفسها كل ليلة ذات الأسئلة عندما تتوجه صديقتها بالدّعاء لحبيبها الرّاحل بالرّحمة والمغفرة، أتراه لو مات أكان الأمر هيناً أكثر؟! أحقاً هي تتمنى موته ولو للحظة؟!

لا، يأتي جوابها عن كلّ الأسئلة السّابقة التي تطرحها على نفسها قبل أن تغفو كل ليلة، أمرٌ استثنائي فكّرت به ليلتها هذه قبل أن تراودها الغفوة:

- ماذا يريد مني الأستاذ ياسين ولماذا أصرّ على مقابلته خارج المكتب؟

عادةً يلتقيان كثيراً في قاعات المحكمة وأحياناً في مكتبها فلم الاختلاف هذه المرّة؟ الجواب عنده، ياسين رجلٌ مستقيمٌ منفتحٌ ولا ضير من شرب قهوة الصّباح في أحد المقاهي المطّلة على البحر مع صديقٍ قديمٍ وفي.

غادرت الصبيّتان البيت في الوقت المعتاد صباحاً، اعتذرت مريم من نجوى لتأخّرها عنها لتوافي الأستاذ ياسين لأمر ما في إحد

المقاهي، فانفصلا عند آخر الشارع لتتجه كلٌّ منهما في اتجاه. نسيم البحر لثمها برطوبةٍ طفيفةٍ فتنهّدت مستبشرةٍ بقبلات النّسيم الذي تغلغل في شعرها، ليوزعه خصلاً على كتفيها وظهرها. أخرجت من حقيبة يدها هاتفها الجوال لتتصل بالأستاذ ياسين فأخبرها أنّه بانتظارها ليحتسيا القهوة معا. لم ينتظرها طويلاً، احتاجت لأقل من خمسين خطوةً بعد إنهاء مكالمتها لتصل إليه، دفعت الباب الزجاجي بيدها لتطالعها قامته الأنيقة واقفاً وراء طاولة في المنتصف مبتسماً ابتسامته الفاترة، اتّجهت صوبه ضاحكةً لتجلس قبالته بعد سلامٍ حارٍ تؤرّجه رائحة القهوة السّاخنة، بدأ حديثه ببعض الأسئلة الاعتيادية الرّوتينية بين أي زميلين في مهنةٍ واحدةٍ، لم يُفت مريم أن هناك حديثاً عالقاً في حلقه وأنّه يتحيّن الوقت المناسب في الحديث لإقحامه، فاختصرت طول الحديث من دون مبررٍ لتسأله:

- ما الأمر الذي دفعك لمقابلتي هنا أستاذ ياسين؟

لم يراوغها بمجاملاتٍ واهيةٍ وخصوصاً هو من طلب مقابلتها فأجابها بصراحةٍ عفويةٍ

- هناك شاب يا مريم رآك مرة واحدة وسمع عنك منّي ومن غيري الكثير.... لم يمنعه من محادثتك ضعف شخصيّةٍ أو خجلٌ، فهو رجلٌ متنفذٌ وقوي المادة والإرادة، ولكنه رأى بشخصيتك القويّة ما يمنعه من إقحام نفسه في موقفٍ محرجٍ لكما.... معجب بك كثيراً ويتمنى أن تمنحيه الفرصة ليتعرّف إليك عن قرب لعلّ الحبّ والنّصيب يجمع بينكما؟!

هذه هي المرّة الأولى التي يتكّلم معها الأستاذ ياسين بأمرٍ من هذا القبيل، والمؤكد عندها أنّه يعنيه ويقدّره كثيراً وإلا لشقّ عليه

تكليفه بأمرٍ كهذا، أو ربّما هو من تطوّع لمحبّةٍ مشتركةٍ بينها وبين الشاب، علّه يجمع صديقين عزيزين بعشّ زوجيٍّ هانئ، قاطع تفكيرها بسرده للمعلومات المهمّة التي ينبغي عليه قولها عن عريسها الجديد:

- مغتربٌ منذ أكثر من عشرين عاماً، قضاها في البرازيل وعاد بثروةٍ طائلةٍ. لديه شركةٌ للاستيراد والتصدير في المرفأ بموظفين كثروأعمالٍ أكثر، ولديه من المعارف على اتسّاع رقعة البلد، كريمٌ ولديه من الأخوة ثلاث بناتٍ لأبوين توفاهما الله، أعرفه منذ زمن، صديقٌ لأحد أصدقائه القدامى، تسلمت له إحدى القضايا في الدولة المتعلّقة بشركته، وهناك في المحكمة حيث رآك كانت زيارته الأولى لدار القضاء بعد عودته، وبعدها أسرّ إليّ برغبته في التعرّف إليك عن قرب

قاطعته مريم بسؤال معترض:

- قلت إنه سمع منك ومن غيرك عنّي الكثير.... من هؤلاء الذين سألهم؟

- المهندس عماد لديه معارفُ كثرٌ هنا منذ عودته قرابة أربع سنين خلت، ويبدو أنه صديق لطارق أيضاً تربطهما صلة قرابةٍ بعيدةٍ وقد زاره في بيته كثيراً بحكم القرابة والصّداقة المتينة بينه وبين والد طارق، وتأخذ الأحاديث بتلابيب بعض وقد شهد طارق وأهله بأصلكم ومنبتكم الطيب أنت وأخوتك

كلامه أدخل السرورلقلب مريم فآمالها مذ خذلها الحبّ باتت تنحصر في السّمعة الطيّبة والمعروف الحسن، سيّما وأنّ الحبّ علّق على سلوكها يوماً علامات استفهامٍ كثيرةٍ، وهذا ما يعرفه قلّةٌ قليلة من المقرّبين منها ومن الأستاذ أنور.... لا أحد يشفع لبراءة

الأرنب إن واكب الثعلب في طريق مصادفةً فكيف إذا أحبه؟

الأستاذ ياسين أكثر من حاول إزالة الغشاوة عن عينيها دونما جدوى، وأصدق من واساها ووقف جانبها بعد تركها للعمل في مكتب المحاماة الخاصّ بأنور، وساعدها بالوصول لما هي عليه الآن، لم يؤنّبها كما فعل بقيّة من عرفوا بقصّتها وأوجد لها عذر المغرر به. لعلّه خبر غرور الحب وحماقته من أحد ما أو من نفسه أيّام شبابه، فلم يسنّ لها سكيناً شرقياً بعد وقوعها كأضحيةٍ للحبّ الزّائف، بل مدّ لها يداً من عونٍ وحنانٍ وكان لها سنداً حتى تعافت. قلّةٌ من الرجال الشرقيين من يطبّقون كلامهم واقعاً، ولاسيما في القضايا المتعلّقة بالحبّ، فالمتفلسف الذي يسهب بشرحِ تأويلاتٍ لتصرفات الحبّ، ينقلب شرقياً خاو الرّأس إذا تعلّق الأمر بإخوته أو إحدى بناته. أما الأستاذ ياسين فلقد كان شرقيّاً معتدلاً ينصحها دونما جرحٍ ويسامحها دونما عتاب ويدافع عنها دونما غاية.

رُسمت على محياها أمارات الرضا فشكرته على بادرته الطيبة تجاهها، وكررت امتنانها للمرة الألف لوقوفه الدائم جانبها. وأخبرته أنّها ستحدد يوماً يلتقيان فيه ليتعرفا لبعضٍ من كثب.... انفرجت أسارير الأستاذ ياسين فرشف أول رشفة من القهوة التي ذوي لهاثها الرّقيق وبردت عاتبةً، فأشار الأستاذ ياسين للنّادل أن يبدّلها بأخرى ساخنة.

استنكر الصّديقان إهمالهما للقهوة العزيزة والتي لم تحظَ منهما يوماً إلا بالتّقدير والحبّ الشّغوف، فانقضّا على القهوة الساخنة بشغف محب اعتذاراً عن الإهمال السابق اللا مقصود بأختها السابقة.

انتهى لقاؤهما بنزهةٍ على الرّصيف البحري تمشيا قليلاً، قبل أن يركبا سيارة الأستاذ ياسين الجديدة التي حلّت مكان سيارته القديمة العابقة بذكريات المكتب القديم، ودّعته قبالة مكتبها شاكرةً، وعندما همّت بفتح الباب استطرد الأستاذ ياسين بجملةٍ مباغتةٍ:

- مريم.... دعي الماضي للماضي وانسفِي الماضي السيّء لأجل مستقبلٍ مليءٍ بالسّعادة، لقد أكل الحزن خبزه منّا فلندعه يرحل بسلام

كلامه المبّطن لديه من التّأويلات الكثير، ولعل أبرزها محبّته، فهزّت رأسها مبتسمةً تلوّح بيدها لصديقٍ قديم ٍمخلصٍ نادر الوجود.

دخلت المبنى حيث مكتبها الكائن في الطّابق الثّاني، السّلم عابقٌ برائحة البن وتراتيل الصّوت السّماوي فيروز.

دماغها المشغول بكلمات ياسين الأخيرة تتمرجح في ذهنها بين الحب والحزن، الحب الذي نحس به مجاناً من أحدهم من دون مقابل، والحزن على أيام أنهكناها وأنهكتنا بحبٍ زائفٍ مقابل فتات لحظاتٍ من السّعادة الآسنة، أدارت قفل باب مكتبها وفتحته.... المكتب لا يزال نائماً بستائر منسدلة، سارعت لفتح نوافذ الضوء والهواء كتعبيرٍ ذاتي عن روحها، هي حقاً تريد فتح نوافذ روحها للضوء والهواء، قفصها الصّدري المغلق منذ سنينٍ أصابه الصدأ وقد يتحوّل إلى برادةٍ متهالكةٍ في أيّ لحظةٍ. فإلى متى ستتمنى الحياة وهي على قيدها أو لنقل الحياة على قيد الحب، ألم تلغي مريم حياتها بعد خذلان الحب ذاك؟ أحقاً هي عاجزة عن مواصلة الحياة بعد الخيبة، وهي المحامية المشهورة المحاطة بالاحترام أنىّ

حلّت، ولمَ تتسائل وهي المحاضرة لغيرها حين ينتابها الوجع عن هذيان الشّرق والحبّ والرّجال.

كلّ المحاضرات لم تتعدّ كونها ستاراً تحتجب خلفه ضعيفةٌ واهيةٌ بدمامل متقيّحة، فذات الرخام يوماً نبذها من أحبّته بجنون ونعتها بالقبيحة وابنة السكيروطعنات أخرى لم ولن تقوى على استذكارها لفداحة قسوتها. تلك التي حفرت في روحها عميقاً أضرحة لأحلامها الورديّة.... وقفت أمام النافذة تعبّ الهواء ليساعدها على تنفّس الماضي وأسلمت شعرها لنسيمٍ عابث ٍومخيّلتها لأنور الذي أحبت.... يا لأنور البائس الذي ما عرف من الحب إلا شهوته وعدده، فهذا الرّقم الذي تخطّاه بغروره وهذا الجسد الذي أفناه بغطرسته كان كنزاً ثميناً لقلبه المفلس. كنزٌ وقفت متسوّلةً لأجله تستجدي عاطفةً متنكرةً ورداءً لعري الخجل، وهو القائل بأنّ الرجل تؤخذ مواثيقه بكلامه، فهتك وعده عندما تأجج حبّها شغوفاً برجولته الكاذبة.

ذلك العابث بسنواتٍ ثلاثٍ شغفاً وحباً ومواعيداً وهي المتفانية المحبّة المصدّقة لكلّ ما يقول والمكذّبة لكل ما يقال، الخائفة عليه لا على سمعة ٍ تطالها، ينكرها يوماً ويرميها كمنديلٍ، بصق فيه قشعه الأحمر الملتهب في حاوية نسوته.... دموعها الحارقة اللاهبة ووجهها المصفرّ بالتّرجي والتوسّل لم يشفع لها أمام قبحه، واقفاً أمامها كقبرٍ مفتوحٍ يستجديه قلبٌ نازفٌ

- ألا ابق معي فأنا من تحب ويحبك حدّ الموت.

لم تنكر فقرها يوماً بقدر إنكارها لفقرها آنذاك، فريسةٌ تحاول استعطاف قاتلها تتسوّل شهقاتها الأخيرة لإبقائها حيّة.... نعم تسوّلته فتمنّع عن إعطائها ولو رشفةً من أكسير رضاه الذي

يحييها ويصدّ عنها شبح الموت، فآثر أن يبقى الشّرقي العفن من يبصق على الوردة بعد شمّها وينادي بالفضائل بعد إزهاقها .... إنّه ذكرٌ يدنّس الحياة بأنفاسه فقط، فكيف إذا تصدّر فيها الرتبة والمكانة العالية.

تلك المتسوّلة باعت ما تبقى من عمرها لتستر عيباً خرق ثوبها الأبيض، فأبقتها الحياة على قارعة الطريق تحيك ثقب روحها بخيوط القوّة الواهية المصطنعة، لتغدو كلبوة ٍجريحةٍ تكشر أنيابها لكلّ من يعترض طريقها، كنظرات الشّامتين والمتقوّلين بصيتٍ ذاع رغماً عنها. انكسارها كان أوضح من تجاهله ونكرانه، وحدهم من أحبوها حقاً ساعدوها لتنهض مجدداً ولأجلهم جميعاً نذرت أن تهب قلبها للخواء، فثقتها بنفسها غدت نسياً منسيّاً بائداً تحت ركام الحب الغابر.

رنّ جرس الهاتف فأيقظها من غفوتها المارقة، إنها نجوى على الطرف الآخر من الخط تخبرها بربح القضيّة الأخيرة، وبأن مبلغاً طائلاً سيضاف إلى حسابها البريدي. ابتسمت مريم وهنّأت شريكتها بنجاحها، لقد خذلها كل شيءٍ في حياتها، فقرها، دماملها، حبيبها، أمّا علمها لم يخذلها يوماً هو العكّاز الذي ستتكئ عليه في أيامها، كوديعةٍ مصرفيّة لتقضي أيّامها الأخيرة مع ممرضةٍ ترعاها في دارٍ للعجزة، أو ربّما ستقضيها على البحر مع صيادٍ عجوزٍ يشاطرها الحياة والحب .... كعماد مثلاً

يخفق قلبها مرحباً، لم تلجمه هذه المرّة فالهواء المنفلت من النّافذة جلب لها رائحة البحر كما اشتهتها، وبدون أن تفكّر اتّصلت بالأستاذ ياسين لتخبره بأنّ يوم الخميس القادم يناسب لقاءها مع عماد، فجاءها الجواب الذي تحبّ سماعه من ياسين بعد كلّ

قضيّة ٍناجحةٍ تربحها: «أحسنت يا مريم»

تمخّضت شهورهم اللاّحقة عن انفراجٍ بدا مستحيلاً في وقتٍ ماضٍ، فذات الدمامل وضعت خاتماً في اصبع يدها اليمنى وسط فرحة أمّها التي ضاق بها الكون وأخوتها الذين دعوا البلدة كلها لإحدى المطاعم القريبة ابتهاجاً واحتفاءً بالعروس القادمة. فرح حسن لم يكتمل، فتضمّخ بالألم الذي أخفاه رغماً عنه حين جاءت راما إلى الحفلة تتأبط ذراع طارق، طارق من كان غريمه من دون علمه. يا للحياة حين تكشف عن وجهها الأرعن الغريب، حين تحب الفتاة من ساقها للموت يوماً من دون من التقطها بين ذراعيه ليقيلها منه. بتلك اللحظة تمنّى حسن أن يقف أمامها ليخبرها بما قطعه على نفسه حين كسرت الحياة خاطرها ورجلها، فتعافت لتكسر آماله وقلبه من دون أن تعلم.... وبين أن تعلم ولا تعلم هناك فرقٌ كبيرٌ جداً.

كلّ هذا التمنّي هراءٌ وهباءٌ وأضغاث أحلامٍ. فأمانيه الباقيات نحوها ليست إلا سعادةً تعيشها في كنف من صار صديقه المقرّب. لقد علّمته ذات الدّمامل أن العناء يولّد العناء والحزن المزمن يؤجّل الأفراح القادمة، والحياة قد تطلب منك المساومة والتفاوض ولعل حلاً ديبلوماسياً معها رابحٌ وقتئذٍ لا محالة وها هو أخوهم أحمد خير مثال على تفكيره.

الخراب

منذ أمدٍ بعيدٍ لم يرَحسن في وجه أمه ملامح الرضا الحقيقي، فهوتهم اليوم تنكّهت بالرّضى، واصل حسن النّظر إليها مغتبطاً، إنّها دريّة المنتصرة من كانت ملكةً في عرس ابنتها منذ يومين، عرسٌ فخمٌ ملكي يليق بابنة الباشاوات قديماً، فأخوها ديبلوماسيّ مرموق وأمها دريّة ذائعة الصّيت التي دافعت عن أرضها بحياتها، وزوجها رجل أعمالٍ معروفٍ وفاحش الثراء.... لم يستثني حسن نفسه من القائمة فقد كان أكثرهم حبّاً وفرحاً ومفاخرةً بأخته المنتصرة على هزائم الماضي برمّته، روحها ما عادت تبيت على الطّوى وصيامها صار مقبولاً من السّماء، السّماء التي انتقت من كل الأحياء زوجين ليصعدا السفينة قبل الطوفان، أفلا يجدر بالسّماء ألا تترك قلباً توّاقاً للحياة من دون نبضٍ يؤنسه؟

حسن يراهن عمره بالآمال والنّسيان علّه يأتي اليوم الذي يدير ظهره للحب العابر وينظّف مساحة ذاكرته من فلول الأطياف المارقة ليخطّ تاريخاً جديداً كمريم، فاتحته أمه بقولها:

- عليك أن تنتقي عروساً لك.... سأعدّ لك قائمةً بأسماء أكثر الفتيات حُسناً وأدباً في البلدة

فضحك حسن من كلام أمه التي افترّ ثغرها عن ضحكةٍ مخادعة:

- لا يا أمي، عندما أقرر الزواج سأدعك تختارين العروس بنفسك وسأرضى بها أيّاً كانت ولكن ليس الآن، روحي ما زالت

متعبة ومازال لدي الوقت الكافي لمتابعة الحياة بشكلها المفترض

كلامه أعجب أمه وآلمها في ذات الوقت، فيوماً ما تمنت أن تكون ابنه أخيها إحسان عروسه الموعودة ولكن القدر وضع نقطته في منتصف السطر لا في آخره، وكان للنّصيب قولٌ آخر فتزوجت الفتاة من شابٍ جمعهما الحبّ مصادفة

يرنّ جرس الباب قبل أن يفتح.... الباب موارب قليلاً فوفّر خاله سعيد عليهم عناء النهوض لفتح الباب ودخل فناء البيت الزّاخر بالعطور، سلّم عليهم بحرارة وجلس على كرسيه يقلّب سبحته بين أصابعه قائلاً:

- هل تشاهدون أخبارهذه الأيام على الشّاشات. يجيب حسن بإيماءةٍ من رأسه:

- نعم يا خال

- يا للغباء !أتراهم حقّاً يعرفون ما يفعلون.... أم أنها مجرّد عدوى بغيضة يا حسن

- من الواضح أن ثمّة قهرٌ كامنٌ تحت الرّماد، وإلا لما ذروه في عيون ساستهم ولكن لماذا الآن؟ وأين كانت حريتهم المسلوبة طيلة السنوات المنصرمة؟ هل عرفت الشّعوب فجأةً بحقّها في الحريّة؟! .... هناك أمرٌما، يدٌ خفيةٌ وراء كلّ هذا ونحن نعلم جيداً من وراءه.

يرشف الخال قهوته بتؤدةٍ وهدوءٍ، هازاً رأسه موافقاً لكلام حسن

- والأدهى يا بني أنهم يسمّون خرابهم ربيعاً.... يا لهذا الرّبيع العاقرويا لهذه الحريّة المستوردة

- لقد شبّت النيران في ثلاثة بلدانٍ يا خال، حفظنا الله من

شرورها وإرهاصاتها

- لم نعهد مثل هذا يوماً في بلدنا ولم نعش يوماً إلا أخوةً متحابّين، صحيح أننا عانينا ونعاني فساداً إدارياً وإحكاماً أمنياً منذ عشرات السنين ولكن قلوبنا صافية تماماً إزاء بعضنا - يقاطعه حسن فجأةً

- الفقر يا خال.... سيكون الفقر أول المحاربين في حال حدوث الكارثة

تقاطعه دريّة مستنكرةً، الأمر بيقينها مستحيل الحدوث:

- تفَّ من فمك أيها الشاب.... كفانا الله شرور الخراب

- نعم يا أمي نتمنى ذلك ولكن الحديث يجرّ الحديث، أما الفقر والفساد فهما دعائم الخراب الذي كنت تتحدثين عنه، فإن هبّت رياح الخماسين لذر الرمال في العيون فلن يطيق الفقير جلده على عماه، وسيرضخ تحت تأثير رنين النّقود المستوردة كما حدث في البلدان الأخرى فقاسم تلك البلدان جميعها الفقر والفساد.

وافقه الخال على مضضٍ فالواقع الضّنك مازال تحت رحمة بعض المتنفذين وشعاراتٍ براقةٍ ليس لها من المصداقيّة سوى الهتاف.

- عندنا انتماء يا ولدي وأبناؤنا ليسوا ولم يكونوا يوماً خونة يقولها الخال بثقةٍ متناهيةٍ:

- نأمل ذلك يا خال، حفظ الله هذا البلد من كلّ شر

ينهي الخال القهوة ليسأل سؤالاً مناقضاً لسيرة الخراب، سؤالٌ عن حال العروس المسافرة لقضاء شهر عسلها الذي تأجّل طويلاً، شرد حسن في صورةٍ لمريم علقت في ذهنه فوراً بفستان زفافها الأبيض مستذكراً آخر اتصالٍ لهما قبل يومين حين اتصل

بها اشتياقاً، صوتها المرفرف كعصفورٍ مغرّدٍ لاقى ربيعه بعد فراقٍ طويلٍ

- الفقريا أخي ليس ألا تحب، بل ألا تكون حبيباً لأحد يا أخي.... اجتز ما أنت فيه فالقادم ربّما أجمل يا حسن

فيجيبه حسن بتحيّاتها لهم من قلبها المفعم بعطور جنّتها التي تتبرعم فيها أزاهير ربيعها القادم.

نعيق الغراب والخراب كان حديث الناس وخبرهم اليومي ولسان حالهم المتلعثم بالخوف، حمّى الحريّة التي تنتشر كوباءٍ بين الشّعوب العربيّة ووجهها الدموي الغاضب النّاقم فجأةً على حكامٍ هتفوا لهم طويلاً وأحيوا لهم ذكرهم ومجّدوهم، بل وكانوا رموزاً يتباركون ويتقلّدون بهم، فهل كانوا يوماً قطعاناً ضالةً أو خرساء جمرها متّقد تحت الرّماد ينتظر إشارة بدء؟ أم أن الغباء أيضاً في مشرقنا فنٌّ من فنون التّقليد؟ بدعتنا الأخيرة كانت في تقليدنا الأعمى للغرب، والمرّة الأولى التي حاولنا فيها تقليد بعضنا قلّدنا الغباء الصّرف والسؤال هنا يطرح نفسه، هل احتاج العرب لغرابٍ ليدلهم على ربيعهم؟ ألم يعلمهم مثلهم منذ بداية تاريخهم بأن الغراب دليل خراب؟ أهذا المأفون الذي أزهق نفسه كفراً وإلحاداً يُمجّد كشهيدٍ لحريةٍ مسلوبةٍ ليغدو مثلاً لحريّة العرب جميعاً، أم هو اصطفاف القطيع المتلاصق فإن ترنّح أحدهم وقع على الآخر؟

حتّى الغراب هذه المرّة مستوردٌ ولغباءٍ متأصّلٍ فينا صدّقناه، وما كان الانفجار سوى قنبلةٍ مزروعةٍ عمداً بأيدٍ خارجيةٍ عابثة، صافحت وما زالت تصافح العدو للآن. ثوراتٌ مجازيّة برايات سود متاجرين بالدين الإسلامي الذي بريء منهم ومن فعلتهم

الإجرامية بقطع الرّؤوس ونحر الأعناق وإقامة الخلافة. شيّء مثيرٌ للدّهشة والعجب، النقيض يطالب بنقيضه، وحدهم الغافلون من صدّقوا ويصدقون للآن وحصل المحظور فعلاً.

مدّ الغدر أولى يديه ليلوّث الهواء، سنة من الترّقب وراء الشّاشات لم تكن كفيلةّ بإقناع الناس أنّ بلدهم في خطرٍ داهمٍ، فالأمن ثقافةٌ متوارثةٌ على هذه الأرض إلا أنّ مآذن الجمعة كانت ترسل في الجو آلاف التكبيرات المخفيّة المبطّنة تجوب الشّوارع مهللةً لقادمٍ أعظم.... قلوبٌ واجمةٌ خائفةٌ تتمرس خلف الشّاشات، والتّرقب سيّد الموقف يسدل ستائره على البطاح، شيُء جديدُ لم نعهده من قبل ووجوه بملامح جديدةٍ هي نفسها من تقاسمنا معها هماً وفقراً سنواتٍ خلت والآن تهذي بعيونٍ دمويةٍ ترشق سكاكينها أينما وقع بصرها.

لم تعد دريّة تستشف صباحها برائحة الياسمين، صارت نهاراتها تبدأ وتنتهي أمام التلفزيون، لتفرض على أبنائها إقامةً قسريةً في بيوتهم أيام الجمعة، اتّصالات قبل النوم وبعده، وخصوصا لأحمد الذي يسكن العاصمة فعطانة الهواء تؤذيه أكثر من غيره. حيث تقيم درية وأبناؤها هناك في الغرب يتكفّل الهواء القادم من البحر بطرد الهواء المسموم وشجر السنديان يعتقل موجاته الغاضبة فيروّضها ويشذّبها لتعود حمائم وادعةً.

كلّ النّفوس مزدحمةٌ بالخوف الذي يُسوّق على الشّاشات المدججة سماً وحقداً وتحريضاً، كان يغشي الأرواح بغلالات الزّقوم كل الإشارات والتحليلات والبرامج السياسية لم تستطع إخماد فورة غضبٍ موجهةَ لانتقام أخ من أخيه وقريبٍ من قريبه.

كان أحمد من السياسيين الذين ظهروا على إحدى المحطات

ليخبر الغاضبين بأن الفقر حالةٌ طارئةٌ إذا امتلك الإنسان العزيمة والإرادة، هو كاذبٌ لا محالة، هو يعلم تماماً أنّ عزيمته كانت تحظى بدعم العميد جابر ولولاه لما صار وجهاً إعلامياً على الشّاشات، والكذب الأبيض مباحٌ في السياسة إلا أنّ كذبته كانت أقلّ بكثيرٍ من كذبة من يحاول تهدئتهم بالفوضى، فمطالبهم لا تُحل بالخراب وهدر الدّماء واستحضار الغريب ليبيح ويسبي ويقتل. في ساعة الغفلة يضمحّل العقل لتعلن الغريزة الرّعناء نزعتها المجنونة، فكيف إذا اعتمرت تلك النّزعة رؤوس القتلة.

قال حسن مرة لأمه إنه حزين من أجل الله فأثار دهشتها:

- حزينٌ من أجل الله يا ولدي.... هذا كفرٌ يا حسن

- حزينٌ لأنّه لا يستحق ما نفعله، أنّ نخرّب باسمه أو أن نجعله دريئةً لنطلق عليها سهام الآخرين، المساجد حزينةٌ يا أمي، ليسوا بمصلّين يا درية

استطاعت الأم على بساطتها أن تفهم ما يدور في خلد ولدها

- نعم حزنه وجهٌ آخرٌ للخجل، حريٌّ بنا أن نخجل من الله في كلّ الآثام التي نرتكبها باسمه.

لم تكتمل فرحة الولد الأول لمريم بسبب إحدى أفعال الشّغب التي انتهت بإطلاق نارٍ على جنودٍ عزّلٍ مما أدّى لاستشهادهم، رائحة الدّم تخمّرت في الهواء.... الدّم المراق كان صافرة إنذارٍ للغول المتعسّف الممول من أخوة يوسف، فصار الهواء محمّلاً برائحة الدّم والبارود وفتاوى تهب الجنان بقتلٍ ونهبٍ واستباحة عرض.

إبراهيم المثل القديم الجديد للخذلان والغدر هو من جعل درية وأولادها يصدّقون جنون ما يحدث، فلم يكن إبراهيم

استثناءً كما ظنوا جميعاً، أمثاله كثرٌ ممن يتنكرون للدّم واللحم والمنطق المسؤول، أو حتّى لأوطانهم.

وتوالت الشّهور بانفلاتٍ متزايدٍ وجنونٍ يتعاظم غروراً وصفاقةً إعلاميةً، شيءٌ جديدٌ محيّرٌ لشعبٍ اعتاد لسنين طوال أن يحارب الفقر وحده، فوجد نفسه على القارعة عينها يحارب شياطيناً هائجةً آتيةً من خليجٍ ومأفونٍ وشذّاذ آفاقٍ باعوا عقولهم وضمائرهم مقابل حفنةٍ من المال الأخضر ووعداً مزعوماً بجنان خالدة

- هي سكرةٌ ممتدةٌ زمناً طويلاً

تقولها دريّة وهي تهدهد ابن مريم الذي حمل اسم خاله حسن، محاولة إلهائه عن غياب أمّه في عملها وتردف:

- لقد تأخّرت أختك ما كان عليها وزجها الذهاب للعاصمة ألم تسمع بحوادث الخطف على الطّرقات العّامة، قطّاع طرقٍ يتحدّون نظاماً كاملاً .... أيعقل؟

يجد حسن نفسه مضطراً لطمأنتها:

- هوني عليك يا أمّاه، لم يدركها الوقت بعد. اتصلت بهما منذ قليل سيصلان قريباً يا أمي

تحاول دريّة إظهار علامات القناعة على وجهها بينما هزاتها للصّغير تثبت العكس، بدت كرقّاص ساعةٍ لا يعرف الهدوء يعيّر وقتاً خارج الزمن، الزّمن لا يدخل في ترقيم السّاعات لحظات الخوف، يدور في نظامٍ ذاتيٍ بطيءٍ فتطول اللحظات المرعبة على الرغم من قصرها أحياناً.

تستمر نشرة الأخبار بسرد الغرائب كلّ الوقائع تشير إلى هولٍ قادمٍ مريع، لقد كشف الغراب عن وجهه أخيراً.

- أليس من الأفضل أن ينتقل أحمد وزوجته وأولاده إلى هنا، لا أمان في العاصمة، هنا الوضع أفضل بكثير

تسكت قليلاً لتعود لاستكمال الحديث الذي رتبته في حينه:

- سنشتري له بيتاً سأكلمه اليوم يا حسن ما رأيك؟

- لا تتوقعي ذلك يا أمي فوضع ولدك حسّاسٌ جداً ومكانه آمن فما من داعٍ للخوف

تعاود درّية ذات الحديث:

- لا أمان حيث أحمد ألم تسمع من يطالبون الدّول باستجرار الحشود العسكرية لاحتلال أرضنا سيقصفون العاصمة أولاً

- ألم تري القاعدة البحرية البارحة يا أمي والبوارج والغواصات الضّخمة.... كل يتسوّل حسب رؤيته يا أمي

- يتسوّل؟ ما قصدك يا ولدي؟

- في الحروب الأهلّية يخسر الجميع، ومن أشعل هذه الحرب يعرف أبعادها جيداً لن تبقي على أحد، خرابنا هو ربيع المستعمرين الجدد يا أمي. أرضنا فيها من الكنوز ما نعجز عن عدّها والتي اُحتجزت لأسبابٍ قد لا نعي خلفياتها، فالفساد حجبنا لزمنٍ طويلٍ عن الرّؤية الواضحة والفقر جعل جلّ طموحاتها بتأمين لقمة العيش.... وبما أن الخسارة في هذه الحرب للجميع، سيعمد كلا الطرفين على ترجيح كفّته ليجد نفسه على باب الصديق طالباً العون، وأحسب أن أصدقاءنا الأوفياء لن يخذلونا يوماً كما خذلنا من شاركونا الوطن؟

- ولماذا يا حسن؟

- لأن الصديق هنا صديق مصلحة ومصلحته في بقائنا، فهو مستفيدٌ إن بقينا ببقائه أما من خذلونا فلديهم من الفقر الكثير

فكراً ومالاً وشرفاً أيضاً، ألم تسمعي عمّن يهبون بناتهم للإرهابيين الجدد؟! فوالله ما أحسبه عاش شريفاً قبل هذا يوماً واحداً.

يصمت لحظة ليضيف أمام أمّه التي تواترت هزّاتها للصّغير بشكلٍ أقلّ حدةً:

- قبل هذه الأيام كنت لأحلف غير حانثٍ بيميني أن ما أراه اليوم مستحيل الحدوث، وبما أنه حاصلٌ فعلاً، علينا ألا نقف مكتوفي الأيدي لنبقى كمن يتسوّل وطنه.... انظري يا أمي.

مشيراً بإصبعه لأحد الملثمين المتسللين في أحد الشوارع ليطلق رصاصه على أحد رجال الأمن.

- علينا أن نضع لهم حدا هناك وإلا سنجدهم هنا لا محالة، فالصّديق الآن متفرّجٌ يستعرض عضلاته وعلينا أن نقصّ جانح العنقاء قبل أن تطير علَّ الخراب يغدو أقل بشاعةً.

يقاطع حديثه جرس الهاتف يرفع حسن السّماعة بهدوءٍ لتتبدل صفحة وجهه ويعقد حاجبيه بإعياء «لا حول ولا قوة إلا بالله» مطلقاً بعدها زفرةً بثّت الجزع في صدر أمه

- ماذا هناك يا حسن أختك مريم من اتصلت؟

- ما بك يا أمي؟ مريم لن تخابرنا على الهاتف الأرضي.... إنه أبو صالح لقد خطفوا ابنه الأصغر نبيل واتصل خاطفوه مختالين شامتين مهددين يريدون ابتزازه بالمال وإلا أرسلوه له مفصول الرأس.

- ماذا تقول يا حسن؟

لم تستطع درية إكمال عباراتها كلّها، علق الكلام في حلقها جففه الرّعب والأسى، وتهاطلت من عينيها غمائم مؤجّلة صافحها برد الألم فسقطت على خدّيها لاهبةً حارقةً لتضيف قبل أن تعود

لهدهدة متسارعةٍ للطّفل النّائم.

- اتصل بأختك فوراً يا حسن.... من أجلي يا ولدي.

لم تكن حادثة الخطف تلك سوى بدايةً لسلسلةٍ من الخراب والدمار المتلاحق، فتاةٌ جامعيّةٌ تختطف خارج حرمها الجامي من قبل مجهولين ليجدوا جثّتها مضمّخةً بآثار التّعذيب والاغتصاب في إحدى المزارع القريبة من العاصمة، وموظّفُ بإحدى الشّركات التّابعة للقطاع العامّ ممن توظفوا في العاصمة فاستقرّوا فيها قرب أعمالهم خُطف أثناء عودته بطريقه المعتاد، والأدهى أن خاطفه كان جاره الذي اكتشف فجأة أنّه كافرٌ مذنبٌ كونه موظّفٌ عند الدّولة ذاتها التي عمل فيها جاره قبل التأزّم النّفسي الحاصل له.

كيف لجارٍ عاشره لعقدٍ من الزّمن أن يئد الخبز والملح والجيرة في قبرٍ أباحه له مفتي اللحى في جامع ذلك الحي، فأرداه قتيلاً ودفنه من دون أن يغمض له جفن.

وآخرون ممن خطفوا من قبل جماعاتٍ احترفت الهتاف المنادي بالحريّة بداية الحال، ثم انتقلت لإطلاق الرصاص وحمل السلاح كما هو مخطط لها سلفاً.

لا تزال البلدة تلهج على الرغم من كثرة الشّهداء فيها من جنود قُتلوا في معارك مواجهةٍ، أو بعد تعذيبٍ وخطفٍ، بجنازة تلك الفتاة التي قُتلت بعد اغتصابها ثم رميت في حاوية للقمامة بأحد شوارع مدينةٍ وسط البلاد، رفضت أمّها تقبّل العزاء بابنتها إلا بعد القصاص والثّأر لصبيةٍ ربيعها يساوي ربيع العرب بأكمله، صبية لم تؤذ حرية أحدهم ولا تقضي على خلافة أميرٍ منذ آلاف السنين ولم تعط يوماً صكّ استحقاقٍ لمسؤولٍ أو وزيرٍ.

تحوّلت الجنازة إلى مسيرةٍ حاشدةٍ جابت البلدة تحت هتافات أهل الشّهيدة للانتقام والثأر. لقد بلغ البغي الزبا وعلى من تساوره الرّيبة بالالتحاق بصفوف المقاتلين، أن ينهض قبل أن يفتتح أمير الحريّة غزواته بنسائنا .... كم من يزيد دخل البلاد؟ آلافٌ مؤلّفةٌ تهذي بالمال والجنس تحت شعار الحريّة الموعودة، والتي سرعان ما تحوّلت نجومها الملعونة إلى راياتٍ سودٍ كوجوههم وقلوبهم، لقد حلّت اللعنة، ولا دافع لها سوى الله واليقين ومن عرف حقاً أن كلمة لاجئٍ وسمة عارٍ على جبينه، فإما أن يدافع عن أرضه ويبقى أو أن يموت بكرامةٍ وشرفٍ وحسبه شهيداً عند الله، أمّا البلاد، فللقدير وحده تؤول الأمور.

في كلّ مدينةٍ وبلدةٍ وقريةٍ بيوتٌ ثكلى، الفصول اتشحت بسوادٍ يلفّ الأجساد والمآقي لم تعد هناك أفراحٌ أو زغاريدُ، خطوات الحياة تأجّلت، وقفت في مكانها بانتظار المجهول.... المجهول الفاغر الفاه الذي لا يُعرف قراره ولا أين منتهاه، حلّت رائحة الموت والبخور مكان القهوة والياسمين صباحاً، أمّا فيروز فما فتئت تغنّي للرّاحلين «وينن» وما من عائدٍ إلا وزُفّ كناجٍ من بطن الموت، ومن لم يعد بقي أهله على قيد انتظار أبدي أمام الشّاشات أو في مراكز التبّادل بين الأطراف المتناحرة.

وطنٌ يُنهش من الغريب بمساعدة ابنه الضّال وأخوته يسنّون السّكاكين واحداً تلو الآخر، حيتانه وطواويسه التي سفّت كنوزه وغبّت أكسجينه في جيوبها ليختنق الناس. زماناً قديماً شمّعوا خيطهم للهرب بعد أن حوّلوا بطونهم لحوالاتٍ مصرفيةٍ في دولٍ أوروبية تساهم في قتل بني جلدتهم، بعضهم هرب للخارج وراء أمواله ومنهم من نزح بعيداً عن النزاع ليعيد التّوزيع الجغرافي

للمال لفترةٍ وجيزةٍ.

أغلب النّاس تعطّلت مصالحهم وأشغالهم، وبعضهم نام ليله غنياً ليجد نفسه يبيت على الطوى ليله الآخر، بعضهم تسوّل عند نزوحه وبعضهم عاد موفور النّعم من أرباب الحروب، أمّا الفقير في حرب شعواء كهذه فنوعان، أحدهم ازداد فقراً فلم يجد ما يسدّ به رمقه فانخرط في الحرب ليؤمن كفاف عائلته، والآخر فقير أيضاً على طرف آخر من النّزاع اسُتغّل فقره لتجييشه ودسّه طُعماً في حرب بالوكالة كمرتزقٍ أجير، يقاتل أخيه على أرضه لصالح عدوه.

«قاتل الله الفقر ما أقبحه !» تقولها دريّة بمضاضةٍ وهي تتفرّج مع حسن على موقوفٍ بأعمال الشّغب الأخيرة، يشرح للمذيعة دوافعه لحمل السّلاح في وجه الدولة التي رعته زمناً طويلاً. فكان لحسن جوابٌ جاهزٌ يقوله لأمّه تعقيباً على قبح الفقير والفقر:

- هذا فقير الكرامة والشرّف يا أمّاه.... لقد كنا فقراء بل ومتسوّلين في زمنٍ ما، ولكننا لم نعلن يوماً فقرنا لكرامةٍ أو شرفٍ. لقد ربيتنا من دون أب كنّا عرضةً أكثر من غيرنا للانحراف والعبث، الفقر كان زينةً لالتزامنا بمبادئ لم نتنازل عنها يوماً، فأحمد يساعد الفقراء نكاية بفقره القديم، ومريم ترافعت عشرات المرّات عن فقراء بأجورٍ زهيدة، وأنا لم أترك فقيراً أعرفه إلا وساعدته. علينا أن نميّز ذاك الفقر الذي يهبط بصاحبه إلى الدّرك الأسفل من الذّل ولو كان غنياً فاحش الثروة إنه فقر الضّمير، وهناك فرقٌ بين فقرٍ وفقر.

عادت اختلافات حسن فعرفت الأم أنه يدبّر أمراً ما في رأسه، جعلت تكيل اللعنات في سرّها لهذه الأزمة التي أجّلت تفكيره

بالزواج، فمنذ اندلاعها تأجّلت الحياة برمتها بما فيها زواج حسن وكلما واتتها الجرأة لتفاتحه بالموضوع استشاط غاضباً ليقول:

- ألا ترين الموت يا أمي، كيف سأتزوّج في زمنٍ لا أضمن بقائي حياً فيه لأربّي أولادي.... عليَّ بالتروي لعلّ هناك انقشاعاً قريباً لهذه الغمّة.

وماكانت هذه الغمّة لتنقشع بل ازدادت كثافةً وقتامةً، ابن مريم كان عزاءهم الوحيد في جوّ التّوتر ذاك، ودائماً يذكرهم بحكايات خاله في صغره. لديه من خاله خصالٌ كثيرةٌ تدفع أباه المهندس عماد للمزاح مع زوجته التي يحب بأنّها لا تحبّه قدر محبّته لها فجاء صغيرهم يشابه خاله كثيراً.

حسن يمازحهم بأن يقول:

- سيرث هذا الصّبي أملاكي كلها سأوصي له بها، أرى هذه الحرب لا نهائيّة وأعزف عن الزواج حتّى تحطّ أوزارها.

تستطرد أخته لتردف بقولها بأنّ الحرب لا محالة منتهيةٌ يوماً ما فيجاوبها جواباً أفزعهم كثيراً حين قاله:

- أراها بلا نهاية فهذا الشّر مستطيرٌ للأبد.

تتململ أمّه في لجّة قلقٍ مفاجئ فيلقي رأسه في كتفها مداعباً:

- لا عليك يا درية ستنتقين عروساً لي يوماً ما .... أعدك بذلك.

بين مزاحه وجدّه تنطوي حقيقةٌ برمّتها، فبعين المتبصّر العارف بالمصالح الاستراتيجية وبالحقد الدفين قد تبدو هذه الحرب لا نهائية وبعين اليقين المؤمن بإرادةٍ إلهيةٍ فوق كل الموازين والقوى فإنّ الغد لناظره قريبٌ وقريبٌ جداً.

في دكّان الحديد، أصوات الطّرق والقصّ تطغى على ضجيج أفكار حسن، أفكاره المتناحرة عقدت اتفاقاً ودياً فيما بينها، إلا

أنّ تواتر حديثها لم ينخفض، قلبه المستكين القابع بين أضلاعه مرغماً بعد زواج راما وطارق وجد عزاءً افتراضيّاً أمام أحلام النّاس المتحطّمة، فما ضير قلبٍ كسيُر حبٍ في جسد مازال بتمامه أمام من فُطر قلبه بأبٍ أو بابنٍ أو أخ أو جريحٍ مبتور الأطراف جرّاء انفجار عبوةٍ ناسفة بإحدى الحواجز العسكرية.

غدا الألم شيئاً اعتيادياً وصار السواد تقليداً يومياً حياتياً، كما البخور الذي صار أريج المواسم كلها. العطر الفاخر الذي تشرع له الصدور بأنّةٍ وغصّةٍ لتشهق بعضاً من قداسة القابعين تحت التّراب بانتظار حشرٍ يعيد للحق نصابه، لم يعد الرّجاء معقوداً على من في الأرض بل على سماءٍ لا يُشكّ بعدالتها وإن طال الجزع من عفتها حيناً فخدش ظفر المعاناة صفحة طهرها الأزلي.

القادم أعظم إن لم يُردع، فهل سنبقى متسوّلين أمام العتبات الدّولية في محافلها الافتراضية التي لا تعدو كونها واجهةً إعلاميّة لتخدير وطمأنة الشّعوب الضّعيفة بأن هناك ثمة مجالس وهيئات تطالب بحقوقهم في الأرض؟

«لا يفك الحديد إلا الحديد» .... أتراه اتّخذ قراره اليقيني قريباً؟

لن يخذل يقينه ويتوارى مثل كثيرين، لن يتسّول وطنه من أحد، لن يعود متسوّلاً ثانيةً مهما كلّفه الأمر ولو كلّفه حياةً وحلماً.

على الرّغم من منصبه الحسّاس بأهميّته وخطورته، إلا أنّ أحمد كان مكوكاً لا يهدأ في عدّة سفاراتٍ ومحافل سياسية وإعلاميةٍ، ولعب وجوده في بعض التجمّعات والمسيرات التي احتشدت بداية الخوف في تهدئة النّفوس.

دريّة تثق بأحمد على الرغم من خوفها الشّديد عليه فمثله

عرضة للاغتيال والخطف، الذي أصبح روتيناً وعادةً دارجةً تلك الفترة.... الرّعب من الاختطاف وما بعده فرض حظراً لتجوالٍ ذاتيٍ عند النّاس ولاسيما في المدن المنقسمة على بعضها. الخوف والحذر كانا البطانة الدّاخلية لجلود الناس في سنين العنف الأولى، حتّى تعوّد الناس على نمطٍ جديدٍ للحياة كوضع حواجزَ بين الحارات والأزقّة وعلى الطرقات العّامة لتبقى السلامة على طرقات السّفر رهناً للنّصيب، وتبعاً لتموضع قناصٍ ما قد يفاجئك على كرسي السفر بطلقةٍ تخترق رأسك، أو بمداهمة عصابةٍ بثلاث نجماتٍ على تقدم الجيش النّظامي في مكان ما بأن توقف حافلة لتُذلّ من فيها كائناً من كان كنوعٍ من الانتقام والتشفّي.

كان أحمد يطمئن أمه دائماً بمقولته الفضلى:

- لا راد لقضاء الله يا أمي ولم أكن يوماً خائفاً ولن أخذل وطني في محنته من أجل شيءٍ والاتكال على الله.

بعض الأشياء تحدث مصادفةً ولكنها مدبّرةٌ بإرادةٍ خفيّةٍ، فما كان حسن يبيته في طويتّه لرغبته بالالتحاق بصفوف المقاتلين على الجبهات السّاخنة لردع الغول الهائج أتى الأمركيما ليخفف عنه وطأة بوحه الثّقيل أمام أمّه، لم يشُقَّ عليه في تبعات قراره سوى حال أمّه المتوثّبة النّبض قلقاً عليه وهوالماثل قربها، والجزعة حتّى العظم لحال أحمد.... اخترع آلاف السرديّات لمصارحتها دونما جدوى فلا فائدة من مخاطبة قلب أمٍّ خائفٍ لإقناعه بأنّ الخوف أمرٌ افتراضيٌ في واقعٍ أشبه بتجميعٍ ضخمٍ لقبائل متناحرة.... صعُبت عليه حجّته حتّى جاءه أحد الموظفين الحكوميين من شعبة التّجنيد الخاصّة بهم ليسلّمه بطاقة الالتحاق بالخدمة الاحتياطية، قرأها جيداً وهو ينظر خلسةً إلى

والد راما الواقف قبالته تتنازعه ملامح الحزن.... كلٌّ رأى البرقيّة من حيثه.... والد من أحبّها وجدها إخطاراً لمشوار الحياة المؤجّلة والأخطار المحدقة، بينما حسن رآها منجاة ؚمن سردياتٍ عسيرة الولادة أمام أمّه وإشارة ما عليه تلبيتها.

إشارات السّماء محكمة النّفوذ، للسّماء فلسفتها أيضاً ولعلّ ما نحمله في نفوسنا من حكمةٍ ليس إلا شذراتٍ من انشطارات حكمة سماواتٍ سبع في هذا الكون العصي على الإدراك.

لم تقو دريّة على الرّد، تقمّص وجهها ملامح باهتة نفرت الألوان من وجنتيها، ذبل محيّاها وارتدى قبّعة الخريف، ريحٌ ساديّة خرّبته فأودت بخمائله، لقد حلّ الخراب بوجه أمّه أما جسدها المتسمّر مكانه، الجامد إلا من ورقة الدعوة تقلّبها لا إرادياً، له شبهة الغياب.... دقّات قلبها تُسمع على الرغم من خفوتها، وريدها الوداجي ينقر بحدّةٍ وكأن عصفوراً محتجراً تحت وعائه يطالب بحرية ؚمن نوعٍ خاصٍ. جسدٌ مركّبٌ تائهٌ في تركيبه، رأسٌ ينهشه الحريق وجسدٌ يأكله الجليد والروح هائمةٌ في ملكوتٍ لطيفٍ تسابق أطياف الماضي لالتقاط الفتات، فتات اللحظات التي ضمّته إلى حضنها طويلاً تغنّي له:

- يا حسن يا قرّة عيني يا فرحة عمري يا حسن.

إعياءٌ تسلل إلى روحه بغتةً، لم تراوده نوازعه يوماً ولكنّ ملامح أمّه صبّت جاماً مثلّجاً فوق رأسه، لن يقوى على كسر قلبها ولن يبقى متفرجاً على الخراب يمدّ أذرعاً عبثية ستطالهم يوماً.... أسند رأسه إلى كتفها كما يفعل لطمأنتها دوماً ليهمس لها في أذنها الفارغة إلا من طنين من سبقوه ولم يعودوا:

- سأكون بخير يا أمي أعاهدك على ذلك.... ادعِ لي فدعاؤك

لن يرد.

تلقّف يدها بيديه القاسيتين ودنى منها مقبلاً مسترضياً بينما كانت غائبةً في صلاةٍ غريبة «إني أتسوّله منك يا الله»

ليأتيها صوتٌ مبهمٌ مما وراء القلب كنداءٍ خفيٍ للروح:

- ألم تعيدي عقد حبله السري ذلك اليوم؟

همت دمعةٌ مالحة على خدها مسحها حسن بظاهر كفّه، لتلف حوله حبلها السرّي في عناقٍ يختصر معنى الحياة الأجمل والأبقى منذ بداية الخليقة.... هو مربوط بحبلها منذ قررت وحيدةً إنجابه بعد حملٍ أُريد له الوأد والنّزيف، من وقتها لم ينفصل عنها يوماً واحداً ولهذا كانت روحها تتحيّز له أحياناً من دون أخوته لأنّه صنوها في إرادة الحياة وصنيعة أملها في حياةٍ قادمةٍ، هو جلّ إيمانها بأنّ الفقر مهما امتدّ ذراعه في حوالك الأيام ومهما اعتصر بطوناً وكمم نشيجاً فلن يقتل روحاً أراد الله لها البقاء .... إيمان درية أنقذها من غياهب الحاجة وبراثن الحرمان ولهذا فستودعه لله الذي وهبه من قبل بنفس الإيمان وبذات الطويّة والقرار.

يهتز جيب حسن، هاتفه الجوال يظهر رقم مريم على شاشته فيجيب متلهفاً كالعادة يعتريه ذهولٌ مريعٌ أثار فضول والدته، لم يطل حديثهما، أنهى الاتصال الغريب بعد دقائق قليلة، وقبل أن تعاتبه دريّة على إغفال رغبتها في الحديث مع ابنتها يبادر بقولٍ غريبٍ:

- ابنتك مريم طردت زوجك من مكتبها.... أقصد طليقك.... لقد حضر إلى مكتبها بعد سماعه بشهرتها لتساعده في قضيّةٍ ما تخصّ أحد أصدقائه هنا، والذي ألقي القبض عليه بعمليّة تهريب فطردته.... رجل الضّفادع يحترف التّهريب وأي تهريب؟! الله

وحده أعلم.

- هل ضفدعته الجديدة من الشمال يا حسن؟!

كان ردها بارداً يتكشّف بابتسامةٍ من تحت خيام الحزن أجابها بهمهمةٍ فرحة:

- رجل الضفادع هذا لن يستطيع أحدٌ تعداد ضفادعه.... لربما كانت نزوةً ضفدعيّةً ليس إلا.

انفجرا ضاحكين ليهجّ الغّم مطروداً من الغرفة.... لن يهزمهما أحد ولن تلوي الأحزان قلباً فطرته الحياة على الأمل، فها هي مريم الرخامية تنتصر أخيراً على كارهها الأول فظفرت بانتقامٍ مشرّفٍ منه، إنّها العدالة المستحقّة التي تأتي دائماً في آوانٍ وزمانٍ مناسبين تماماً.

باركته وقبّلته قبل نومه كعادتها في صغره، حبلها السرّي استطال حتّى وصل سريرها المحشو بالأماني والأحلام العتيقة، وقع نبضها على الوسادة قبل رأسها لشدّة إعيائه، مريم تناظرها من خلف إغفاءتها تكشّ عنها وطاويط الظّنون، تبسّمت شفتاها قبل النوم سعادةً بنصرٍ آخر وتفويضاً لقدير السّماء صاحب الأمر والإرادة بما يملكه.

حقيبةٌ كبيرةٌ تشبه حقائب أحمد أيّام خدمته الإلزاميّة، حقائب حسن السّابقة كانت أصغر وأرحم، الحقائب الكبيرة تشي بغيابٍ طويلٍ وشاق.

شهرٌ مضى رغماً عنها حاولت إبطاءه أو إيقافه من دون جدوى، كلُّ ما حاولت حشوه في شهرٍ زمنيٍ من أحداثٍ وولائم وسهراتٍ برائحة الدّراق سيغدو وسادةً لنومها منذ اليوم، تواسيها مريم لتنفض عنها هواجس الانتحاب:

- ليس راحلاً لآخر العالم يا أمي .... هذا واجبٌ ورفاقه كثرٌ.... سيعود قريباً.

على مقربةٍ منها ما زال حسن يوضّب قميصه أمام المرآة في المدخل العابق بضحكاتٍ شبيهةٍ لضحكاته صغيراً. لا وقت الآن لاستحضار الذّكريات فحاجتها الآن إليه حاضرة الكينونة بقامته الطّويلة الجميلة وعوده المفتول الذي قارع الحياة فبطحها أرضاً وطوّعها كما الحديد الذي يصوغه كما يحب على الرغم من قساوته. جفّت التّوصيات جميعها لتجد نفسها أمام صمتٍ قسريٍ، جميع الكلمات انحشرت في زاوية الأضلع المرتابة. خائفة من نزاعٍ وشيك الحدوث. بين نبضٍ صارخٍ نابٍ وسكون يقينٍ مزعوم، ما من أبجديةٍ تتدخّل في صراعٍ نازفٍ كهذا ستُنعت بالحمق. عليها الانتظار لما بعد اللحظة الأولى للابتعاد لتنسج من نشيجها ملاءات دعاءٍ وتوسّلٍ للخطوات الكثيرة القادمة.

لم يحتج الأمر لأكثر من نظرةٍ واحدةٍ لتنهمل آلاف جرار الملح دفعةً واحدةً دونما وعي. العيون لها استقلالية عن الجسد متّصلةٌ بالروح وروحها المنزوية خلف متاريس قيافة الأم الواثقة الموقنة تهوي من رشقة جفنه. إنه حسن الأميري الذي لن تنجبه السنون مرة أخرى، نبضها الخفي وسرّ قوّتها وسعادتها. ضمّته طويلاً، ودّت لو تخبّئه في أضلعها غافياً ليبقى حبيس كونها كعهده صغيراً ولكنه عهد النور ولا حياة لمن ينامون. باركته بأقدس الأدعية وقبّلته مراراً كزائر مقام وتشهّدت وسلّمته وديعةً لمن وهبها إياه قرّة عينٍ وفرحة عمرٍ ووجه قمر.

سالت دموعه عنوةً عنه خاف أن تحرق قلبها المنفطر الكليم فنفر من حضنها كعصفورٍ باغته صيادٌ قريب. توقّف وسط

الفناء لكفكفتها حيث تقف مريم وزوجها يحمل شبيهه، أفرغ دمعةً أخرى على كتف أخته التي أرسلت زفرةً مثقلةً ببخار الخوف لتخبره عيناها أن دموعها المنسكبة طيلة عمر الدّمامل لا تعادل قساوة دمعتين مذبوحتين على فراقه، ودّع زوجها المحب وحمل الصّبي معه حتى وصل باب الفناء لثمة كنحلةٍ جائعةٍ على خدوده المتورّدة وملأ منها رياحيناً تكفيه لردع الهواء الآسن الذي يترقّبه بمدى طريقه، أعطاه لوالديه وأوصاهما خيراً بدريّة التي لاح طيفها من بعيد واقفاً يلوّح له بأغنياتٍ قديمةٍ سترنّ في مسامعه كأجراس عودةٍ طيلة غيابه

الطريق طويلٌ للعاصمة ومليءٌ بالمطبّات الآدميّة، تفتيشٌ روتيني عند كل حاجز لهوياتٍ شخصيةٍ قد لا تمتّ لأصحابها حين سفرهم بشيءٍ من الملامح. السّفر مشوبٌ بالقلق والخوف فألسنة النّاس ما فتئت تلهج بذكر عصابات قطّاع الطّريق التي تكررت حوادث سلبها للحافلات وقتل ركّابها وفقاً لهوياتهم.

أصبح القتل مغروراً حسب الإفتاءات الأخيرة فالقتل من نصيب طائفةٍ بعينها من دون غيرها، أما السّلب والخطف والإهانة من نصيب الطّوائف الأخرى، الحافلة التي أقلّته من الغرب باتّجاه العاصمة يُحكم عليها تبعاً لأعراف العصابات بالموت نصفهم في الأقل ممن استلموا البطاقات للخدمة الاحتياطّية كحسن إلا أنه كان محسوداً من قبل الجميع لأنه الوحيد الذي لديه أخاً ديبلوماسياً سيقرّب خدمته أقرب ما يكون شطره، الناس تحكم بظواهر الأمور فهم لم يعرفوا أن حسن اتخذ قراره بالالتحاق بالخدمة من دون دعوة وأن الدّعوة كانت بمثابة منجاةٍ له وذريعةً أمام هوس أمّه الخائفة من الحرب، فلن يجلس في مكتبٍ

لإحصاء عدد الجرحى أو المفقودين والشّهداء، بل سيحمل سلاحه كأي شابٍ معه في هذه الحافلة. فقراء الوطن وعزوته في كربه، خذلهم وطنهم طويلاً فلم يخذلوه، وعدهم سنيناً فما انتظروا وعوده ولكنهم يفون بوعود خلقهم الأول، يهبون لنجدته من دون الالتفاف لمن سافر أو تخاذل أو هرب وانشق. لم يسألوه يوماً لم جاعت بطونهم وموائد الوطن متخمةٌ لكبار البطون الجشعين السّارقين لخيراتها وهوائها. ألم يجبرهم ضيق الهواء على الرّحيل زماناً طويلاً.

لم يطل انتظاره طويلاً في مكتب أحمد على الرغم من الهرج والمرج بتلك الوزارة ذاك اليوم. تقول المذيعة على شاشة التلفزيون أن هناك ثمة تدخلاً كونياً لإنهاء الصّراع الدّموي الدّائر في هذه البلاد، صفاقة البعض مذهلة .... بعض الناس أو الدول يحاولون الظهور بمظهر الذّكي الفاهم لبواطن الأمور وظاهرها محاولاً استغباءك. المزعج هنا ليس في ضربةٍ محتملةٍ مهما كثُر التّهليل والتّرويج لها مؤخراً على بعض الفضائيات المأجورة بل في أسلوبٍ فظٍّ وقحٍ يُشعرك بأنّه من المستحيل التّوصل لحلٍّ للنّزاع، فكيف لدولٍ تدعم الإرهاب وتموّله مجيّشةً أحقاداً قديمةً لمآرب استراتيجية أن تأتي للتّدخل رحمةً بالناس من صراع الأخوة؟ أليسوا هم سبب نزاع الأخوة؟! ألم يعش الأخوة زمناً طويلاً بمحبة ووئامٍ؟ يا للوقاحة المفرطة.

حتّى فلسفة حسن لا تتحمّل وقاحةً مفبركة بهذا الشّكل، وثب عن كرسيه ليتجوّل في أرجاء البهو.... ثمة صراخٌ وعويلٌ آتٍ من الشّارع، هرع كغيره ممن سمعوا ذاك الزّعيق، النّاس المجتمعة تحجب الرؤية عنه فدسّ نفسه بين الحشود مبعداً بيديه من

أمامه ليصل.

كان موظفاً من السّفارة نفسها خُطف قبل عدّة أيّامٍ أثناء عودته إلى منزله مضرّجاً بدمائه يفترش الأرض التي تخضّبت بحمرته.... لقد رموه هنا بعد قتله ليثير الرّعب فيمن بقوا.... غايتهم أن يدّب الرعب فيهم فيرحلوا كغيرهم. انحنى حسن فوقه قبل أن يفرض رجال الشرطة طوقاً أمنياً حوله وعاهده أمام وجه الله أن ينتقم له يوماً. انفضّ الناس وعاد حسن وصورة ذاك الشّاب مطبوعة كخلفيةٍ على جدار رأسه:

- يجب أن نضع حداً لطغيانهم، لقد بلغوا من السّفاهة ما لا يطاق. سأنتقم يا وطني سننتقم.

وافاه أحمد عند الباب تحفّه حراسة:

- ما بك يا حبيبي حمداً لله على سلامتك.

عانقه وشدّه إلى صدره:

- لا تقلق يا أحمد.... أنا بخير، هرعنا لنشاهد الأخبار على الحقيقة لا كما يصورونها للخارج.

ابتسم أحمد وهو يضيف:

- لقد أصبح بلدنا سوقاً لنخاسة الإعلام.... تصوّر حتّى بمجلس الأمن! أخبرني عن دريّة ومريم والصغير حسن.... أخبار البلدة كلها.

فتح الباب ودخل حسن إلى ردهة أحمد الواسعة. شعر بفخرٍ كبيرٍ، ودَّ لو يضم أحمد بعناقٍ أبديٍ، أحمد درّة دريّة الفقيرة يلمع وسط المحافل محلياً ودولياً.

رمقه حسن بنظرة امتنانٍ فيما أحمد يطلب قهوةً لكليهما.... استغرق الأمر دقائق معدودة قبل أن تباغته لحظات خوفٍ خبيث

- هذه الدّرة يفتتن بها اللصوص حماك الله يا أحمد.
وكأنّ أحمد سمع ما يدور في خلد أخيه:
- لا تقلق يا أخي الأعمار بيد الله ولن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا.... لندخل في المهم لقد تكلّمت مع قائد القطعة العسكرية التي ستلتحق بها، لقد تغير فرزك سأبقيك عندي في الوزارة ريثما تنقشع هذه الغمّة، قد تضطر أحياناً لمناوباتٍ ليليةٍ ولكن لن تكون كثيرةً، هذا عدا أنّي سأكسبك عندي في البيت فغيابكم وابتعادي هنا أرهقني كثيراً.
كلام أحمد متوقعٌ من أخ محبٍ لأخيه وقراره ببقاء حسن عنده بديهي جداً في نجيع الحرب ذاك.... الموت ينادي الأحياء من كل صوب ولو كان لأحمد القدرة على حجب كفّ الموت عن حسن لما وفّر جهداً، وربما لو كان حسن مكانه لتصرف ذا الأمر.
لا يعلم أحمد بوعود حسن الكثيرة لشهداءٍ لم يرهم توشحوا بأعلام الوطن ،ولرجلٍ لم يعرفه وجده منكلاً به مسجّى بدمائه في يوم رحيله الأول عن أمّه وداره.... لن يقف مكتوف اليدين، لديه التزام أمام الله ووطنه، فاجأ أحمد بقنبلةٍ صوتيةٍ:
- أريد الالتحاق بالقطعة العسكرية ولا تسألني لمَ... هناك فلسفة أنت تعرفها مثلي جيداً ربما هي فلسفة الاختلاف والفروقات عينها، ما الفرق بين المتفرّج على الخراب ومن يدعمه؟ هل من المصيب انتظار قدرةٍ سماويةٍ لإنهائه؟ لن يختلف كثيراً المتخاذلون والراحلون في هذه المهزلة الحاصلة عمّن أتى ليصنع حريةً دمويةً. كلّهم شركاء بالمجزرة وكلّهم ستحاكمهم مقصلة الله والتّاريخ. لن أكون ابناً لإبراهيم في هذا، أنا ابن دريّة من قارعت حربها زمناً طويلاً، لن يضيع تسوّلها يوماً أمام عتبات النّاس

لتصنع لنا مستقبلاً أفنبيع هذا المستقبل لنقف متسوّلين عمرنا وأرضنا وشرفنا؟

وشت له ظنونه بعدم قدرته لردّه عن مسعاه ويقينه بعد حديثه المفعم بحكمةٍ يؤمن بها أحمد سلفاً يتّفق مع المنطق والسّياسة...سيعوّل أحمد على إيمان دريّة بولديها حين يخبرها بأن ابنها الأصغر التحق بقطعته العسكريّة، قلبها سيهيج ويحتجّ ألماً ستلومه حتماً ولكنها أدرى الناس بابنها وستلتمس لأخيه العذر

- أخي سألبي لك طلبك فأنا أعرفك جيداً لن تتنازل عن قضيّتك وأنت المحارب العتيق، ولكن ستقبل مني أمراً واحداً من أجل دريّة بأن تلتحق بقطعةٍ مغايرةٍ بعيدةٍ عن المواجهات السّاخنة ومناطةٌ بعمليات تسلل واستكشاف. لا شيء هنا بعيد عن الخطر، الحذرهناك صاحب السلطة، اقبل يا أخي قد ينفطر قلب أمك حقاً.

الأمور بخواتيمها هذا ما قاله حسن ملبياً طلب أخيه الذي زفر بارتياح كثبان الهموم التي تراكمت فوق صدره من قرار أخيه المفاجئ، أو لنقل لم يكن أحمد متفاجئاً بحسن فهو أكثرهم خبرةً بالفقر والحياة، وفلسفته نتاج طبيعيٌ لخبرةٍ مصقولةٍ مبكراً. لقد كان أوفرهم حظاً بالشّقاء وعندما واتته رياح النعيم جاءته الأعاصير لتفسد عليه رخاءه المؤقت، بيته الذي اشتراه من دون أن يقطنه ودّكانه الذي اكتسب شهرةً قياسيةً بزمنٍ قصيرٍ تركه أثناء غيابه لوالد من أحب ولم تحبه.

- إرهاصات الحياة ثقيلة الوطأة على صدرهذا الشّاب المفعم بالحكمة.

قالها أحمد بثقة تامّة بأن أخيه سيتخطاها كلّها فزنداه

المفتولان البارزان تحت السّترة القطنية تخبرانه أن القساوة تصنع الرجال.

تكلمه السكرتيرة من الخارج عبر هاتفٍ داخليٍ يكبس على زر تشغيل التلفزيون على الفور. محطةٌ فضائيةٌ شقيقةٌ شقيّةٌ تصوّر الحادث الذي شهده حسن بأم عينه على أنّه موظف أدرك فداحة المجازر المرتكبة من النّظام الحاكم فانشقّ عنه. فقُتل أمام مكان عمله ليكون عبرةً لغيره من الموظفين. حقاً إن لم تستحِ فافعل ما شئت.

القطعة العسكرية التي فُرز لها حسن تقع على تخوم منطقة تماسٍ مع جماعات مسلّحةٍ متطرّفة ٍاحتلّت مساحاتٍ واسعةٍ من الأراضي المتاخمة للغرب حيث يقطن حسن وذويه. المنطقةُ هادئةٌ منذ زمنٍ إلا من اشتباكاتٍ داميةٍ بين فترةٍ وأخرى كنوعٍ من التّرويع للأهالي في تلك البلدات. فتهجع تلك الجماعات زمناً طويلاً لتباغتهم على حين غفلةٍ بهجومٍ ضارٍ تجتاح فيه بلداتٍ عدّةً قتلاً و ذبحاً وتهجيراً فتعمد تلك القطعة على صدّ الهجمات ودحرهم على أعقابهم ليعودوا القهقرى إلى أماكن تجمعاتهم الملعونة. حواجزٌ وتفتيشٌ وتشديدٌ أمنيٌ على السيّارات والحافلات القادمة لتلك المناطق من مناطق أخرى ساخنة لم تمنع من حدوث بعض التّفجيرات لبعض الحواجز أودت بحياة الكثير من الجنود والمتطوّعين من أبناء تلك البلدات.

الهواء هنا مشوبٌ بالحذروالليل أفعى ضخمة حاضرة اللسع بأيةِ لحظة. قصصٌ ورواياتٌ تقطر حروفها مرارةً سمعها حسن من بعض رفقائه في الثّكنة التي فُرز إليها. تلك الثّكنة كانت أبعد نقاط المواجهة وأكثرها أمناً. غصّ حسن بريقه حين سمع هذا

الكلام فلا أحد يعلم بسريرته على أصلها.

أمضى ليلته الأولى بالاستماع لحكايات الرّعب بتلك المناطق ليتّصل بدريّة وأخته وأخيه قبل نومه علّهم ينامون ليلتهم بسلام

نهاراتٌ متشابهةٌ يعيشها الجنود وأهل القرية القريبة من الثّكنة. نهاراتٌ فضيّةٌ مشوبةٌ بأزيز رصاصاتٍ لاهبةٍ بعيدةٍ، وأحياناً قريبة لحدّ تخمين مكان حدوثها. الأخطار بعيدةٌ بشكل ٍعامٍّ فللاجتياح يحتاج المارقون لأكثر من يومين للوصول، وستكون الوفود البشريّة النّازحة من تلك المناطق أولى علامات الفاجعة، وأولى إشارات التجهّز والاستعداد. لا شيء يثير قلقاً في هوائهم اليومي.... ليلهم يفرش حواجزه على قارعة الطريق، عمليات تدقيقٍ وتفتيشٍ دقيقةٍ على الطّريق الوحيد الذي يصل تلك الجماعات بمموليها من شمال لبنان باستثناء طريقٍ آخر يعبر المناطق السّاخنة من الشّمال وهو الأقلّ عبوراً من المهربين لوعورته.

مضى شهران ولم تتبد أيّة إشارةٍ لعملية تهريبٍ لتلك المناطق، كان الليل يعجّ بأزيز الرّصاص البعيد وصدى خفيفاً لبعض الانفجارات في العمق يناوش في عقولهم خوفاً من الحاضر والمستقبل واشتياقاً غريزياً للماضي.

استهلك حسن لياليه القانعات بهدوءٍ نسبيٍ بفردٍ وتمشيطٍ لذكريات حياته منذ الطفولة، استرجعها واحدةً تلو الأخرى كمؤلّفٍ يريد استحضار أفكاره ليرتّبها في كتابٍ موحدٍ، لعلّها تصبح سرديةً سهلة الفهم والتّذكر، ربط الفقر برجله المكسورة وغربته وراما ورغبته الأخيرة في حمل السّلاح دفاعاً عن وطنه، ليجد فيها مسبباتٍ لما آل عليه حاله باستثناء دريّة وأبيه فدريّة سبب حياته

عينها حين قررت أن تلده رغماً عن والده من أراد موته قبل ولادة.

الأبوّة لا تليق بالذّكور، رجل الضّفادع ذكرٌ شرقيٌ متغطرسٌ رؤيته لا تتجاوز أنفه لا يرى في مرآة الحياة سوى انعكاسه الذي يتجلّى له منتفخاً على أية صفحةٍ مرئيّةٍ، حتّى تضيق به فيبدّلها وهذا ما يفسر تنقّلاته الكثيرة في بلدٍ يتيح له حريته المزعومة وانفكاكه وخلاصه من التزامات الأبوّة المفترضة.

يتذكّر حسن فجأة اتصّال أخته معهم يوم طردت أباها من المكتب حين قصدها طالباً مساعدتها بقضيّة تخصّ أحد أصدقائه الخارجين عن القانون قبض عليه مع زمرةٍ من المهرّبين المتورّطين بسفك الدّماء على هذه الأرض، ورغم إنكاره أيّة صلة له مع هذه الجماعات إلا أن مريم تحاشت تصديقه وطردته من دون أسفٍ أو ترددٍ من مكتبها.... غمغم حسن في سرّه:

- جابهنا الفقر فغلبناه وواجهنا الإرث العائلي فعدّلناه من التسوّل لنصير وجهاءَ يُشار لنا بالبنان، ولكن ما الذي سيغسل عاراً كهذا إن ثبت ارتكابه، إنّها وصمةٌ أبديةٌ ووسم خزيٍ يطأطئ الرّأس مدى الحياة لأجيالٍ متلاحقة، ما من عيب في الفقر، العيب في قلّة الشّرف غنيّاً كنت أم فقيراً، على النّاس تصحيح أمثالهم ومفاهيمهم عن الشّرف هنا في الشّرق والذي ينحصر بكونه مقياساً لعذرية مفترضة. الشرف فكرٌ وفعلٌ قبل الأجساد وخلقها وأبوهم لم يكن شريفاً أبداً بفكره أو بجسده.

وبعد ترتيبٍ وتمحيصٍ لسالف الأيام بحلوها ومرّها يصل حسن لقناعةٍ بفداحة الحياة دونما التّسليم لقضاء الله، وكم سنبدو كاذبين واهمين لأنفسنا أولاً من دون الناس عندما نصرّ على نحت الأيام على مقاساتنا، وصبغ أحلامنا وفق أهوائنا،

لتأتينا الأقدار كما تشاء لا كما رسمناها.

الموت هنا يقبع فوق التلال منتظراً ضحاياه العجولة كل يوم، كرّوفرٌّ هناك خلف التّلال الصغيرة وما يفصلهم عن حياض الموت سوى بضعة كيلومترات لا أكثر، جسده معلق هنا في الثكنة كإطار صورةٍ قديمة ٍ، أما عقله فهناك يتسلل في عمق الظلام ويعبر متاريس ودُشم المسلّحين، قبل نومه كلّ ليلةٍ يلقي عليهم قنبلةً تفتتهم أشلاء مبعثرة، لكم يتمنى أن يلقيها فعلاً لكن حُقَّ عليه الانتظار.

اتّصالات حسن اليوميّة مع أمّه لم تكن كافية ٍ لتهدئة قلبها فتلحّ بسؤاله عن إجازته الأولى، وعده أحمد أنّه سيكلّم قائد الكتيبة هناك ليرسله إجازةً قصيرة، تململ حسن من كلام أخيه على الرغم من إذعانه له، فهو يكره أيّ تمييز يفضّله عن غيره ولو كان سيرسله إلى أمه التي يحب ويشتاق لرؤيتها حدّ الفصام. يحدّق في وجوه رفاقه الملفوحة بزمنٍ مغبرٍّ قطف ألوان شبابهم مبكراً، فيهزون رؤوسهم بفرحٍ غريبٍ إنّهم فرحون لإجازته؟! يا لهذا الكرم والقناعة التي تسكنهم، فحتّى الغيرة تلاشت عند أرواح سخطت عليها الحياة فأهانتها بابتسامة، إنه التّسليم والتّفويض الذي تمخضت عنه فلسفة حسن ليلة أمس، هنا تبتلع النّفس حسراتها بعنفوانٍ لترسم ضحكةً قاهرةً لكل ما هو دنيءٌ في هذه الدنيا.

قرر حسن في طويته أن يكلّم أخاه بعد عودته من الإجازة لإرسالهم لأهلهم واحداً تلو الآخر، وقبل أن يحزم حقيبته صباحاً وعدهم بما عقد عليه العزم فعانقوه تباعاً متمنين له رحلةً طيبةً.

طريق عودته الطّويل ترك له مجالاً لحبك حبل أكاذيبه التي

سيقولها لأمه، وجبة الغداء اللذيذة البديلة عن ثلاث حبّات البطاطا، ونومٌ هانئٌ مكتظٌّ بالأحلام بدلاً عن ليل التّفتيش المدلهم والهدوء العابق بزقزقة العصافير. برطم لنفسهِ في الحافلة التي أقلته عن الطّريق العام بأنّ كلامه هذا يشبه أحلامه الورديّة الطّائرة فوق الغمام في طفولته، وعليه أن يؤلّف كذبه بشكلٍ تتلقّفه أمّه بدون ريبة، وإلا فإنّها ستمطره بوابلٍ من الأسئلة عديمة الشّفقة والتي لا أجوبةً شافيةً لها، فقرر أن يخبرها الصّدق مهما كانت تبعات قساوته.

اشترى لأمّه بعض الكنافة التي تحب من المدينة المتاخمة للقرية قبل أن يستقل سيارته ليوافي أمّه وأخته اللتان تنتظرانه بفارغ الصّبر.... راودته شبهات حنينٍ لراما فتقصّد مروره بدكّانه قبل الذّهاب للبلدة ليلقي التّحية على والدها والعمّال.

حنينه بعد زواج من أحبّ لم يتعدّ في أوجه أصول اللياقة فصاروجه والدها بديلاً عنها.

ركب سيارته وانطلق باسطاً السّهول الملتوية كأفعوانٍ نائمٍ، الوقت قارب على العشاء وجوعه تعاظم لينال منه مقتلاً، جائعٌ للعظم، جوعه سيعطّل صيرورة كلماته فلن يتفوّه لدريّة بكلمةٍ واحدةٍ إلا بعد أن يملأ بطنه وبعدها سيفضي ما في جعبته بمعدةٍ ممتلئةٍ وفكرٍ متّقدٍ

- لله درّهم من أبطالٍ كيف يقاتلون بتلك البسالة ببطونٍ خاوية.

دخل الفناء بجوعه المشابه لجوع من يحارب وطاويط الليل بنفس اللحظة ليحسم أمراً كان يبيته في شهوره المنصرمة التي قضاها بعيداً:

- سأحارب.... سأذهب إليهم.

دريّة تختزل السّماء بوجهها، نجمتان دريّتان ومساءٌ اكتسى ضياءً بمنديلٍ أبيض يرمي نفسه في حضنها مقبلاً وجنتيها وجبينها اللألاء

- لقد صرت نورانيةً يا دريّة. يقولها بلهفة اشتياق

- يا لك من حبيبٍ مشاكسٍ ويا لي من مشتاقة!

كما في كلّ إجازةٍ يقضيها حسن في البيت، تنهمك دريّة بكلّ أشيائه القديمة فتعيدها لواجهة الحاضر، أكلاته التي يحبّها، صوره القديمة، ذكريات طفولته كلّها تصرّفاته الطفوليّة يوم ذهابه الأول للمدرسة، مروراً بحادثة ولادته الميسّرة في ذاك الليل الشتائي الدافئ.

- لولا هذه الحرب لكانت كبرى مشاكلنا في هذه الحياة هي خيباتنا العاطفية.

قالها حسن وتبادلوا ضحكاتهم على صدى أغنيةٍ جديدةٍ أتقنها ابن مريم، التي أتت لرؤية أخيها الحبيب متحلّقين حول فناجين القهوة في صباحٍ جاءه مطرٌ حبيسٌ فبلل وجهه ولبّده بالغمام

- لعلّ هذا الشّتاء سيكون رحيماً يا ولدي.

قالتها دريّة بصوتٍ مفعمٍ بالرّجاء:

- لا تخافي عليَّ يا أمي فالبرد لا يهزم الرجال.

- ما الذي يهزم الرجال يا حسن؟

- الخيانة يا أمي.... أيّاً كانت.

قرب ثكنتهم البعيدة عن خط التّماس المباشر غدير ماءٍ عذب الهسيس، نقيق ضفادع بركته كانت الشيء الأكثر إثارةً للجلبة في لياليهم الصامتة إلا من عويل مدفعٍ أو فحيح رصاصٍ أرعنٍ، لم

تعد أصوات الحرب غريبةً عن طقوس الليل لقد صارت جزءاً من قميصه الأسود بكلّ ما يعنيه سواده. بدأت النّاس بالتّأقلم مع ثقافة الخوف والموت، تغلغلت في أوردتهم حتّى غدت نسغاً اعتيادياً وما أصعب الحياة حين تتأقلم مع آلامها الصّارخة، أهل القرى المجاورة يحتفون بهم أثناء مرورهم لأغراضٍ استكشافية في حقولهم وبساتينهم، يهرعون لسؤالهم عن أيّ أمرٍ يحتاجونه وبعض النّسوة يقمن بشكلٍ متقطعٍ بطبخ «القمحيّة» الشهيرة في تلك القرى، لتكون حصّتهم دائماً من رأس القدر كما يقال كمثلٍ عندهم.

طفلةٌ في الثانية عشرة تذهب مع جديّها لجلب الحطب من الحرج القريب، فتجلب لهم بعض الأزهار في ضمّةٍ صغيرةٍ مزركشةٍ. كأحلامها المرفرفة فوق جبينها كفراشٍ ملونٍ. بمرور الزمن صارت تعرف أسماءهم واحداً واحداً، كما تعرّفوا إليها عن قربٍ حين سرد الجدّ لهم حكاية والدها الذي ذهب ليبيع محصول البطاطا في إحدى المدن الدّاخلية التي اعتاد أن يسوّق محصوله فيها، فذهب ولم يعد منذ ذاك الوقت، ورغم اتّصالاتهم وتحرّياتهم عنه مع جهاتٍ معنيّةٍ بهذه الأمور في الدّولة، لم يتوصل لأي معلومةٍ تفيد في الأقلّ بقاءه على قيد الحياة وعندما تمنّى أحدهم بأن يكون حيّاً يرزق غصّ الوالد بقهره وسالت من عينه دمعةٌ كاويةٌ:

- الموت أرحم من الوقوع بين أيدي أولئك الكفرة يا ولدي .... إنهم يتفننون بأنواع العذاب والتّنكيل، لربما كان موته أهون من بقائه تحت رحمة ذلّهم وهوانه أمام نفسه.

رجعت ذاكرة حسن إلى تلك الصّبية التي أُختطفت من قريتهم ليجدوها في كيسٍ للقمامة جانب حاويةٍ في إحدى شوارع

العاصمة.

لعلّ ما يقوله هذا الأب المكسور الخاطر المهيض الجناح فيه من العدالة والأسى ما فيه «رحماك يا الله» في بلدٍ أصبح يستسيغ الموت عمّا سواه مخافة الوقوع في براثن الظّلم، ألم يكفيهم الفقر والعجز السّابق في ظلّ حكوماتٍ بلغ فيها الفساد مبلغه، فكانت جوازات السّفر الأمل الوحيد الباقي في فسحة الوطن الضيّقة.... لن تنفع الحسرات أمام دمعةٍ تختصر مراراً تاريخياً تنهمر عبثياً من عين رجلٍ فقد فلذة كبده من دون أي ذنبٍ اقترفه. قصّة الفتاة، لجين، قلّبت عليهم المواجع، فأمضوا ليلهم ذاك في سرد حكاياتهم المنسوجة بالخيبة والفقر والحب كان حسن أوفرهم مالاً وحظّاً بأخيه أحمد الديبلوماسي المعروف، يتملّكهم العجب بادئ الأمر من وجوده بينهم فأولاد الأغنياء لا يفرزون إلى خطوط المواجهة، وازدادوا حيرةً ودهشةً حين أخبرهم برفضه البقاء عند أخيه في العاصمة ليلتحق هنا في الوحدات المحاربة وبأمانيه بالانخراط في قتالٍ حقيقيٍ مع تلك الجماعات المأفونة، ليوفي النذور التي قطعها بالانتقام لكل شهيدٍ قضى في هذه الحرب. وأسرَّ لهم أنّ هذه الدريئة التي يتدرّب عليها يتخيّلها كأحد هؤلاء الوحوش فيئزّها دونما هوادةٍ أو رحمةٍ.... مازحه رفيقه سامر وكان أكثرهم تشاؤماً:

- لم أجد مثلك من يسعى إلى الموت بقدميه.... ولم أخبر قبلاً متنعّماً بعزّيعاف عزّه من أجل حربٍ قد لا تعنيه.

- ومن قال بأنّي ابن عز.... ومن قال إن هذه الحرب لا تعنيني فلو كانت كذلك

لبقيت في العاصمة أو لهربت مثل الكثيرين.

وجد حسن نفسه يقصّ عليهم معاناته مع الفقر منذ طفولته، وجلّ المآسي التي أحرقت أحلامه لتذريها رماداً في الفضاء، كان أميناً في حكايته تلك ولكنه تعمّد إغفال أمرٍ وحيدٍ «أبوه إبراهيم» شعر بالخجل من عار أبيه، في منطقته الجميع يعرفون سيرة والده القميئة فيجد نفسه متجاوزاً هذه العقدة تلقائياً، فاضطر لإخفائها أمام الغرباء إكراماً لأخيه أحمد صاحب السّيرة العطرة ولكيلا تزيد شهرة أبيه العفنة، اضطرّ لتزيف القصّة على أمل أن يسامحه التّاريخ على تزييفه هذا، فادعى وفاة والده وهو ما يزال صغيراً، تأثّر الشّبان بقصّته وامطروا السّماء رحمةً لوالده، كانت رحمتهم تلك موجعةٌ ولكنها أهون بكثير من رذاذ البصاق الذي سيناله في حال أخبرهم بالحقيقة الكاملة.... أتراهم من زيّفوا التّاريخ خافوا من بصاق الأجيال التي ستقرؤه فزيّنوه لنترحم ولو كذباً على أبطال الورق الوهميين؟

أحجيةٌ محيّرةٌ والأجوبة في ذمّة من كتب وأرّخ، وقبل اتّهامه علينا التماس بعض عذرٍ له، فلربّما نالته البصاقة حين كتب فوجد نفسه يزيّف تفادياً لبصاقةٍ أخرى.

رجل الضفادع كما تسمّيه أمّه لا يستحق وجوده التّأريخ بأيّ شكلٍ كان، هو سبّةٌ على الرّجال والآباء ولديه كلّ الحقّ في تفادي البصاق... على الرغم من أنّها أصابته في موقعٍ ما.

زادت الأيام من تقرّب الجنود لبعضهم فصاروا يشتاقون إن غاب أحدهم، فسامر أكثرهم مزاحاً وطرافةً وبسّام أكثرهم غضباً، ووسام أعظمهم أحلاماً والتي لا تتعدّى بيتاً وفتاةً أحبّها ولو تساءلنا فرضاً لم كان أعظمهم أحلاماً؟ فلأنّ البقيّة ألغوا أحلامهم منذ التحاقهم بالخدمة، فبيارق الموت القريبة وهطل

الشّهداء المتزايد شرَّب أحلامهم بالأحمر القاني، فلبثوا على أعتاب المجهول بأمنياتٍ حمراء داميةٍ على شبابٍ مسلوبٍ وأحلامٍ قتيلةٍ.

أما حسن فيقينه أكبر من حلمه، لقد عزم على مواجهة التتار برغبته الشّخصية ولقضيّةٍ جوهريّةٍ تتعلّق بوجود الوطن وكرامته التي تستباح علناً ظلماً وغدراً وبمساعدة من نصرناه يوماً ما. هذا المجون المضرّج بالحقد الأعمى يجب إيقافه وبأي ثمنٍ ولو كان عمراً أو حتّى أجيالاً.

برودة الليل تتفتق عنها الأحزان وينضح منها الحنين، وبين كل سيارةٍ مارقةٍ وأخرى على ذلك الحاجز ينفلت الحنين الجاثم على قارعة الطّريق، ليلتهم ويفرغ ما في جعبته من زفراتٍ تبدد الأنسام الباردة

- سيسقط الثلج هذه الأمسية. يقولها سامر بحفاوةٍ
- أتحبّه يا سامر. جاوبه حسن
- نعم أحبّه، ولكننا سنضطرّ للاتّصال بإحدى البلديات القريبة لإرسال الكاسحات لإزالة الثّلج المتراكم عن الطّريق.... سيكون الثلج استراحةً إجباريةً محببةً لنا، فلا سياراتٌ مارقة ولا تفتيشٌ في ليلٍ أهوج، سنقضي ليلتنا في الثكنة قرب الحطب المشتعل.

يقطع حديث سامر رنين هاتف حسن، تظهر شاشته اسم أخيه الحبيب، فيستغرب لاتّصاله مرةً أخرى بعد مكالمته المعتادة معه صباحاً فعساه خيراً، ردّ عليه حسن بلهفة «أهلا أخي الحبيب» وقبل أن يتم كلامه يجيب أحمد «سلمى» ويسكت.

يسود الصمت فسلمى عنصرٌ غائب من معادلة أحمد الحياتية منذ زواجه بمنى، حتّى أنه لم يتطرّق لذكرها يوماً بعد خذلانه لها

وزواجهما كلّ من آخر، يتجرأ أحمد لينهي الصمت المفاجئ

- لقد خطفت سلمى يا حسن، خطفها مسلّحون متاخمون لمناطقهم ويطالبون بفديةٍ كبيرةٍ أو يقتلونها.... جلّ خوفي أن يلحقوا بها الأذى والإهانة.

يتلجج صوته ويتبعثر تحت وطأة الصّراخ المكتوم داخل صدره:

- كيف عرفت يا أحمد وأنتما منفصلان عن بعضكما منذ زمنٍ طويلٍ؟

- لقد خابرتني أختها يا حسن.... أخذت رقمي من أحد أصدقائي القدامى من بقيت على اتّصالٍ معهم بعد انتقالي من الجامعة للعاصمة. اتّصلت البارحة من رقم جوالٍ غريبٍ لتخبرني بالهول الذي أخبرتك به.

يسود الصّمت من جديدٍ ويسكت أحمد مرغماً تحت لهاث كلامه، وحده أنينه من يصل على الرغم من بعد المسافات، والهواء يحمل لحسن نسيس احتراقٍ على الرغم من تجمّده .... يا لأحمد المسكين!

من حسبناه صلداً كصوّانٍ ويكيّف قلبه وأهواءه وفقاً لعقله يتهدّل صوته كانفراط رعشٍ حجريٍ همي عليه مطرٌ غريبٌ أليم ففكك سبحته.

لم يعرف حسن بم يجيب أخاه فالواضح أن اتّصاله هو احتياجٌ للبوح وللشّكوى من ثقل الألم الذي جمّد صوته، لقد خُطف قلبه ذات مساءٍ من دون إذنٍ منه، على غفلةٍ من وعيه، أترانا أحياناً نحيا على وقع أنفاس أحبّتنا من دون درايةٍ مُدركة، ويكفينا من الحياة أن نبقى في حياتهم جيران سفرٍ وليلٍ ونهارٍ وفصولٍ متعاقبةٍ، أتراه أيضاً يعيش بأنفاس راما من دون أن

يشعر؟!

- كيف أساعدك يا أحمد؟

- ليتك تستطيع.... أخبرت أختها أنّي سأدفع الفدية لإطلاق سراحها مهما بلغت، على الرغم من أن اتّصالها كان لمساعدتهم في العثور عليها، وإجبار الخاطفين أو التفاوض معهم على إطلاق سراحها، ولكنّي سأختصر الألم كله وسأدفع الفدية، لن أدعها تتعرض للإهانة أبداً.

قالها أحمد بكلماتٍ مشرّبة بمرارةٍ واضحةٍ ليصمت بعدها ليلفظ أوجاعه:

- لم أقوَ على احتمال المأساة وحدي، أردت من يشاركني آلام ليلتي هذه ولم أجد غيرك لأُرخي أثقالي أمامه، فأنت خير من يشاطرني ما أنا فيه فجرحنا في الحياة متشابه.

قالها أحمد بإشارةٍ مبطّنةٍ لخيبات الحب في حياتهما.

- لا عليك يا أحمد أنا أثق بتصرفك الحكيم وعقلك الراجح، وبإذن الله ستعود سلمى لزوجها وأولادها سالمةً من دون أن يمسّها سوءٌ، اتّكل على الله وأنقذها يا أحمد.

لن يطرق أحمد باب المفاوضات مع الخاطفين سيدفع أي ثمن مقابل إطلاق سراحها، محاولاً تقليص وقتها العابق برائحة الخزي ما أمكنه، ولكم يتمنّى أن يلفّها ثوب الخفاء ليحجب نواظرهم القبيحة عنها.

أحمد لن ينام ليلته هذه كحسن الذي يستشعر من برودة الثّلج القادم شيئاً غريباً.

صدى الرّصاص البعيد بات أكثر قرباً، ودوي المدافع الغاضبة تعيث فساداً في الهواء فتنشره تموّجات برائحة البارود، أتراهم

يخططون لاجتياحٍ ما للقرى القريبة منهم مستغلين احتمال تساقط الثلج المؤكد حسب التنبؤات الجوية؟ أم أنّه احتدام حقيقيٌ بين الطّرفين ؟.... أن يكون بينهم أعظم أمانيه الآن، أن يكون على حاجزٍ لتفتيش السّيارات المارقة يضني روحه التي يناديها ذاك المكان، حيث يقبع الأشرار في جحورهم، هم من يريد قتالهم إكراماً لوطنه ولمن قطع لهم وعداً بالثأر، ولأجل أمه وأخته وراما وسلمى ولجين الصغيرة، ولكل من طالته يد الحرب غدراً بدون أي ذنبٍ، لهم ثأرٌ في رقابنا وإلا فما فائدة حربنا نحن بعيداً عن المصالح السّياسية للأقانيم المتصارعة.

عندما تصبح الأرض بأهلها وناسها وأشجارها وأزاهيرها مسرحاً لحرب المصالح وللنّزاعات التي تدور رحاها من أجل حصّةٍ في كعكة غنائم، سيغدو كلّ من على تلك الأرض جريشاً لهذه الرحى من دون ذنبٍ ارتكبه، ومضطرٌ لدفع الفاتورة كاملةً طحناً تحت رحاها. وعليه يتوجّب على النّاجين من طاحونة الموت هذه أن يثأروا لمن راحوا ولو قبل طحنهم، المنطق والفلسفة يقولان هذا.

في الحرب وعند غياب القانون لا فرق بين المذنب وغيره، وفي حربنا هذه الجميع مناطٌ به دفع الفاتورة. أفكار حسن كطيورٍ حائمة، والغريب أنّ فلسفة الاختلاف فارقته منذ التحاقه بخدمته الاحتياطيّة. في هذا الجو المشحون بالضّباب والملبّد بتعاريجٍ كملامح الموت القابع وراء التّخوم القريبة، حيث الرصاص يئزّ هجوع الليل ويدفّئ صقيعه، لا سلطان فوق سلطان الموت، فإن بسط كفّه فلن يفرّق بين جبهات القتال ليقبض أرواح من يتقاتلون وإن اختلفت توجهاتهم يد الموت هنا لا تفرق، تقبض من يقبّله الرّصاص أو تحزّه السّواطير.

الاجتياح

لثمةٌ سماويّة بيضاءُ دغدغت أنفه، قبلةٌ باردةٌ ارتقت بنظره نحو السّماء، سماءٌ سوداء تنشر قبلاتها البيضاء على الكون برداً وليس سلاماً، أزيز الرّصاص يعبث بالهدوء، والمدافع تعوي ثاقبةً جدار التّرقب، شيء ما يخبره بهجومٍ وشيكٍ حاصلٍ ما إن يصبح الليل مدججاً بثلوجه، سيهجمون في وقتٍ لا إمداد يصلهم قبل أيامٍ، وما هذا الثّلج إلا إشارة البدء لعملية زحفٍ دمويّةٍ.

أخبر حسن أصدقاءه بهواجسه التي تقدّ شريانه بخوفٍ مبهمٍ، على أناسٍ لا يعرفهم ولكنّه أراد الالتحاق يوماً للدّفاع عنهم.... فحيح الأفعى التي تقترب شيئاً فشيئاً يدعم حجّته وتكهّناته فاقتراب السمّ خدش جلودهم بقلقٍ مبهم. قبلات الثّلج تكاثفت لتصبح غلالةً شغوفاً تغطّي تفاصيل تلك الليلة، فيعكس أبيضها بُهاتاً خفيفاً على الأعين في ظلِّ الأضواء القريبة النّابعة من المصباح الدّاخن داخل الثكنة. حال الثّلج في هذا الليل كحالنا في هذه الحرب، فرغم بياض قلوبنا إلى أننا نتدثّر بعباءة السّواد الحزين، لقد ابتلعنا الحزن بمعنىً أدق. تذكّر وقتها عيني راما التي أحبّها فبلعته عيناها يوماً لتلفظه قنديل بحرٍ منتحرٍ على شاطئٍ مهجورٍ، لكنّه ومن أجل البحر الذي ابتلعه زمناً وعلّمه أن للنّوارس قيمةً ما دام بحرهم حيّاً، لن يقف مكتوف الأيدي وهو يستشعر اقتراب الدّمِ. نسمات النّجيع العطنة ترمي قذاها على عيون الأحياء الساهرة على الرغم من البرد فتهمد جامدةً من دون

حراك.

سماكة الثّلج تزداد فوق الطريق العابر تلك الأحراج، وبأقلّ من ساعةٍ سيغدو مستحيلاً التّنقل بسيارةٍ خشية انزلاقٍ محتّم. عليه الاتّصال بالثّكنات المتجاورة لإمدادٍ فوريٍ لمؤازرة الفرق المتقدّمة ولتنبيه النّاس في القرى الغافلة تحت خداع الثّلج. أخبر حسن صحبه بما ينوي فعله. نصحه سامر بأن يوفّر على نفسه ذلك العناء فلن يجني من اتّصاله سوى خيبة الأمل بأفضل الأحوال، في تلميحٍ مبطّنٍ لسخطٍ واستهزاءٍ سيقابل به كلامه على الطّرف الأخر من اتّصاله. أصرّ حسن على مخابرته تلك ولكنّه لم ينل منها سوى بعض النّصائح والتّوجيهات المتهكّمة كما توقّع سامر. أغلق السّماعة يبتلع مرارة الأسى والأسف، لم يدروقتها من يعبث بمن وكيف تسير هذه الحرب بهذه العبثيّة المخيفة والازدواجيّة الرّهيبة.... فمن ستصبغه شبهة القتل إن وقع المحظور؟ من أشهروا سيوفهم للقتل أم من لم تدركه الفطنة لتفادي المحظور بجنونه وعبثيته؟ هل ينبغي علينا انتظار المحتّم لحين وصوله لتفاديه أم أنّ في تفاديه قبل وصوله حكمةً جديدة؟

أسئلةٌ شريدةٌ مبعثرةٌ على جانبي الطّريق الذي يتفحّصه حسن جيئةً وذهاباً ليكبح جناح غضبه النّاقم. حاول سامر التخفيف عنه من دون جدوى فرغم البرد استحال جلده كفرن حديد، هو الغضب الذي يوقد خلايانا بحرارةٍ إضافيّةٍ تلهب الأعين شرراً. لن يقف مكتوف الأيدي وسيفعل ما يراه صائباً، لن يقف متباكياً ومترحمّاً على أرواح النّائمين هناك ليكرّمهم شهداء للوطن فيما بعد، ولن يقبل بكونه شريكاً في جريمة قتلهم المتعمّدة وبفورة تنوره يخاطب رفاق السلاح:

- لن أقف ساكناً سأقصد بيت جدّ الصّغيرة لجين لأخبرهم وجوب اتّصالهم ببعض شباب القرية ممن يملكون السّلاح ليأتوا للحاجز بدلاً عنّا، أمّا نحن سننطلق لننذر القرى المتجاورة ونخليها من سكّانها في الأقل، سنساعد في دحر من تقدّم منهم نحوها إن حدث بالفعل وأحسبه واقعٌ حكماً.

يسأله وسام:

- والحاجز نبقيه بلا حراسةٍ منّا؟!

- الشبّان القادمون سيحرسونه كما أن لا سياراتٍ عابرةً في هذا الثّلج الكثيف، يكفي بقاء واحدٍ منّا للردّ على الهاتف في حال الضّرورة.

أنهى كلامه من دون أن ينتظر جواباً، أطلق العنان لساقيه باتجاه القرية التي تبدأ نهايتها بعد ثكنتهم بقليلٍ، عشر دقائقٍ كانت كافيةٌ لذهابه وإيابه. استغرب الجد كلام حسن بادئ الأمر إلى أنه سارع للتّصديق، فما من اجتياحٍ سابقٍ إلا وترافق مع أحوال جويّةٍ صعبةٍ، كعواصف مطريةٍ أو ثلوجٍ أو طقسٍ سديمي، في كلام الشّاب كلّ الحق، ربت على كتفه وباركه بالدّعاء ووعده بإرسال الشّباب في أقل من نصف ساعة. بوجهٍ باسمٍ قبّله حسن على يده امتناناً فرجفت يد الشّيخ ارتباكاً من قبلته المباغتة، للحظةٍ سرت في جسده نفحاتٌ من روح ابنه الغائب فأعادته حاضراً.

غادر حسن بسرعةٍ راكضاً مثلما جاء فلم ينتبه للشّيخ الذي اغرورقت عيناه بدموعٍ متحسّرةٍ ملوّحاً على الباب بيديه المرتجفتين.

أخبر حسن أصدقاءه بما جرى بينهما وأختار محمد للبقاء في الثّكنة وخاطب الشّباب الثّمانية البقيّة بلهجة الواثق:

- علينا الذهاب بسرعةٍ قبل أن يغدروا بهم فلنحاول ألا نخذلهم

كان الجميع مستعدين بجعبهم الكاملة حاملين كل ما لديهم من ذخيرةٍ وعتادٍ خفيفٍ، سأله سامر مازحاً كعادته:

- وكيف تيقّنت من ذهابنا معك يا حسن، مخالفين بذلك أوامر قيادة الكتيبة.... دعك من جهوزيتنا التي تقرُّ بذهابنا معك ولكن كيف سبرت ما في أعماقنا؟

يجيبهم حسن إجابةً مقتضبةً جِداً:

- نحن فقراء جميعاً في الأصل، والفقير أصيلٌ بطبعه ما لم يكن فقير شرف فهذا أمرٌ آخر.

إجابته أثارت إعجاب الشبّان الثّمانية من يشاطرهم الفقر حياتهم ما قبل الحرب وضياع الحلم فيما بعدها.

أعطاهم حسن إشارة الانطلاق، سيكونون تحت أمرته في مهمتهم هذه.

منذ التحاقهم على حاجزهم هذا وما من ضابطٍ رفيع المستوى زارهم، الضّابط المسؤول عن قيادة مجموعتهم تلك أحد الضبّاط الذين لديهم امتيازاتٌ خاصّةٌ بالمغادرة أو البقاء، فلم يروه في الشّهور المنصرمة سوى مرّةً أو مرّتين على الأكثر لأمورٍ تتعلّق بالعتاد والذّخيرة ولتقسيم الإجازات بين الجنود المواظبين على هذا الحاجز.... ولهذا ستكون مرّتهم الأولى التي يأتمرون بأحدٍ ويخوضون غمار القتال الحقيقي مع الوحوش، لم يكن حسن وحده من يتوقّع ذاك الهجوم فزملاؤه الأقدم خدمةً على هذا الحاجز شاهدوا بعين اليقين المجازر الماضية وكيف صارت وبأيّة ظروف....

العاقل من يتّعظ بالتّجربة ولا يتنظر كفّ القضاء لردّ البلاء، يكفيهم شرف المحاولة على قلّة عددهم لعلّهم يكونون حلّ الإنقاذ في الزّمان والمكان المناسبين.... جلَّ ما يتمنّونه هؤلاء الشبان أن تخيب توقعاتهم ولا يضطرّ المئات للنّزوح من بيوتهم في هذا البرد الزمهرير، فمنهم من لا يحتمل البرد والخوف، إلا أن كحل البرد أفضل بكثيرٍ وأهون من عمى الموت وهول الخوف الذي يسبقه.

تقدّموا بخطاً واثقةٍ على دربٍ يفترش بياضه الأعمى، تسبقهم آمالهم بتحقيق المرجو من مخاطرتهم تلك. الطّريق بين القريتين ينصّف حرشاً كبيراً على جانبيه وغالباً ما يسمع منه عواءٌ لذئبٍ أو ضبعٍ، لم يفكّروا بوحشٍ ضارٍ قد يعترض طريقهم فالوحوش البشرية التي يفكّرون بها ويحثّون خطاهم نحوها أفظع بكثيرٍ وأشدّ افتراساً وفتكاً. الطّريق المضاء بمصابيح الجيب خاصتهم مفرودةٌ أمامهم كقرطاس أبيض، وأي حبرٍ سيدبّ عليها سيترك أثراً محكماً وبصماتٍ يستلزم طمسها ممحاة من جنس القرطاس نفسه.... لم يعترض طريقهم أحد، جمّد الثّلج الأرواح في أمكنتها فبدا دبيبهم على الطّريق الثّلجي المتحرّك الوحيد في ذاك الحرج المترامي الأطراف والذي تقع في نهايته القرية التي على تخومها يترقّب الموت بعيونٍ جائعةٍ.

وصلوا القرية النّائمة على وهنٍ من ثلج. الليل مبكرٌ بساعتين على انتصافه والضّباع الآدمية لن تهاجم قبل انتصافه لتتأكد من هجوع الجميع.... أزيز الرّصاص الكثيف يخترق عباءة الليل هنا بشكلٍ واضحٍ وقريبٍ، بعض الطّلقات القريبة جداً تتبدى للعين في انعكاس أضواء المنازل على وجه الليل كشهبٍ حمراء ضالّةٍ متّجهةٍ، هو زمن الضّلال من دون شك.

يهتزّ الوجوم المكسو بهدوء الخدر والبرد بعويل المدافع القريبة، والتي ازدادت وتيرتها منذ وصولهم القرية، التي بدأوا بإنذار أهلها بيتاً بيتاً حتى وصلوا بيت المختار، الذي تكفل بالاتّصال ببقيّة البيوت لإخطار الجميع بوجوب حمل أغراضهم الخفيفة وأوراقهم الشّخصية للنّزوح من القرية تحسباً لهجومٍ محتمل الحدوث.

فزع الأهالي من نومهم، لم يكن إقناعهم صعباً فالإنذار من جهةٍ رسميّةٍ بحكم أن حسن ورفاقه من جنود الجيش النّظامي، ولأن ندب المجزرة الماضية وجروحها النّازفة حتّى ليلهم هذا لم تندمل بعد....

مجزرةٌ مخزيةٌ راح ضحيّتها عشرون يافعاً وامرأة وشيخاً، أُعدموا ميدانياً أمام ذويهم في ساحة القرية وعاثوا بقريتهم فساداً وإذلالاً لبقيّة أهلها حتّى مجيء القوّات النّظامية فدحرتهم على أعقابهم. استغرق الأمر ساعةً واحدةً لتجمّعهم في ساحة القرية، فقام حسن بالاتّصال بجدّ الصّغيرة لجين ليُعلم أهالي بلدته بأنّ لديهم اليوم ضيوفاً سيبيتون عندهم ليلتهم البيضاء هذه.

أعلم حسن المختار بوجوب المغادرة والانطلاق من فورهم وأن الأهالي في القرية المتجاورة بانتظارهم، تفحّص حسن في وجوه المغادرين قبل ذهابهم لعلّه يجد شباّناً قادرين على حمل السلاح للبقاء معهم وتهيئة غطاءٍ لنزوح الأهالي حتّى وصولهم للقرية المتجاورة، فتعسّر عليه ذلك فبادر لسؤال المختار قبل انصرافه فجاء جوابه بأسفٍ غريبٍ من نوعه:

- لا شباب في قريتنا يا بني ليقاتلوا معكم، جميعهم في الخدمة على الجبهات الأخرى.... هناك بعيداً في المحافظات التي هرب أبناؤها خوفاً، فالتحق أولادنا بالجيش لاستردادها ممن

استباحوها. أبناؤنا لا يخافون يا بني ولكننا خائفون من دونهم.

وأنهى حديثه بصمتٍ أبرد من ثلج ذاك الليل الطّويل، ذُهل حسن مما سمعه ولم يجد جواباً يُعزّي ذاك الشّيخ المغرق في الحزن فقال له:

- نحن أولادكم يا عم فلا تخافوا.... سيروا برعاية الله.

كلام المختار حفر عميقاً في روح حسن، أوقن وقتها بأن ما فعلوه ولو اعتبره البعض مخالفةً للقوانين هو عين الضّمير والصّواب، فلا حقّ في هذه الدّولة المقلوبة التي اختلط حابلها بنابلها، والتي صار لزاماً على غربها المضيء أن يكتسح الظلام الذي طال داخلها وقلبها.... يا للهول ويا للوزر الكبير ويا للأسف أيضاً.

تجمّع النّاس بمجموعاتٍ صغيرة تلتحف خوفها، وأكثر ما يدفّئها سماكةٌ من ثياب، وانطلقوا جماعاتٍ على ضوء مصابيح خافتةٍ كي لا يثير تقدمهم انتباه أيٍّ كان.... ودّعهم الجنود التسعة على تخوم القرية بمحاذاة الحرج الكبير، شيّعتهم نظراتهم حتى توارت آخر مجموعة في لجّة الليل القارسة، تنهّد حسن الصّعداء وشرع يفكّر في مكانٍ قريبٍ من القرية يختبؤون فيه حتّى انقشاع هذه الغمّة وانزياح الليل، انتبه حسن لقنطرةٍ صغيرةٍ محاذاة الطّريق العّام يجري وراءها نهر يسقسق هادئاً، على الرغم من البرودة فكّر بأنّ مكاناً كهذا سيكون أكثر مكانٍ بعيدٍ عن ظنونهم في حال قدومهم المتوقّع، فمن الغريب في جوٍ كهذا أن يقبع أحد مختبئاً وراء جدار نهر صغير.

تفكيره قد يحتمل خطأً ما فارتأى مشاورة أصدقائه بذلك فوافقوه دونما اعتراض....كانوا كحّواريين تابعين له، وكان مخلّصهم بل ومخلّص لقرية بأكملها من خطرٍ بات قاب قوسين

أو أدنى نظراً لاقتراب ودنو أزيز رصاصهم المتطاير... وثب الشبّان بخفةٍ لما وراء الجدار، يغطّيهم الليل والبرد، الحرج وراءهم على بعد أمتارٍ قليلة ٍ ولعلّه سيكون ملاذاً آمناً لهم وقت يضطرّون لانسحابٍ ما... بدا الأمر مطمئناً، جلسوا متيقّظين في الظّلام يحدّقون بعيونه وما عين الظّلام سوى أذنٌ صاغية....شنّفوا آذانهم وأسماعهم لأي دبيبٍ متحرّكٍ فالليل يقلقه الهدوء والصّخب في ظروفٍ كهذه....لفحهم القلق حين خفتت الأصوات وهدأ أنين الهواء وهمت ذرات البارود المتطاير فوق الثّلج فارتاح الجو من سقمه.

- أتراه بداية الاجتياح؟!. سأله سامر فأجابه حسن: أتوقّع ذلك.

هو الهدوء الذي يسبق الدّم فلن يتسلل الأوغاد تحت جنح الليل وهم مدججون بالأزيز، سيقنعون بالهدوء ليخادعوا السّكينة المتعبة لليل القرية المتّشح بالتّجمد، الصّمت ثقيل جداً في الحروب هو دائماً إشارةٌ لبدايةٍ أو نهايةٍ، وللبدايات والنّهايات وقعٌ مختلفٌ في النّفس، فبداية الحرب أثقل على الرّوح من ختامها ولو كان الأخير فاتكاً لها في الأقل. نهاية الحرب هي النّهاية الوحيدة المحببة في هذا العالم... بدا الصّمت مزعجاً لأسماعهم، فنبض قلوبهم في الرغم من رتابة أنفاسهم في ليلٍ بهيم، يربك سكون أجسادهم ويقلقل اتّزانهم، ولعلّ هدوء القرية الصّاخبة بأنوارٍ كاذبةٍ زاد حدّة توترهم إزاء هذا الصّمت المهيب.... إلا أن طائراً على زيتونةٍ قريبةٍ منهم وشى بمكر الظّلام فصفق جنحيه على حين غرّةٍ ناعقاً وطار.... للطّيور والحيوانات قدرةٌ سمعيةٌ تفوقنا نحن البشر، أتراه سمع دبيبهم فهرب مسرعاً.... يا للقباحة

حين يهرب مثال القبح من قبحٍ آخر، لا عجب بأن الحياة عينها تهرب منهم أنّى حلّوا.

فجأةً تواتر الهواء بشكلٍ مريبٍ أُثقل صمته بدعساتٍ لأقدامٍ بعيدةٍ وهمهماتٍ خافتة. فضحتهم أنفاس الليل فبرده أجبر حناجرهم على نغماتٍ خفيفة ووفقاً لما سمعه الفتيان من همهماتٍ فعددهم ليس بقليلٍ أبداً، قد يناهزون الخمسين رجلاً على وجه التقدير. أنفاسهم اللاهثة قلقلت هدوء الليل حين وصلوا تباعاً مرتدين قناع الغدر المظلم أكثر من ليلهم، دخلوا القرية متسللين بخفّةٍ متناهيةٍ متفرّقين بثنائيّاتٍ مسلّحةٍ أمام كل بيت لينفلت الزّعيق، تكبيراتٌ ونداءاتٌ داميةٌ باسم الله.... إلههم الذي يذبحون باسمه ليستقيم على عرشه، فهم المكلّفون باتّزان ذاك العرش.... أيّ إله بالوكالة هذا من يحتاج قطيعاً من المارقين وحثالة الدّنيا ليقيموا ديانته.... الله وحده يعلم ما هو هذا الإله.

زعقت التكبيرات كثيراً ثم سكتت لبرهةٍ، لا بد وأن العجب قد بلغ منهم مبلغاً لا حدّ له، ضحاياهم نجت من قبضة موتهم قبل أن يشفوا غلّهم بلذّة ذبحها كما في المرّة الماضية، فالكافرون في هذه القرية لم يتّعظوا من درسهم الأول وكان لا بدّ من غزوٍ آخر أو لنقل فتحٌ آخر ليرتدّوا عن غيّهم

جُنَّ الجنون وتعالى العواء من كل حدبٍ وصوبٍ، تحوّل ليل القرية إلى مسرح عواءٍ بشريٍ، الكلّ يصرخ يستنكر ويشتم إلهه عينه الذي جاء ليقاتل تحت رايته... صاح أحدهم بصوتٍ ثقب أذن الليل:

- أين هرب هؤلاء الكفرة؟ كيف أفلتوا من قبضتنا؟ سنلحقهم ولو كانوا في آخر الأرض، ولكن فلنقوّض بيوتهم ونجعلها خراباً قبل

الرّحيل، فلن يذهب جهدنا هباءً منثوراً... سنحرق بيوتهم وندمر كلّ ما فيها انتقاماً لنصرٍ أفلت من أيدينا.

صفقوا له بحرارةٍ أذابت جليد الهواء ويا للنّصر المؤزّر الذي هرب!

الحياة ليست جديرةً بلقبها ما دام هؤلاء على قيدها. يتوجّب علينا إبادتهم وقطع دابرهم واجتثاث عرقهم، فمثلهم لا يُردع ولا يتغيّر أو يتبدّل، نسلٌ شيطانيٌ بحت ولله في خلقه شؤون.

كانت خطّة حسن كما تداولها مع الشبّان في طريق وصولهم لمشارف القرية بإفراغ السّكان منها، وبأن يلبثوا حيناً متوارين عن الأنظار للحيلولة من دون لحاق الوحوش بمن انسحبوا في حال جُنّ جنونهم وأرادوا انتقاماً.

هرجهم ومرجهم كان يؤمن غطاءً لهمساتهم الخفيفة وراء الجدار المطلّ على ساحة القرية بتماسٍ مع الشّارع العام

- إنهم يكسرون ويدمرون أثاث المنازل. قالها سامر بصوتٍ هامسٍ

- المهم أنهم لم يذبحوا أحداً أمّا الباقي فهيّن أيّاً كان يا سامر.

همس بسّام:

- متى سننسحب يا حسن؟

يردّ حسن بورويةٍ:

- كانت أمنيتي أن نكون أكثر عدداً منهم لنبيدهم عن آخرهم، إلا أننا لسنا بقادرين على مناوشتهم، فقوّتهم تفوق قوّتنا بكثيرٍ وعددهم يفوقنا بأضعاف. سنتّصل بجدّ لجين بعد انسحابهم من هنا ليستقصي لنا عمّا حصل في البلدة المتاخمة لخطّ المواجهة، وإن كان الجنود هناك بحاجةٍ لتعزيزات، فإن كان ولا بد ذهبنا

وراءهم وقنصنا بعضهم من الخلف، وإن كانوا متسللين من جهة أخرى فالأمر يحسم بعودتنا للحاجز من دون أن يعلم أحد.

كان الشبّان مؤمنين بحسن وفطنته، فلسفته كانت تختصر أماسيهم الطّويلة، هو أكبرهم سنّاً ويحبّونه بغضّ النّظر عن أيّ أمرٍ آخرٍ.

التمّ الأوغاد في السّاحة مجدداً بعد أن عاثوا خراباً في البيوت تدميراً وتكسيراً لبعض السّيارات القليلة الخاصّة المركونة بجانب منازل أصحابها، نقاشاتٌ غاضبةٌ تحتدم بينهم وهنا يصحّ المقال بأن الأفعى إن لم تجد ما تعضّه ستعضّ ذيلها.

استشاط غيظ أحدهم فضرب الآخر لكمةً على وجهه أوقعته أرضاً فما كان من قائدهم إلا أن أطلق رصاصةً عليه أردته صريعاً، رصاصةٌ أجفلت الأوراق المثقلة بالثّلج فتساقطت على رؤوس الشبّان المتخفيّن بعباءة الليل.

أنهى الرّصاص الاحتدام والتّشاحن بينهم وعاد الصمت ليفرض سلطته من جديد صاح أحدهم:

- الثالثة فجراً وعلينا العودة قبل طلوع النّهار هل سنلحق بهم أم ماذا أيّها الزّعيم؟

فيجيبه الزّعيم المزعوم:

- لن نلحق بهم فمن واتته الفطنة للفرار فهو متهيِّئٌ ولو قليلاً لقدومنا، فلنؤجّل الأمر لموعدٍ آخر، سيستكينون للغفلة بعد أشهرٍ أخرى، وعندما نغافلهم نلقّنهم درساً لن ينسوه لما تكبّدناه من معاناةٍ في هذه الليلة، لقد أرهقنا المجاهدين على خطّ التّماس ليؤمّنوا لنا غطاءً صوتياً وناريّاً لقدومنا وها نحن سنعود بالخزي، ولكن لا بأس فأيّامنا هنا طويلةٌ وحقدنا لم ينفذ بعد.

أعطاهم الزّعيم إشارة الانسحاب للعودة من حيث أتوا، فتأبّطوا خيبتهم وهمّوا بالرّحيل من دون تفكيرٍ بدفن الجثّة المخضّبة بالدّماء، حتّى بادر أحدهم بسؤال زعيمهم عنها فليس من الحكمة إبقاؤها هنا فمتى عاد الأهالي عرفوا بمجيئهم وعودتهم صفر اليدين، فأشار عليهم بحملها معهم ودفنهم بعيداً، أما الثّلج المخضّب بالدّم سيتكفّل الثّلج المتساقط بتأمين غطاءٍ له في هطلٍ آخر قريب، فبرودة الجو تشير إلى هطلٍ وشيكٍ في هذه الليلة الطّويلة.... غمغم زعيمهم متأففاً وأشار إلى أحدهم بحمل الجثّة وخاطبه هازئاً:

- احمل هذا المجاهد لننقله معنا وندفنه في مقبرة شهدائنا حيث مقرّنا، ولو أنّي وددت أن نرتاح من عبئه نهائياً منذ أمدٍ، فمنذ وصوله وهو يثير الشّغب أنّى ذهب وللآن لم يتعلّم العربيّة كما ينبغي.... تزعجني قرائته لكتاب الله فأحسّ بحرقةٍ في سمعي حين يتلوه، أصول الدّين واجبةٌ ولا يحق لغير المتمكّنين من اللغّة قراءة كتاب الله، يشوّه بعض الكلمات فتلحقنا الذّنوب إن سمعناها.... حرامٌ والله.

حمله أحدهم على كتفه متأففاً، دمه ينهمل على الثلج برتابةٍ دافئةٍ تزعج بياضه ليرسم خطاً على طول خطا حامله، في سرّه كان يلعن من قتله ومن أشار بوجوب حمله، أما الفتيان المنصتين لحديث الحلال والحرام ذاك والذي أصبح أمراً فارغاً من معناه الحقيقي وجوهره الأصيل اعتراهم الذّهول... غدا الحرام في لكنةٍ لا تساعد على قراءة كتابٍ مقدس أمّا القتل في نظرهم ليس حراماً أبداً!

صار الفجر قاب قوسين أو أدنى منهم، ساعةٌ ونصف تفصلهم

عنه، مازال غافياً وراء تلك التّلال تاركاً لليل تطريز أضغاث أحلامهم على هواه، فمنذ بداية الحرب كلّ الأحلام هربت صوب لجّته بما فيها أحلام اليقظة، فما من أحلامٍ ترفرف فوق المآقي لطّلابٍ لا يدرون متى ينهار حائط صفّهم فوق رؤوسهم بقذيفة هاون مأفونة، أو لعشّاق ضاقت أفقهم وضاعت أعمارهم بين سماسرة الحروب.

الأحلام كأصحابها دفعت فاتورة الحرب ثمناً باهظاً جداً.... أحد الأحلام أفاق عين العدو التي أغمضها الليل عنهم، وسام المحبّ من يعاند الحياة والأقداروالحرب بحبه لفتاةٍ تبادله الحبّ بصدقٍ نادرٍهذه الأيام.

رنّ هاتفه النّقال فجأة، لم ينتبه وسام قبل الاتّصال المفاجئ من حبيبته بأنّه لم يُخرس صوت هاتفه كما فعل صحبه، صوتٌ شنّف آذان الموت لتتراجع القهقري بعد أن طوت أسماعها البغيضة.

أحدث جلبةً بين سكّان ذاك الليل ومع أنّه قام بإسكاته فوراً إلا أنّ الرّنين هزّ ستار الليل الصّامت وفضح ستارهم، تواتر نبضهم لذروته واحتار الشبّان بهذا الأمر المفاجئ الذي هتك سترهم وسيودي بحياتهم إن لم يحسنوا التّصرف، أشار حسن بالانسحاب الهادئ لما وراء الحرج، فالغابة ستغطي بشجيراتها الكثيفة المتقاربة ما سيفضحه الفجر وقت بزوغه، الوقت يداهمهم وعليهم الانسحاب فوراً فعدوّهم لديه من المصابيح ما سيكشف أمرهم، وما بقي لديهم من زمنٍ لا يتعدى نقاشهم حول من رنّ هاتفه أو من أي اتجاه ٍداهمهم صوته.... انسحب الفتية بخفةٍ متناهيةٍ وحذرٍشديدٍ، ساعدهم بذلك صفحة الثّلج

البيضاء التي تخفي تحتها الأغصان المتكسّرة والحجارة التي قد تصدر أصواتاً تثير الريبة والشكوك. الأوغاد ما زالوا يتساءلون عن مصدر الصوت، وكلٌّ ينفي علاقته برنين الهاتف، فهواتفهم مقفلةٌ منذ انطلاقهم من جحورهم عدا هاتف زعيمهم الذي يتعمّد إبقاءه نشطاً من أجل اتّصالٍ طارئٍ على حين غرّةٍ.

زعيمهم الذي شقّ حقده ومزّق فرحه بهذا الليل نزوح الأهالي المفاجئ، لربّما كانت أمنيته أن يجد أحداً لتبيان الواقعة قبل وصولهم، وليفرّغ فيه طاقة حقده المجنونة التي لجمت أنيابها عنوةً، أومأ إلى مجموعةٍ من مقاتليه بالبحث في الأماكن القريبة من الطّريق العّام، والتي يُحتمل أن تخبّئ بين أكماتها أناساً تأخّروا في الفرار من أهل القرية. فانطلقوا يبحثون بدقّةٍ تحت أضواء الكشّافات التي بحوزتهم، لا آثار تدلّ على أشخاصٍ فارّين، كلّ الجهات نظيفةٌ عدا النّهر، لربّما لم يكن بحسبانهم بأن الفارّين سيجتازونه في ثلجٍ كهذا مخافة الانزلاق.

تقدّم أحدهم من الحائط الذي اختبأ وراءه الشبّان الفارّون وصوّب نور كاشفه نحو النّهر ليزعق زعقةً هزّت جدران الليل الأدهم:

- لقد فرّوا من هنا آثار أقدام على الثّلج.... لقد كانوا هنا هيا تقدموا.

تناهى إلى سمع حسن ورفاقه زعيق ذاك المقاتل الغاضب، فحثّوا خطاهم للوصول إلى الحرج، وماهي إلا خطواتٌ ثلجيّةٌ قليلةٌ حتّى وصلوا الأكمات المتشابكة كنسيجٍ محكم، فاضطروا للزّحف تحتها منعاً لإثارة الشّبهة لمكان تواجدهم بتحركٍ مؤكّدٍ للأغصان المنخفضة المتعانقة كالعاشقين.

تعالت الزّعقات من الجانب الآخر، تكالبوا أمام زعيمهم باقتراحاتٍ للحاق بهم، إلا أن زعيمهم الفرح بحصوله أخيراً على مراده كان أكثرهم هدوءاً وتفكيراً، فردع أحد مقاتليه من قفز باتجاه النهر للحاق بهم وأمره بالتّراجع. كاشفات الضّوء تسبر نصف الحرج الذي يضمّ الشبّان التّسعة، فثووا داخل الشّجيرات منبطحين على بطونهم كي لا تسبر الأضواء وجودهم وتفضحهم، خاطبهم حسن بصوتٍ حذرٍ:

- سنهرب.... سنعبر الحرج ما إن هدأ زعيقهم وغفلت أضواؤهم عنّا، ولا أحسب ذاك الزعيم سيعمد لقتالنا في هذا الليل، بطلوع الصّباح سنكمل طريقنا بحذرٍ شديدٍ فلسنا بقادرين على مواجهتهم وحدنا، وغداً سنتّصل بالقيادة لإرسال نجدةٍ لمؤازرتنا، فلا جدوى الآن من اتصالٍ لا نقدر على شرحه. لربّما جاء الصّباح لنا بعذرٍ من الأهالي الذين أنقذناهم من الموت فيرسلون إمداداً فورياً لإنقاذنا، أمّا إن صار القتال لزاماً في هذا الليل سنقاتل لآخر طلقة معنا، وليخبّئ كلٌّ منكم رصاصةً لنفسه قبل وقوعه في الأسر فأسرهم يعادل موتاً بطئياً لألف عام.

كان الفتية يصغون لحسن كالعطاش، كلامه روَّى أوردتهم التي جففها الخوف والتّوتر، ثقتهم بكلام حسن تفوق ثقتهم بأنفسهم فأخبروه بتنفيذ كلامه حرفياً.

حاول حسن التّكهن بما يدور في خلد ذاك الإرهابي ولمَ أحجم عن ملاحقتهم، لربّما هناك أمرٌ يبيّته للفتية، وعليهم توخّي الحذر بقادم لحظاتهم الحرجة، فكّر بالأمر مليّاً ليتوصّل إلى ما أسرّ به لصديقه بسّام عند سؤاله عن سبب إحجامهم ذلك فأجابه:

- يريدنا أسرى يا بسّام.... يريد أن يعرف القصّة التي فاتته،

ويريد الانتقام للذّة القتل التي حُرم منها اليوم، ولعلّه يريد لنا موتاً سيقضي السّاعات المتبقّية من هذه الليلة في حيثياته.

إذا فصواب حسن يفرض نفسه. طلقةٌ أخيرةٌ أو رمّانةٌ أخيرة فالأسر أمرٌ محتّم إن كُتب لهم الإخفاق في انسحابهم المزمع مع انبلاج الفجر، لتبقى آمالهم معلّقة على عنايةٍ إلهيّةٍ تتلطّف ببقيّة حكاياتهم.... لم يساورهم النّدم ولو لحظةٍ واحدةٍ، فلا ينبغي للمحسن أن يفكّر بعواقب إحسانه، لقد خلّصوا أرواحاً بريئة من مخالب موتٍ غادرٍ من شراك عبثيّةٍ لا ذنب لهم بها إلا وجودهم على هذه الأرض وفي هذا الأتون المستعر ليفرض عليهم أن يكونوا وقود ضرامها.

همهم وسام بأسىً يكاد يخنقه:

- لو لم أنسى هاتفي نشطاً لما وقعنا في هذا الكرب.

فيجيبه حسن:

- يا أخي كل شيءٍ مقدّرٌ وهذا نصيبنا ولكل منّا في دنياه نصيب.

إيمان حسن يهدّئ الفوضى التي انتابت أرواح الفتية إثر انكشاف أمرهم، كان كلامه كالبوصلة الروحيّة يقتدون بها مطيعين لا شعورياً لمنطقه وإرشاده، فالفترة التي جمعتهم معاً لشهورٍ طويلةٍ على حاجز التّفتيش، أعطتهم صورةً واضحةً عن حكمته وجلاء صورته ورجاحة عقله وضميره.

واجب الضّمير والخلق أتى به إلى هنا لينقذ هؤلاء الناس، وواجب القلب يحتّم عليه العودة من حيث أتى سالماً من أجل دريّة، وليس خوفاً من موتٍ أو أسرٍ، لن تقوى على العيش بدونه إنّه ظلّها المتحرّك وقرار حياتها وثباتها في مواجهة الفقر والحرمان لقد قاست ليعيشوا، فلن يهديها موتاً مبكراً بعد أن استردت من

الحياة عافيتها وحُسنها.

فكّر في بعض المسوغات التي سيقولها لأمه غداً حين يتأخر في اتصاله. سيطالها القلق والتّوتر بالتّأكيد.... صار يدعو بابتهالاتٍ لانزياح الغمّة قبل السّابعة صباحاً. موعده اليوميّ مع اتّصال أمّه.

على الضّفة الأخرى كان الحشد المتجمهر يرغي ويزبد أمام زعيمهم، حامل الجثة ألقاها أرضاً لعلّ الطارئ الجديد ينسيهم إياها فيرتاح من نتانة رائحة الدم العابق في أنفه....حكَّ أنفه بباطن يده كخنزير يمرّغ رأسه بالوحل، وعلى أغلب الظن هو الوحيد الذي شكر الفتية على ظهورهم لانزياح ثقل العطانة عنه. أما زعيمهم من كان على قدر لا بأس به من الدّهاء يضع خطّةً محكمةً لأسرهم.

ما لم يفطن له حسن في عباب خوفهم وانسحابهم أن ذاك الشيطان الإرهابي على هذه الأرض، له من السنين ما جعلته عارفاً بهذه المنطقة وطبيعة أرضها. فليست هي المرّة الأولى التي يجتاحون فيها هذه القرية الوادعة. ما يحبكه في خلده لا يعتمد على تكهّنٍ أو فرصةٍ سانحةٍ، بل على خبرةٍ ودرايةٍ بذاك النصف من الحرج، والذي سلكه مرة مع مجموعة أشراره في اجتياحٍ سابقٍ طال القرية التي تتمرس على الطّرف الآخر من الحرج، كما أن فطنته لم يفتها قلّة عددهم فآثار أقدامهم الثّلجية وشت بذلك علناً، ولكنّه في مطلق الأحوال لن يقبض على فريسته من دون إضعافها سيعمد على تطويقهم وترويعهم للحدّ الذي يعجزهم عن المجابهة ساعة الاحتدام، فالزّناد الخائف لا يصيب هدفه غالباً.

لن يقبض عليهم قبل طلوع الفجروما زال لديه الوقت الكافي لتحريض هلعهم تحت تأثير أضواء كواشفه، التي علم تمام اليقين بأنّها حدّت تقدمهم في الحرج مخافة إطلاق النار.... أعطى الزّعيم أوامره باستعراضٍ للقذارة لمقاتليه بعدما جمعهم شارحاً خطّته، فأشار لأحدهم ليصف ما يفعلون بمن يُقبض عليه مدافعاً من جيش الدّولة، فأطلق من حنجرته زعيقاً لا يشبه إلا استغاثات من يسكنون الجحيم، وابتدأ شارحاً، بصوتٍ مرتفع التّواتر بذيء الأنفاس والكلمات قذارته، يلفظ ما في جوفه بكل تلك البهيمية المفرطة:

- مسكينٌ من يقع بين أيدينا، نسلخ جلده عن عظمه ونداعبه بسياطٍ لاهبةٍ تكوي جلده حدّ الشواء، وقد نقطع له أذناً أو أنفاً أو ربّما نقلع له أظافره ونوشمه بندب سكاكيننا الحادّة، ومن ثم نفصل رأسه لندحرجه ككرةٍ نلهو بها بعد أن نقطّع أوصاله ونرميها للكلاب الضّالة.

ارتفع العواء والتّصفيق والتّهليل لخلافةٍ بائدةٍ لدولةٍ لا تمتّ لدينٍ أو لقوميّةٍ. دينٌ همجيٌّ فاتكٌ أفّاقٌ، لم تأتِ به سماءٌ ولم تشهده أرضٌ من قبل. وتتالت السرديّات الموشومة بالدّم لتشبع الليل اختناقاً بأطياف من قتلوا زوراً وبهتاناً على يد هؤلاء المارقين، كلّ حكايةٍ مخضّبةٍ بأفُكهم وهمجيّتهم تقابل بالعواء والزّعيق والتّصفيق، كانوا كقطيعٍ من الضّباع يحمحمون أمام الفريسة لترويعها وإرهاق ما تبقى لديها من نبضٍ وإرادةٍ.

لم يكن بالغريب ما سمعه الفتية فلقد شاهدوا وسمعوا عن قبحهم الكثيروالذي تندى له جبين الإنسانيةّ.

الفجر يبشّر بوصوله، خطوط أصابعهم تبدّت لأعينهم المتعبة

القلقة، كان الوقت يقارب الخامسة والنّصف حين أطفأ الأوغاد أضواء كواشفهم لهنيهةٍ، وساد صمتٌ غريبٌ أقلق الشبّان المتمترسين خلف الأكمات والشّجيرات المتجمّدة بشكل منفرد، كصفّ سنونواتٍ مهاجرة أضاعت سماءها تتأهّب لتحليقها حين أن يفرد الفجر ضياءه.

حدس حسن يخبره بأنّ ثمة مناوشةً محتملةً ستقع إبّان انسحابهم، فمن انتظرهم طوال الوقت باستعراضه القبيح لم يكن حبّاً باستعراض العضلات فحسب، بل هناك أمرٌ مبيّت في خلده. فذاك المهزوم لن يقنع بالفرجة بعد أن حظي ببارقة انتصارٍ بالفرجة عليهم وهم ينسحبون أمامه، ولكن لا حلّ ثالث أمامهم إمّا الانسحاب أو القتال وفي كلتا الحالتين سينفذ قضاء الله.

أصواتٌ هسيسة متقطّعةٌ كلهاثٍ بعيدٍ قادمةٌ من خلف الشّجيرات، تنبّه الشبّان إلى سرب الإرهابيين الذي انشطر عنه نصفه ليذهب في اتجاهٍ مختلفٍ، اتّجاهان متوازيان تماماً للاتجاه الذي سلكه الشبّان في ليلهم الطّويل المتعب، خطوط الرّقعة تتوضح، هو التفافٌ إذاً من جهتين متقابلتين، البيادق المخلصة باتت ضمن الكمّاشة المفترضة والخطّة تنجلي أمامهم بوضوحٍ تامٍّ، تقدّمٌ وإطباقٌ وإحكامٌ فاستسلامٌ أو موتٌ.

لم يراوده خاطر الموت من قبل، وجه دريّة يحجبه عنه، هو لا يعلم بما في صدور الشبّان المرابطين معه، ولكنّه ولسببٍ مجهولٍ كان يرى فيهم من الشّجاعة ما يفوقه، وهم من يثقون به إيماناً واعترافاً بأحقيّة عقله في التّدبير ويقينه السّماوي الذي لا يتزعزع، لم يكونوا بيادق محاصرةً كانوا كسربٍ من نحل رحيقهم نابعٌ من قلوبهم التي تتبع طريق الحقّ بالفطرة الإنسانيّة الأولى، يرمقون

فجرهم بعينٍ لا ترى إلا الجمال والنور.... شعر حسن بدنو الواقعة فهمس لأصحابه بوجوب الاستعداد للتّحرك قبل إطباق الحصار عليهم، وبالطريقة المتّبعة بانسحابهم الأوّل شبه زاحفين على الأرض وبخطواتٍ رشيقةٍ خفيفةٍ لا تزعج ثلج صباحهم القادم، وقبل أن يشرع الفتية بالتّحرك يقاطع الحذر المخيّم على المكان صوتٌ ثاقبٌ قادمٌ من الضّفة الأخرى للمشهد المحتدم

- أبا قتيبة لقد جئتك يا رجل.... أين أنت يا زعيم.

صوتٌ لم يخرق الحذر والخوف فحسب، بل خرق الجدار الصّوتي والصّدري لحسن، رعشةٌ سرت من رأسه إلى أخمص قدميه أجفلت قبضة سلاحه، انتبه صحبه للأمر وأيقنوا أن الصّوت فعل فعله في حسن ولكن لمَ وهو أكثرهم ثباتاً؟

الحقيقة أن حسن ثبت مكانه متسمّراً بأقدامٍ صدئةٍ كحديدٍ طالته رطوبة الثّلج زمناً طويلاً. همس له أحدهم «ما الأمر يا حسن؟» فلم يجبه، غدا الكون أخرساً فارغاً إلا من صاحب الصّراخ، أصاخ السّمع لصراخٍ قادمٍ لعلّه يغسل أذنيه من الصراخ الأول، فيدحضه وينفيه فجائه الصّراخ الآخر ليثبّت شكّه ويمهره بهول المفاجأة

- أهلاً بأبي أحمد.... لقد غبت طويلاً عنا.

يتصافحان بحرارةٍ كصديقين قديمين

- لقد جئتك بالسّلاح فلم أجدك في المقر فقالوا لي أنك هنا، لم أشأ الرّحيل قبل رؤيتك فقد لا يتسنّى لي القدوم قبل زمنٍ طويلٍ كي لا أثير الشّبهات على الحدود، لقد ضبطوا صديقاً لي منذ فترة وأحالوه للمحاكمة ومع أني حاولت مساعدته إلا أن محاولتي باءت بالفشل، لذلك يتوجّب علينا الحذر.

- خيراً فعلت يا إبراهيم لقد جئنا لاصطيادٍ هيّنٍ كعادتنا لكنّ طريدتنا لا تزال مختبئةً، فابقَ هنا فالأمر لن يطول لعلَّنا نحتفل معا بالانتصار.

وأطلق قهقهاتٍ لا تشبه في شيءٍ سوى نعيب البوم فوق أطلال الخراب.... غادرةً مستهزئةً ببياضٍ كوني عميَت عنه عيون أرواحهم المغرقة في الظّلام.

الثلج لم يعد بارداً أبداً، العرق يتصبب من جبينه ويديه وفي صدره أُضرم أتونٌ من قهرٍ قديمٍ، وللحظةٍ يتيمة ٍشقيّة ٍتمنّى بأنّه لم يولد في ليلةٍ شتائيّةٍ دافئةٍ ليسمع ذاك الصّوت الذي عرفته أذناه كما عرفه هو زماناً قديماً قدم بؤسهم وشقائهم، صاحب الصّوت العائد من قبحٍ سحيقٍ، قاتله الأول من أخفق في وأده فأهدته دريّة للحياة وذاك المقتول الذي لم يسعفه الحظ ليُقتل يوماً عتيقاً حين أُطلقت عليه رصاصة رحمةٍ من دريّة، لم يدرِ التّعس وقتها أنّها كانت رصاصةً رحيمةً له.

صاحب الصّوت من جعلهم عمراً يخجلون بأبوّته وعربدته ومجونه، وهو من أورث لمريم الدّمامل وهزئ من أنوثتها لتنتحر ذات تسوّلٍ للحبّ فأعادتها الحياة لتلطمه على وجهه انتقاماً.... هو من جمّل الحياة لدرّة الدرر ومن ثم رماها في سعير الفقر والخيانة، تقارع ما لم تشهده امرأةٌ قبلها لتتسوّل يوماً من أجل دواءٍ لابنتها عزّ عليها ثمنه.

هو من قنن أحلام أحمد، فرفع أحمد سقفه متسوّلاً جاهاً ومنصباً وعزاً لينس بغفلة طموحه الجامح من يبكيها الآن حرقةً ومرارةً.... أليس من باع طفولته وأهداها لمعمل الحجر ولجرود الزعتر وكسر له قدماً أبعدته عن وطنه وأمّه لعشر سنوات من

غربةٍ كسرت له قلبه وشبابه.... أليس سبب عارهم وفقرهم وتسوّلهم يوماً.... غصّ حسن بمرارةٍ قابعةٍ في سقف حلقه لم يستطع بلعها فبصقها وسط ذهول صحبه المتأهّبين للانسحاب.

كان وجه الفجر أكثر شحوباً من وجه حسن فصعُب عليهم تبيان مصابه. شعورهم كان متيقّناً بأنّ حسن يعرف الصّوت وصاحبه جيداً أما ما لم يخطر على بال أحدهم ما كان يتشقق ويتشظّى داخل صدره المشتعل كفرنٍ مستعرٍ.

خاطبه سامر بحذر:

- حسن ما بك ؟...علينا الانسحاب.

انتظر جواباً غفل حسن عن إيجاد جواب ٍمقنع ٍ له للآن، وبحرقةٍ قادرة ٍعلى إذابة ما لبسته أرض تلك الليلة من بياض، أجابه بصوتٍ واثقٍ قديمٍ قدم جمال دريّة الفاتن

- انسحبوا على بركة الله.... لديّ ثأرٌ قديمٌ يتوجّب عليَّ إنهاؤه اليوم.

- ماذا تقول يا حسن؟ إن بقيت فأنت مقتولٌ لا محالة فإمّا أن ننسحب معاً أو نبقى لنقاتل معك، فلن نتركك وحدك وسط ضباع ٍ لا تعرف الرحمة، علينا الانسحاب سريعاً قبل أن يحاصرونا، الوقت يدهمنا يا حسن.

- أعلم ذلك جيداً ولكنه ثأرٌ قديمٌ وقد حان وقته، عليكم الانسحاب من دون نقاشٍ، ثقوا بي سأتبعكم.... انسحبوا قبل فوات الأوان سأتدبّر أمري وسأتبعكم.

- لن نتركك وأنت تعرفنا جيداً.

- أعرفكم جيداً أكثر من معرفتي بذاك الرّجل القذر، ولذلك عليكم الانسحاب وألا تعصوا كلامي فأنا أعي ما أفعل.... هيا

اذهبوا على بركة الله وانتظروني في آخر الحرج من الجهة المقابلة، ومهما حصل لا تعودوا إلى هنا قبل أن أوافيكم.

كلامه الواثق لم يترك مجالاً للمناورة في حديث لا طائل منه، فهو مصممٌ على ثأره المفاجئ وليس بالوقت المناسب لاستفسارهم عنه وعن ذاك الرّجل الغامض المفاجئ. كان عليهم الانصياع لرغبته على الرغم من إلحاحهم على البقاء لمساندته، فهم يعرفونه جيداً وما بيدهم حيلةٌ أمام رجلٍ غاضب الرّوح وعنيد الرأي، ووقتٍ يحطّم رقماً قياسياً في سرعته.

اجتمعت قبضات أكفّهم في باقة وفاءٍ ليفترقوا بعدها، راجين لحسن اللحاق السّريع بهم، وقبل أن يثب سامر ليلحق بصحبه استوقفه حسن هامساً في أذنه:

- إن لم أعد أخبر والدتي بأنّ ابنها قتل رجل الضفادع، وجده يتسوّل كرامته بإهداء الرّصاص للأوغاد وقل لها أني أحبّها كثيراً.

ارتبك سامر من عبارته وجفل قلبه وقبل أن يهمّ بحديثٍ يعلمه حسن جيداً قطع عليه طريق الكلام:

- قلت إن لم أعد.... ولكني سأعود ثق بي يا سامر.

قبّله سامر على جبينه قبل انطلاقه ملوحاً له كما يفعل دائماً بأصبعين مفرودتين من كفٍّ منقبضة

- بانتظارك يا حسن.

انسحب الفتيان تاركين حسن يلملم أشلاءه المتصدّعة من لطمة قدرٍ مريعةٍ، ذنبه الوحيد فيها أنّه ابن إبراهيم بالدّم وبالجينات.

- يا للخزي هذا هو العار حقّاً.... هذا هو الفقر عينه، كم أنت فقير يا إبراهيم وأنت تبيع وطنك لغريب آفاقٍ بثمنٍ بخسٍ،

بصفقات سلاحٍ تقتل أهلك وأولادك وشعبك؟! كم أنت فقيرٌ لشرفٍ لم تعرفه يوماً.... كم أنت فقيرٌ لحبٍّ لم تعهد منه إلا حبّك لنفسك.... لم نكن يوماً فقراء كفقرك، كان فقرنا أبيض يزينه شرفٌ وحبٌّ وعفّةٌ، ورغم ثراءك وجاهك لم تعش يوماً إلا فقيراً متسوّلاً في دروب الحياة، تستجدي منها قيماً وأخلاقاً تعافك، فبقيت كالظلّ تلاحق النور وتختفي في الظلام.... ما أنت سوى خيالٍ واهٍ نكرةٌ على هامش الحياة، لن تجعل منك أيديك الملطّخة بدماء أهلك شريفاً عزيزاً ولو رحلت لآخر الدّنيا، لقد أخفينا تاريخ فقرنا وبؤسنا ومسحنا سمعتك التي طالتنا بسمعةٍ طيّبةٍ باجتهادنا وسيرتنا الحسنة، تحمّلنا زماناً إهاناتٍ جمّةً بسبب خزيك وعارك وسكرك ومجونك، كلّ ذلك صار تاريخاً قديماً نسياً منسيّاً، فلن أسمح لك بعد كلّ هذا التّعب والعناء أن توصمنا بالعار وتلّوث شرفنا بفحشك، الفقر يا إبراهيم هو فقر الشّرف والكرامة وأنت من عشت فقيراً ستموت فقيراً، سأضع حدّاً لجبروت أنانيّتك هذه سأوفي نذري لكل من قطعت له يوماً بالانتقام بإردائك قتيلاً، فمثلك سببٌ لقتل آلاف الأرواح البريئة التي تفوقك شرفاً وإنسانيةً وقدراً آلاف المرّات. الخائن لا يستحق الحياة ولو كان أباً يا إبراهيم.... ولو كان أبي.

ذاك النداء الذي حرّمه أبوهم عليهم زمناً فلم يعد يتذكّره إلا من باب المصادفة حين يسأله أحد الناس من أباك؟ فيضطر للإجابة خجلاً واليوم سيضع حدّاً نهائيّاً لخجلٍ طال فوصل لقبحٍ لا معقولٍ.

رصاصةٌ ستحل إشكال السّنين وذنب العمر أتراه أراد قتلي جنيناً كي لا أكون قاتله يوماً؟ لم تعد أسئلة حسن مجديةً فقراره

قيد التنفيذ، وضع رشّاشه على الأرض باتجاه المسرح الفاره بالضّحكات اللابشريّة، انتظر بعضاً من الوقت ليمهل صحبه بزمنٍ كافٍ لانسحابٍ عميقٍ داخل الحرج.... صافحه الفجر الكالح العائد بعد سفر الليل الطّويل.

قبّل سماءه بعينين ملؤها اليقين والعتاب، يقينٌ بأمرٍ لا مناص منه وعتابٌ لأنّه الفجر الوحيد الذي قد يمرّ نهاره بدون صوتٍ لدريّة يلامس شغاف روحه، ابتهل لله داعياً لنجاةٍ من أجل عيني دريّة وحدها وفوّض أمره لله من قبل ومن بعد.

صوب فوهة الرّشاش باتّجاه الزّائر الخائن، ما كان لأحدٍ أن يتوقّع لحسن رؤية أبيه بعد كلّ تلك السّنين بسُدادة رشّاشٍ موجّهٍ لقلب عدوٍ خصمٍ، حتّى فلسفة حسن لم تتكهّن يوماً بأن أمراً كهذا محتمل الحدوث، ولكنّه ثأر الأبرياء ثأر الوطن المكلوم بخيانة أبنائه أكثر من غدر الغريب.

توسّل يده المرتجفة أنّ تكفّ عن الارتعاش وأسلم قلبه لله تفويضاً وأمراً، وفي لحظة جنونية يغيب فيها المنطق في متاهات الحروب ويُصلب فيها الإنسان على جلجلة آثامه مكرراً مأساة قابيل وهابيل للمرّة الألف، هذه المرّة يسدد هابيل ناظراً بعينه التي ترى الحقّ على أصله، خلال سدادة تنتصفها شعرة إخلاصٍ لنصفه التّرابي، وقبل أن يصل فوران وريده لنبضته الألف يضغط الإصبع البارد على زناد الحقيقة برصاصة رحمة صوب وجهٍ يشبه وجها صادفه زمناً عتيقاً في بيتهم الفقير.

تنطلق الرّصاصة فتخرق قلب حسن فتنثره شذراتٍ منتحبةٍ على حربٍ جعلت الابن يقتصّ من أبيه، جمد إصبعه فوق الزناد وللحظةٍ كونيّةٍ أخيل له تجمّد أطرافه بينما يتسربل جسده بشلالٍ

من العرق الدافئ. هابيل أطلق رصاصته على قابيل هذه المرّة كابنٍ وأبٍ جمعهما الدّم وفرّقهما التّراب .... فمن أيّ ترابٍ أباه؟

لرّبما كان من غبارٍ غابرٍ عند تشكل اليباس، غبارٌ لا وطن له ولا هوية، رقد عند صخرة التّكوين فكوّنه الله بذاك التّراب المارق.... اخترقت الرّصاصة المجنونة جدران الصّوت وشغاف التّعقل لتقبّل جبين قابيل بشوقٍ محمومٍ، هي قبلة الابن البار لوالدٍ عاقٍ للحمه ودمه وعرضه ووطنه.

تصدّع الجبين تحت وطأة الرّصاصة التي دبّت الذّعر في مسرح الفجر المقهقه على الضّفة العفنة، وتزلزلَ كيانه متأرجحاً بخطواتٍ من ريحٍ، وهوى أرضاً بعينين جاحظتين مذهولتين من مصيرٍ باغته بقبلة رحمة، وفيها من الرّحمة أن كانت صامتةً فلم تخبره أن قاتله هو ولده على الطّرف الآخر من جحيم الحرب، التي يغذّيها بسلاحٍ يملأ جيوبه نقوداً، غير آبهٍ بمن قَتَل أو منْ قُتل، ولعله لم يخطر بحسبانه أبداً أن يكون ضحية لما جنته يداه الآثمتان.

انكفأ زعيمهم فوق رأس صاحبه تجلده المفاجأة ويطحنه الذّهول.

- يا لجسارة ذاك الهارب ويا لحظ هذا الشّقي لقد حماني الله فأخطأ الكافر هدفه فلعل إلهي أيضاً لا يحبّ الخونة.

افترّت منه ابتسامةٌ بلهاء ليستصرخ ملء حنجرته زعيقاً نابياً آمراً أتباعه بالإطباق على الفتية الفارّين فوراً مهما كلّف الأمر.

هي لحظاتٌ عجيبةٌ مريبةٌ موشّاةٌ بتقاسيم العبث الذي غفل عن الحق فأعماه الباطل وصار الزّمان مقلوباً كما القلوب التّي تسوسه وصار الدّم لزاماً لإحقاق الحقّ بعد انقلاب ميزانه.

هل صار الحقّ في زمانٍ غريبٍ هو البتر؟ أينبغي لأغصان الشجرة أن تبتر جذعها إن غزّه الدّود؟ هي إرادة غصنٍ واحدٍ نسفت الجذع الآيل للسّقوط وعليه الفرار قبل أن يهوي بعده.

كسر جمود قدميه المتخشّبتين كوتدين في عمق الأرض، هزّهما حاملاً رشّاشه بيدين مرتعشتين جزعاً وقهراً، ووثب من مكانه كغزالٍ نافرٍ تحت أزيز الرّصاص المتطاير من الجانبين، لقد أمر زعيمهم بإحضاره ولن يترك له وقتاً إضافياً ليكمل هربه وأغلب الظّن بأنه مازال يعتقد بوجودهم جميعاً غافلاً عن انسحاب الشّبان، فسرّ في خاطره لأن الوقت المنصرم أبعدهم عن مدى الرّصاص الذي يمزّق بكارة الأغصان بأزيزٍ حارق.

خطواتٌ حسن المتجمّدة تنتقل بديناميكية الخوف، فروحه التي فُصمت عن جسده منذ الرّصاصة الحانقة أفلتت منه هاربةً باتّجاه حضن أمّه، كان ينتقل مشحوناً بأطياف الماضي جارّاً وراءه فقراء العالم يمسكون بأذيال انتحابه الآدمي. شعر بأنّ أشباحاً ساخرةً تناظره بعين الشّماتة والتواطؤ من بعيدٍ، وهو يهرول كطفلٍ هاربٍ عائدٍ لحضن والدته.... طلقات الرّصاص تحزّ طريقه برائحة البارود وتقطع خطوط الضّوء المتهادي كأمواجٍ هابطةٍ من سماءٍ شاخت بداية نهارها. نبضه الذي تمترس خلف أذنيه داقاً طبول الوصاية على جسد نابه الألم ومسّه الضر، لم يترك له مجالاً لسماع صياحاتٍ ذئبيّةٍ على الضّفة الأخرى للحقيقة.... الحقيقة التي تبدّت كدربٍ هاربةٍ طويلةٍ يخترقها الرّصاص، ويدميها الأنين وسخرية القدر ولا ملاذ إلا بحضنٍ مفتوحٍ في نهايته.

دريّة، نعم هو يراها كما كان يراها طفلاً صبيّةً وافرة الجمال بشعرٍ مفرودٍ متطايرٍ يمسك السّماء من ضفّتيها، عيناها بذات

البريق تنظر إليه بحنوٍ أزلي فاغم الحب. يلتفت حوله ليرى الشّجيرات غدت باسقةً طويلةً، والأرض انبسطت واستوت على بطنها، والثّلج تفتق تحته الرّبيع، وأمامه دريّة غدت سنديانة مدّت له يديها فاستطالت غصنين طويلين وأقالته من عثرته وبلحظةٍ عاد رضيعاً وعصفوراً مغرداً على فننٍ خبيءٍ في قلب سنديانته.... تبسّم حين علم تمام اليقين بأنّ هذه الشّجرة مباركةٌ وأنّه مخلّدٌ في سنديانة لا تموت.

وحيداً تحت أكمة نالت من البرد ما أيبس أغصانها. فتجمّر ثلجها صقيعاً على أيديها المفرودة وبرصاصةٍ يتيمةٍ في جانحه الأيسر غط الطّائر نائماً بابتسامةٍ أخيرةٍ، ابتسامةٌ تفضح زيف الحياة والحرب وتعرّي إنسانيتنا من كل شعاراتها.... لقد استشهد من وفَّى نذور الوطن بقتل أبيه متسربلاً بدماءٍ ساخنةٍ تسقي يباس قادم الايام لعلّها تزهر شقائق نعمانٍ مدى الحياة.

أصدقاؤه المنسحبون لم ينجُ منهم إلا خمسة. أُطلق عليهم الرّصاص كالمطر فكانوا شهداء أحياء بمعجزةٍ إلهيّة الحدوث، وكأنّهم كانوا أخيلةً تنتقل بخفّةٍ بين الشّجيرات فلم تلسعهم يد القدر، وصلوا نهاية الحرج متسربلين بدموعهم على رفاق لم يتمكنوا من سحب جثثهم تحت وطأة بطش الرّصاص الحانق.... أخرج سامر هاتفه النقّال بكفٍّ مهتزّةٍ كرقّاص ساعةٍ، إنّها السّادسة والنّصف فينادي حسناً في عمقه:

- بقي نصف ساعةٍ يا أخي.... هيّا تعال أمك تنتظرك ستتصل بك.

اتصّل سامر بجدّ الصّغيرة لجين ليخبره واقعة الليل. فجاءه صوت الجدّ حانياً يخبره بالدّعاء الذي تسامى لسمواتٍ سبع غير

منقطعٍ طيلة ليلهم البارد وأنّ الكاسحات في طريقهم إليهم وكذلك بعض الجنود للمؤازرة.

- دعاؤهم من أنقذ بعضنا، أما من قضى فلانتهاء أجله من دون ريب والله لا يبدل قضاءه.

قالها سامر بتسليمٍ كاملٍ، رحمكم الله يا أخوتي هذا قدرنا وقدركم أن نعيش زمان حرب تقتل أبناءها بالتتابع، كتصفيةٍ لحسابٍ قديمٍ قدم الشّعوب والأمم والدّيانات والسّماء.

الشهيد

نصف ساعة بقياس التّرقب تعادل زمناً استثنائياً شارداً خارج الحسابات الكونيّة، ولكنّها بمقياس نبضةٍ خائفة ٍ بمقياس الأمّ تعادل دهراً لا يستساغ رُقاده.... نصف السّاعة التي أمل سامر أن يوافيه حسن فيها من غيابه ليلاقي صوت أمّه تمام السّابعة، هي ذاتها نصف السّاعة التي علقت في حلق دريّة كشوكةٍ عصيّةٍ على البلع.... ليلها الطّويل لم يطو جنحيه بسهولةٍ، وسبحة الابتهالات والدّعوات التي طرزت بها وجه الليل البارد دفئاً ونوراً انقطعت ذات انتباهة، ليطيح فزعٌ مبهمٌ بسلامٍ داوم على تقمّصها منذ ولادتها.

ما معنى هذا كلّه؟ كابوسٌ لئيمٌ يقضّ مضجعي دونما إنذار، منذ طلاقها من زوجها لم تراودها الكوابيس إلى أن جاء هذا الليل بثلجه ليزكي عندها شوقاً دفيناً لدفء لياليها مع حسن قطعة قلبها وضوء روحها.

غفوة ٌ ارتدت وشاحاً سماوياً مفروداً على شفقٍ أحمر كعنقٍ منحورٍ بضراوة، طائرٌ عظيم الرّأس يغطّي السّماء بجناحيه فجأة، فيسدل ستار الليل سريعاً ليبقي عينيه تلمعان بوهجٍ يلسع الأنظار، حسن يطير كيمامةٍ على سحابة، فينفث الطّائر ناراً على سحابته لتنزف مطراً يباغت الصّغير بسقوطٍ مباغتٍ، يشدّ حبل أمّه السرّي فتمدّ لها يده لتلقفه، تباغتهم يد الطّائر، يمدّ يده الآثمة ليقطع الحبل بسكينٍ حادٍّ.

حزّ السّكين شريان دريّة فأفاقت فزعة الحسّ واللواعج مستثارة النّبض مكلومة الشّريان جسّت مكان شريانها فسرى نبضها بألم نِزقٍ، وثبت من فراشها لتُشعل الضّوء وتطرد الغيّ الذي أصابها.

السّاعة تدقّ الثّانية بعد منتصف الليل.... السّماء نائمةٌ بعد بكاءٍ متجمّد والثّلج متكاثفٍ بخفّة ٍفوق أديم الأرض، كعباءةٍ سماويّةٍ طاهرة البياض والنّقاء كمولودٍ جديدٍ لم تمسّه الحياة بخطاياها بعد.

يا لهذه الليلة الثلجية الباردة هي تشبه ليلة ولادة فلذة كبدها حسن، البرد يعلن استفحاله، مشت من دون وعيٍ نحو مدفأة المازوت فأشعلتها وجلست قربها كلاجئةٍ حزينة.... ما الذي انتابها واعترى روحها فجأةً ولم هذا البرد يلفحها بهذه القسوة أتراك تقاسي البرد في ليلتك هذه يا أمّاه؟

مرّتها الأولى التي تهجس فيها بألمٍ قد يصيبه، إذ لطالما كانت تتحسس شعوره دونما تساؤلاتٍ أتراه حقاً ذاك الطائر قطع حبلها السري بابنها فصارت كعمياء تتلمّس أحاسيسها بتنبؤاتٍ عاجزةٍ؟.... أين فرّت منها تلك الطمأنينة وعلام ارتحل ذاك السلام؟ ابتدأت صلواتها بقلبٍ يكابد خوفاً مبهماً، تنذر لله النذور ليشمل بألطافه كل من يبيت بعيداً عن حضن أمّه، السّاعات تتثاقل متهادية المشي فوق نبضها فيستصرخ بندول الساعة بنظراتٍ مرتجيةٍ الإسراع.... ألا رحماك أيتها السّاعات التي صدأت عقاربها في ليلي الطويل هذا.

جلست القرفصاء جانب الدّفء تقلّب ألبوم الصّور القديمة، مرّت بأصابعها القلقة على وجوه قاطني الصّور، صورةٌ قديمةٌ

لعائلتها أيّام صباها الأول قبل تسلل الزّيف إلى حياتها.... صورةٌ أخرى لسعادةٍ مزيّفةٍ، دريّة العروس الجميلة بجانب عروسها الوسيم، تتساءل في نفسها كيف صار شكل إبراهيم الآن بعد كلّ تلك السّنين؟ سخرت من سؤالها ببسمةٍ باهتةٍ افترّت من ثغرها الجاف، وتابعت من دون أن تلق بالاً لما يساورها من أسئلةٍ مستعصيةٍ على الفهم والجواب، فتابعت مسحها الضّوئي لصورها القديمة، هذا أحمد في صورةٍ طفوليةٍ تحت شجرة الدّراق ممهورةٌ بتوقيع سعيد حين اشترى كاميرا لأوّل مرةٍ، فأراد مباركتها بصورةٍ للصّبي كان ذلك قبل قطيعتهم لها.

هذا حسن نبضة شريانها التي لا تهدأ وسكينتها وإرادة حياتها، صاحب الغمازتين الجميلتين، صورةٌ تحت شجرة التّوت يوم أخذته معها لمصنع السّجاد فالتقط له رئيس العمّال صورةً تحت الشّجرة المحاذية للمعمل.... كلّ صورةٍ لها مناسبةٌ خاصّةٌ وكاميرتها التي صادفت وتعثّرت بهم بالمصادفة، مريم وحدها من لم تؤرّخ حياتها بصور في الألبوم عدا بعض الصّور الصّغيرة المتناثرة لمصنّفات المدارس الحكوميّة نهاية كلّ مرحلةٍ دراسيّة، لم تأبه مريم يوماً للصّور، كانت تتهرّب من أيّ شيءٍ يجمّد تلك الدمّامل في وجهها حاربت لزوالها نصف عمرٍ قضته بين خبايا الأحلام والكتب.... الصّور الجديدة الملوّنة خاليةٌ من الفقر اللوني والإنساني صاخبةٌ بالفرح.

صورٌ لعرس أحمد.... صورٌ لولديه في لحظاتهما الأولى. صورٌ لمريم في محاضرة الأساتذة يلفهّا طوق من المحامين.... صورٌ لعرسها وأخرى لابنها وصورٌ لحسن وأمه تحت شجرة الدّراق.... صورةٌ واحدةٌ استوقفتها، تكرارها اللامعقول ثبّت ناظريها على

صفحتها «وكأنّه لم يكبر» قالتها بقلبٍ حانٍ مدنفٍ.

صورة لحسن بعد عودته من سفره مضجعاً تحت شجرة الدّراق في الفناء على حصير القش، ملقياً برأسه على حضن درية تماماً كما كان يفعل وهو صغير.... قلّبت الصور إلى أوّلها لتجد ذات الصّورة لحسن الأصغر هذا الصغير في حضن أمه لم يكبر ولن يكبر.

أغلقت ألبوم الصّور لتفتح ألبوم ذكرياتها لتستحضر شقاوة سنواته الأولى، وظرافته التي تهطل عليه سيلاً من القُبل ونومه الملازم لأغنيتها المعهودة:

- يا قرّة عيني يا حسن، يا مهجة قلبي يا حسن، يا نور الصبح يا حسن.

تحت شجرة الدّراق تخيّل لها المشهد عينه على ذات الحصير، رأسه في حضنها تمسح له بيديها على شعره وتدندن أغنيتها المعهودة.... أغمضت عينيها لتحافظ على تخيّلاتها من أي شائبةٍ مارقةٍ أمامها وجعلت تدندن بغصّةٍ مع طيف صغيرها الرّاكن لحضنها، غنّتها مراراً وتكراراً كنوعٍ من الصّلاة كنوعٍ من استحضار زمنٍ متكامل الحبّ والدّفء على الرغم من قباحة الفقر.

ألمٌ خفيٌ عصر روحها فجأةً فغصّت كلماتها واستنجد قلبها بيديها لحمله، وضعت يسراها على قلبها المعتصر بحركةٍ قاتلةٍ، ريقها غدا مريراً كزعافٍ لم تقو على بلعه فبصقته على منديلٍ ورقيٍ كان بيدها، لتجد أنّ كميّة الدّمع المتهاطل على المنديل أكثر غزارةً من شحيح ريقها المسموم. أتراه بكاء الرّوح من طاف في مقلها فانسكب دونما إنذارٍ ولم هذا البكاء الذي لم يستأذن بالهطول؟

ولم تحاول الإجابة عن أسئلتها فأسلمت نفسها وعينيها لبكاءٍ

مريرٍ ونشيج روحها كان بتؤدّةٍ يكمل دندنتها مثل ترنيمة توقٍ قديم.

انبلج الصّبح وأشرق بياضاً من نافذتها، كان البياض على البياض يغلفه بهتانٌ فاره، أتراه صباحٌ اصطفاه الله دونما شائبةٍ لتراه عيناها بهذا النّقاء أم أن عينيها ابيضتا لكثرة الدموع؟

بكاؤها ليس يعقوبياً حزيناً على يوسف فيوسفها تأتي ريحه بعد ستون دقيقة من ولادة هذا الصّباح، لا بد وأن شيئاً ما يخادعها من وراء الرّوح يريد إخبارها ما لا تطيق، هزّت رأسها تنفض عنه وطاويط الأسئلة والهواجس.... منذ أن فارقها ابنها يوماً ليلتحق بالخدمة لم تكابد من كابدته ليلتها الطّويلة البائسة هذه، ولم تطاردها أشباح الظّنون ولم تتعلّق بذكرياتٍ سالفةٍ حدّ الغناء والبكاء.

هذه الغصّة لم تعهدها قبلاً حتّى يوم وفاة أمّها وواجهها إبراهيم بخيانته.... هي غصّةٌ مختلفةٌ شققت روحها نصفين وزلزلت أضلعها بركان دموعٍ، ناظرت السّاعة مرّةً أخرى، كلّ ما حاولت دفعه أمامها من الوقت لم يتعد ربع ساعةٍ عرجاءٍ. الوقت يمرّ فوق جلدها كسلحفاةٍ تجر صندوقها غصباً ومشيتها تدمي ما تحت الجلد من أوردةٍ تتفتق صارخةً طالبةً نجدةً من صوتٍ يهمس في قلب الوريد ليرتق ما تقطع.

أمسكت الهاتف بيدها الباردة وجعلت تتفحّص تاريخه اتصالاتها به، جميعها في السّابعة من كلّ صباح، يبدأ صباحها معه ليغدو جميلاً مهما عُظمت خطوبه وقتامته. بالأمس كان شوقهما مختلفاً قال لها بأنه يحبها كما لو يحب نساء الأرض كلهنّ، وبأنّ ما من أنثى مهما بلغ شأوها تضاهي ذرّةً من مقدارها في قلبه.

قال كلامه من دون أن تطلب منه إثباتاً على أمرٍ تثق به كوجود أبهرها.... بالأمس تغزّل بها وبالأمس فقط نادته يا صغيري وغنّت له أغنيته التي يحب....

عادت إلى الوقت المسجّل على شاشة الهاتف إنّها السّادسة والنصف، لقد عيل صبرها، لا طاقة لها على إقصاء فيض الهواجس المطهّمة بالخواء، عليها دحضها كلّها وقطع الشّك باليقين، وما من يقينٍ سوى صوت الحبيب الغائب، ستكلّمه باكراً هذا اليوم ستغني له بدايةً ليعتقد بأنّ استباق الموعد محض اشتياقٍ وحنين.

ويجري الاتّصال أمامها جريان الدم في نسغها ووريدها، يرّن طويلاً دونما إجابة تثب من مكانها لتعيده مرةً أخرى، حسن لم يّرد على اتّصالها الأول لعلّ هاتفه ما زال صامتاً نائماً كصاحبه فالوقت أكبر من موعد صبحنا معاً؟

رددتها في نفسها عدّة مرّاتٍ لتقنع ذاك الذي يحدثها بأن حسن لا يُخرس هاتفه لأيّ سببٍ، فتلتمس العذرله بقوّةٍ لتمضي الرنّات القادمة بدون إجاباتٍ، مرّةً تلو مّرة، ثمّ أخرى وأخرى، وفي كلّ مرّةٍ تتوسّل ردّاً وصوتاً يبعد دمدمات الشياطين التي تتقافز أمامها، ولكن من دون جدوى، تقعد دونما حراكٍ لتشهق ملء رئتيها صارخةً بالسّاعة المعلّقة على الحائط الواجم والتي على الرغم من سيل الاتصالات لم تدفع سوى عشر دقائقٍ أمامها:

- هيا امض للسّابعة أيّتها التّعسة.... فولدي نائمٌ وهاتفه صامتٌ لا محالة، حدسي لا يخيب أبداً هيا انطلقي واسرعي.

لم يكذب حدس دريّة يوماً فالهاتف فعلاً صامتٌ وولدها نائمٌ فوق الثّلج، تغطّيه شجيراتٌ حانيةٌ متعانقةٌ حزناً وقهراً، وأحلامه

ترفرف فوق مآقيه كفراشات نور، ودمه يسبغ على الثلّج قدسه الأحمر فيهديه لون الخضيب ذاك الذي تُداربه الكؤوس في الجنّة.

الأعلام في البلدة ترفرف كبيارق انتصار، عيونٌ خضر تضحك للحياة فيما أحمر الأعلام يئنّ شباباً هُدر ربيعه من دون ذنب.... ذنبه أن هذا الوطن جار العدو ويوسف الأخ ومطمع الغريب، ذنبه أن الحقد الذي دُفن تحت المزابل عاد ليستيقظ روحه التي تعفّرت بقذارة دفنه طويلاً، فعاد يحمل سكيناً ليغتال الشموس، أليس الحقد أولّ الأعداء؟!

الأطبّاء يقولون أنّها تستطيع الوقوف غداً أمّا عقدة لسانها سيحلّها الوقت ورحمة الله، أحمد ومريم في غرفة المشفى المزدحمة بأخوالهما وذويهم يمطرون الدّعاء لقلبٍ مفطورٍ بمديةٍ طالت كلّ بيتٍ في هذا الوطن، جثم أحمد عند رأسها مخاطباً وجهها الموشّى بالقهر.

- أفيقي يا دريّة أفيقي يا أمّاه أنا أحمد.... ابقي من أجلي أنا ومريم ومن أجل حسن الصّغير مازال لديك حسن آخر.

فتحت درية جفنيها غصباً، اسم حسن يدغدغ في يباسها الحياة ويهزّ جزعها بقوّة، الجميع يطوّقون سريرها، وجوههم المألوفة المنتفخة العيون المتورّمة الأجفان، ومريم جالسةٌ جانبها تمسك يديها كما غابر السنين، حين كان الفقر يؤلم دمامليها فتلجأ لأمّها لمواساتها، أترى عينا تلك الصّبية تكوّرتا لتبدوا كدّملتين كبيرتين؟

ما لهذه الأوجه المستعارة العيون؟!.... أين ولّت عيونهم المزركشة الألوان؟! أين ذهبت عينا أحمد العسليتان الجميلتان؟! ولمَ تستعران ناراً متوهّجة الأوار؟!.... أين الأوجه المعهودة قبل

أن تغيب عينا حسن عن الصّباح؟ أتراها عيون الشّمس ما زالت بخير؟ أتراه الصّباح مازال أبيض؟

في سكرة الحزن تضطرب الروح فتناجي بذاك الارتياح الذي يغيب وقت الفرح، فتراها تهيم وتغنّي وتئّن وتصرخ متى شاءت وكيفما أرادت فما على الأرواح الحزينة من رقيبٍ أو عتب.

عاينت في وجه أخيها سعيد خالاً لم تره من قبل، فلجمت السؤال قبل أن تسأله روحها، تعرف أنها قريباً سترى الجميع يشبهونه ستحاول التقاف تفاصيله في الأزقّة والحارات والأوجه، في هسهسات الغديرونواح النّاي وفي لمعة ثغور الزهور حين يقبّلها ندى الصّباح، سترى وجهه في رفرفة الأعلام وفي أوجه من حملوا أحلامهم بحقائب سفرٍولبسوا وطنهم بدلات ٍمموهة.... ستراه تلك الدّنيا التي سُلبت منها بعد أن شرّعت لها أبواب عزّها ورخائها.... ستراه غناها الوحيد.... سترى غيابه فقرها الأثقل والأقسى.

أحمد المكلوم المنفطر القلب نصفين داميين، نصفٌ على حبيبٍ شاطره أحزانه قبل أن يعرف أنّ رحيله هو حزنه الأكبر، ونصفٌ على حبيبةٍ رماها الدّهر في غياهب الجب ولم يستطع إنقاذها، يمسك بيد أمّه يحاول التقاط ما بقي لديها من نبضٍ عساه يسعفه ببعضٍ من يقين.... أين ضاع يقينهم؟

ألم يكن حسن شهيد اليقين.... فلماذا ينكرون غيابه؟ ما كان أولّ الغائبين ولن يكون آخرهم، ولكنّه الفصام الذي يخنق أنفاس الحكمة والتصبّرلتهوي الرّوح إلى أقبية الخواء.... هو خواء الرّوح الذي لا يُملأ إلا بمن نحب.... وهو الخاسر ما أحبّه دفعة ٍواحدة.

لم تقوَ درية على الوقوف بمفردها يوم التّشييع المهيب، ضربت بعكازها الأرض ليغرق أسفله في أرضها المبللة بذكريات الثّلج، لم

يكن عكازها سوى حسن الصغيرولم تكن الأرض سوى صدرها.

جنازةٌ مهيبةٌ كبيرة تعج بكاءً وحزناً، من أحبّوا حسن جميعاً جاؤوه مودّعين مترحّمين على روحٍ ظلمتها الحياة فعاشت لإحقاق العدل فيها.

أخواله وزوجاتهم وأولادهم وعمّاله في الورشة وراما التي أحبّ وزوجها طارق صديقه وشريك حبّه وأباها الذي بكاه كولدٍ له، وجميع من في البلدة والقرى المجاورة.

لم تتعرّف دريّة على الوفد الرسميّ الحكوميّ، حيّوها كما يليق بأمٍ لعظيم وأهدوها علماً بعينين خضراوين تحكيان ربيعاً قادماً وكلاماً سمعه عقلها من دون أن يزنه في قلبها مثقال ذرةٍ من عزاء، فعزاء حسن لا يسعه الكون أوالبصيرة ولا الحواس الخمس القاصرة.

تتالى الهيئات الرسميّة الموقّرة والممثلة للوزارات، فالشّهيد أخٌ وحيدٌ لديبلوماسيٍ فذٍ مخلصٍ، لتصل بعدهم هيئة المحامين أصدقاء مريم والأستاذ ياسين ونجوى وكبار رجال الأعمال أصدقاء زوجها عماد.

لم يكن يعنيها كل ذاك فمن ترجو وجوده رحل، حُقَّ لولدها أن يعزي به الكون ولكن من يعزّي أماً بروحها الضّائعة؟ كيف ستسامح أقداراً أجهضته فوق الثّلوج؟ كيف للحياة أن تقتل ابنها من تحب... ويحبها؟

وبمعمعة الأسئلة التي تأخذها في عالمٍ آخربعيداً عن الشّعارات وكلام المواساة، يدخل شبّان خمسةٌ تعرفهم دريّة بقلبها وروحها، تهافتوا عليها وسط الحشود المتجمهرة، كانت تعرف وجوههم من صورٍ أرسلها حسن لهم عبر الهاتف، إنهم رفاق انتصاره، إنّهم

الشّهداء الأحياء من نجوا تلك الليلة المجنونة، قبّلتهم واحتضنتهم واحداً تلو الآخر لينتهي سامر أخيراً إلى حضنها فيهمس لها وسط الضّجيج والغناء الوطني:

- هناك أمرٌ أريد أخبارك إيّاه يا خالة، ثمة كلماتٌ أخيرة من حسن قبل انسحابنا من ذاك الحرج، حسن بقي دوننا لوحده ليقتل رجل الضفادع وجده يتسّول عند المرتزقة ويمدّهم بالسّلاح أوصاني أن أنقل لك هذا الكلام حرّفياً وختمه بأنّه يحبك كثيراً.

وقبل إعصارٍ وشيكٍ تسأله بصوتٍ كاشح النّبرة:

- وهل قتله حقّاً؟

- نعم قتله يا خالة فلقد كان خضيب الدّم يصبغ بقعتين على الثّلج المتراكم وهذا يعني أن حسن أصاب هدفه قبل استشهاده.

هول المفاجأة كان أكبر من تفادي لطمته، رجَّ عظمها وتلاطمت أحشاؤها ببعضٍ، نظرت إلى السماء بعينين متجمدتين.

- اللهم اقبله شهيداً.... لقد فدى الحقّ بروحه وحدك تعلم كم كابد وهو يردي أباه قتيلاً من أجل الحقّ واليقين.

خطاب العينين المتجمدتين لم يغب عن الحاضرين، استوى نظرها أخيراً ليطالع الوجوه الصّامتة الحزينة ودونما سابق إنذارٍ زغردت بكلّ ما يملأ رئتيها من حياة وعمرها من إيمانٍ ويقين، زغردت للإيمان بالله والحق، زغردت للوطن الذي لا نساوم حتّى آباءنا الجاحدين عليه، زغردت لقلب الشّهيد المفطور فقراً وقهراً، زغردت لحسن رمز الإيمان والنّبل والإخلاص منذ تكوين صلصاله الأوّل.

«كم أنت عظيمٌ يا ولدي» مشت على غير هدىً بين الجموع المحتشدة تحمل شبيه حسن بين يديها يلحقها أحمد ومريم

الضّالعين حزناً وبكاءً تصيح بأعلى صوتها:

- بوركت أيّها الوطن بحسن وبأصدقاء حسن.... لن نركع مادام هناك مثل حسن هنيئاً للجنّة بحسن، يا قرّة عيني يا حسن، يا فرحة عمري يا حسن، يا وجه القمريا حسن.

مشى ركب الجنازة وراء أمّ الشهيد تغنّي وتهتف لوطنٍ أهداها فقراً فأهدته أعز وأغلى ما تملك. جنازةٌ كفيض دموعٍ وابتهالاتٍ لمولى السّماوات بثبات أجور شهداء كلمته. خالدين مباركين في جنانه.

ومرّت الشّهور بلا صباحاتٍ أو بدورٍ كسرابٍ مارقٍ يفرض غشاوته غصباً على قلبها المتعب، وحدها الثرثرة من كانت تسلّي وحدتها الطّوعية.

كلّ صباحٍ كمتسوّلٍ شاردٍ، تحمل بخورها وعيدان الثّقاب وصرّة أحاديثها الطّويلة سالكةً الطّريق نحو المقبرة، حيث يرقد حسن في مثواه الأخير الموشّى بالزّهور والرّخام تطوّقه أعلام خضراء العيون، ليبدأ الحديث المكرر نفسه عن حكاية الصّبي الصّغير وليلته الثّلجية الدّافئة وأحلامه فوق السّحابة وطائره الضّخم، عن سفينة نوحٍ التي أبحرت من دون ولدٍ كافر، وعن راما التي أحب فأنجبته ولداً أسمته حسن

- لقد صرت ألفاً يا حسن.... كلّ من وفدوا إلى الحياة في البلدة اتّخذوا اسمك وسام حياةٍ، لقد نلت استحقاق حياتك بكفاءةٍ كما موتك يا ولدي فهنيئاً لك.

وللغافي في حضن الوطن تغنّي له بديلاً عن وطنها الذي ردّها متسوّلة بعد أن أعزّتها الحياة، متسوّلة لأغلى ما يُطلب وما لا يُعطى، وجه حبيبٍ غيّبه الموت.

وجه من لا ولن يعود إلا بحسن آخر لدريّة أخرى في هذا الوطن العزيز أبداً، فتنضم إليها جميع الأحياء في غناءٍ أبديٍ أزليٍ

«يا قرّة عيني يا حسن، يا فرحة عمري يا حسن، يا وجه القمر يا حسن».

تاريخ: ٢٠١٨/٥/٢١

الكاتبة: هنادي علي

ماسـتر ©